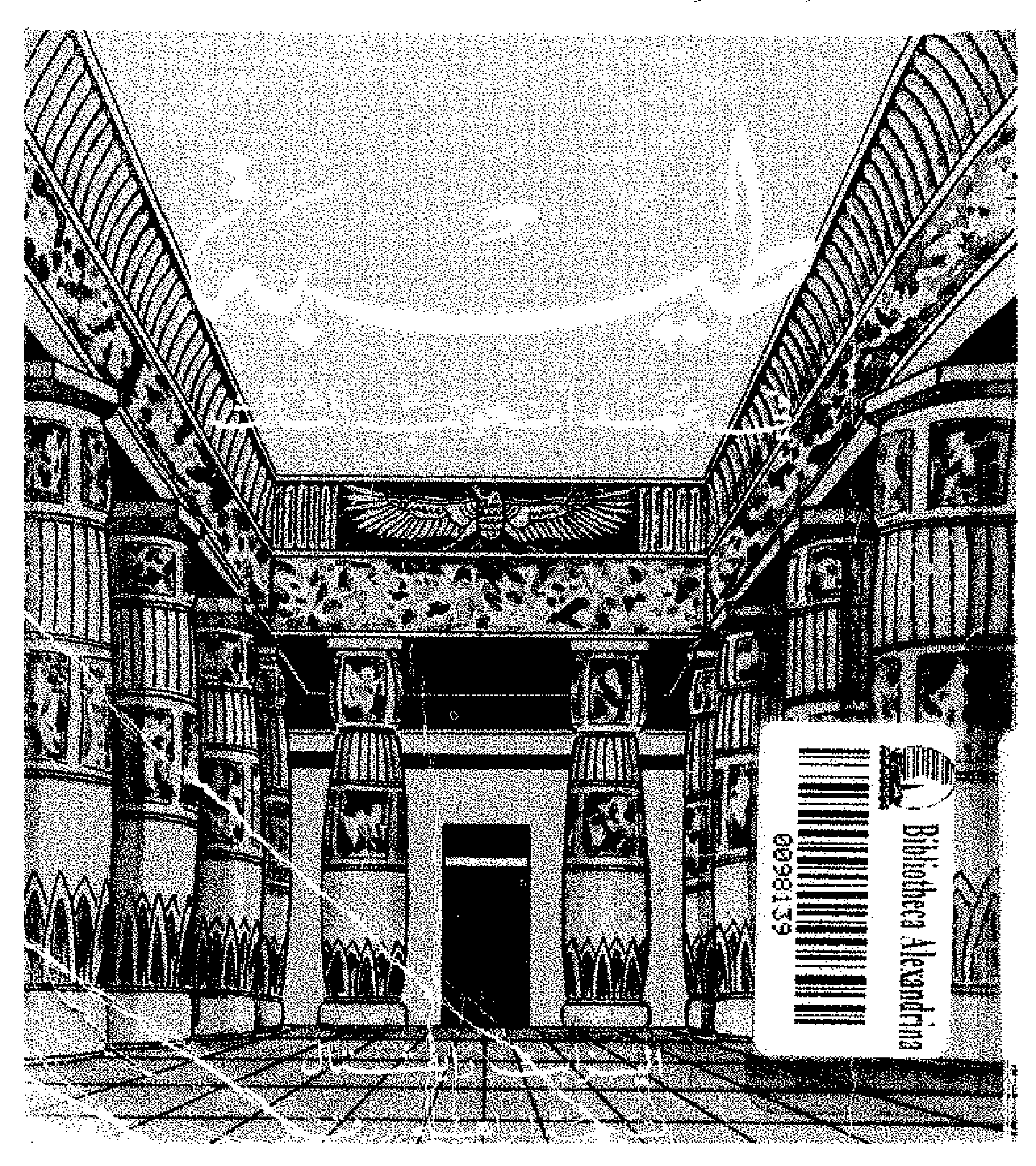
سلسلة مراكز الحضارة



طيبة
في عهد أمنحوتب الثالث

نشر بالاشتراك مع
مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر
بيروت - نيويورك

١٩٦٧

اليزابث رايفشتال

طيبة
في عهد أمنحوتب الثالث

ترجمة ابراهيم رزق

مكتبة لبنان

هذه الترجمة مرخص بها وقد قامت
مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر
بشراء حق الترجمة من صاحب هذا الحق

المسهمون في هذا الكتاب

اليزابيث رايفشتال

(المؤلفة) تخرجت من جامعة شيكاغو ، وقامت برحلات الى اوروبا والشرق الادنى ، وكتبت عن الفن المصري والحضارة المصرية . عملت تسعة عشر عاماً في دائرة الفن القديم في متحف بروكلن. وهي تشغل الآن منصب السكرتيرة التنفيذية في مركز الابحاث الاميركي في مصر .

ابراهيم رزوق

(المترجم) تخرج من الكلية العربية في القدس . وهو عضو في معهد العلاقات العامة في انجلترا . شغل مناصب تعليمية واذاعية مختلفة . وكان مذيعاً فمخرجاً فكبير المخرجين ثم رئيساً

لادارة البرامج الخاصـــة والتمثيليات في القسم العربي من هيئة الاذاعة البريطانية . وقد قام بين ١٩٥٦ - ١٩٦٠ بانشاء دائرة الملاقات الصحافيــــة والمطبوعات في شركة نفط الكويت وغيرها .

مقـــــدّمة

حينما اقدمت على تأليف هذا الكتاب عن طيبة في عهـــد ازدهارها خيّل اليّ انني استطيع التزام الحقائق والتقيد بها . ولكن سرعان ما تبيّن لي خطأ حدسي فما ان باشرت العمل حتى وجدتني مضطرة الى الاستعانة بالخيال ، ولقد وجدت في الخيال أكبر معوان ، اذ قلما تجد مؤرخاً اكتفى بذلك النزر اليسير من الحقائق المسجلة التي وصلتنا عن مدينة اندثرت منذ زمن بعيد وعن الحضارة التي انبثقت منها فلم يضف عليها مـــا تراءى له من تفسيرات وآراء تتباين بين مؤرخ وآخر . ولو سمح المجال بتذييل صفحات هـــذا الكتاب بالتعليقات والحواشي لاستشهدت بأحد الثقات المشهورين على كل قول تقريباً مما ورد في الكتاب ولاستشهدت بآخر على دحض ذلك القول نفسه . ولا يسعني والحال كذلك الا ان اعتذر عما زخرت به صفحات الكتاب من عبارات الشك التي ظلت بدون تفسير او تعليل .

ان المراجع المثبتة في نهاية الكتاب ليست سوى قليل من كثير مما استعنت به من كتب ومقالات . وقـــد اخترت منها فقط تلك التي اعتقدت انها ستكون خير عون لطلاب المعرفة

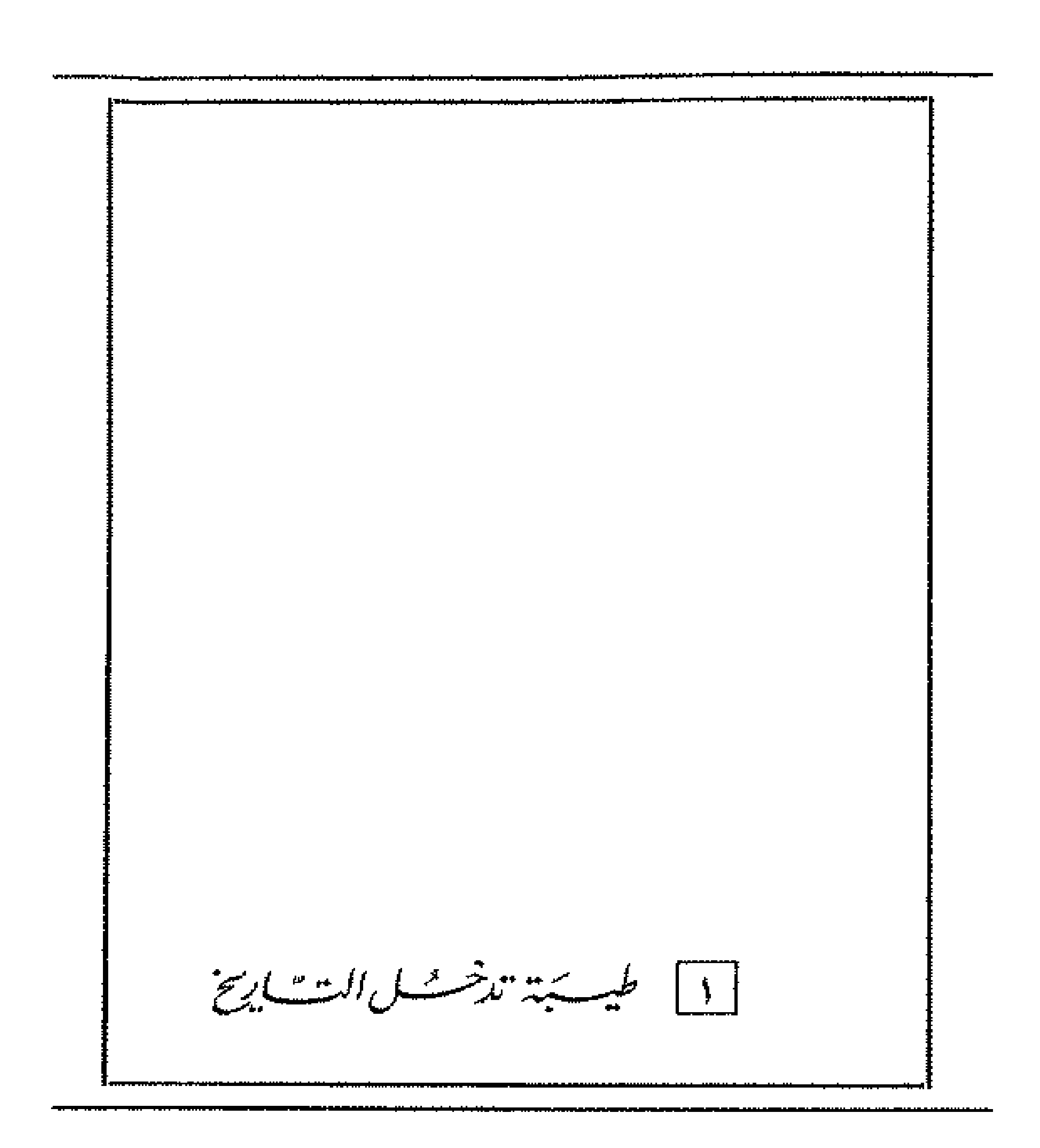
الذين يرغبون في التعمق في دراسة الحضارة المصرية في عهـــد السلالة الثامنة عشرة ، الا انني بدون شك مدينة الى اولئك الثقات الذين لم اثبت اسماءهم وكذلك للاصدقاء والزملاء الذين ضحوا بوقتهم الثمين ليطالعوا بصبر وجلد مخطوطة الكتاب قبل طبعها او بعضاً من اقسامها . وأخص بالذكر جون د. كوني قيّم دائرة الفن القديم في متحف بروكلن ، ودوز دانام الرئيس الفخري لدائرة الفن المصري في متحف الفنون الجميلة في بوسطن ، وولتر فيدرن والمرحوم وليام س. هيز وكلاهما ينتميان الى دائرة الفن المصري في متحف الفنون في نيويورك ، فجميعهم قدموا لي مساعدات قيمة بما اتحفوني به من مقترحات وما ارشدوني اليه من تصحيحات . ولا احد منهم مسؤول من بعيد او قريب عما ارتكبته من اخطاء في هذا الكتاب وما اغفلته من حقائق . واني اشكر الآنسة ماري ب. كيرنز من متحف الفنون الجميلة في بوسطن على ما بذلته من جهد وجلد في نسخ المخطوطة الاصلية البعيدة عن الترتيب ، والآنسة سوزان إ. تشابمان من المتحف ذاته لبراعة رسمها خريطة لمصر من مصادر اصيلة ، كما اشكر معهد الدراسات الشرقية في جامعـــة شيكاغو الذي سمح لي باستعمال خريطة الضفة الغربية لطيبة في عهد السلالة الثامنة عشرة ، وقد نشرت هذه الخريطة لأول مرة في كتاب وضعه اوفو هولشر بعنوان « معابد السلالة الثامنة عشرة » (شيكاغو

١٩٣٩) ، ٦٦ (حفريات مدينة حابو الثاني ، مطبوعات معهد الدراسات الشرقية ٤١) .

اليزابث رايفشتال

اسكس ، مساشوستس

٢٧ كانون الثاني (يناير) ١٩٦٤



١ طيبة تدخل التاريخ

ابنية متواضعة هي خليط من المساكن والحوانيت المتناثرة على غير نظام ، ليس فيها مـــا يلفت النظر سوى فندق هنا تطالعك حديقته الخضراء على غير انتظار واطلال شاحبة اللون هناك ما زالت تتحدى البلى بشموخها ، انها بلدة ريفية يخيم عليها الركود تحف بها قرى عفراء وحقول غير ممطاءة يكد فيها الفلاح من الفجر حتى الغسق فلا يضمن تحصيل قوته — تلك هي طيبة اليوم . ومهما كان لها من سحر تمتعت به قبل سنوات معدودة شأنها شأن العديد من مـــدن الشرق الحالمة فان ذلك السحر يتلاشى بسرعة تحت وطأة التجديد والتحسين لاجتذاب السواح والزوار . فمن اول الشتاء الى آخره لا يطالعك في طيبة الا السيارات تنهب الارض بين نصب اثري وآخر مثقلة بالزوار الذين لا ينقطع سيلهم ، لقد انقضى عهد السير على الاقدام ولم يعد الزائر يخرج في الامسيات الباردة فيمشي على تلك الطريق على ضفة النيل وسط الظلال المتراقصة ليزور الكرنك في ضوء القمر . ان تلك الطريق قد اختفت ظلالها اليوم ليحل محلها انوار كهربائية ساطعة ، واول ما يطالعك حينما تشرف على المعبد العظيم مطعم يبيع المأكولات الخفيفة للجائعين من الزوار .

وحتى وادي الملوك في مدينة الاموات عبر النهر لم يستطـــع الاحتفاظ بغموضه ورهبته . فالطريق الصحراوي المؤدي اليه اصبح شارعاً معبداً واسعاً وارتفعت اعمدة المصابيح الكهربائية على جانبيه لكي لا يضيع السائح ساعات المساء فيستغلها في زيارة مدافن الفراعنة . اما المطعم الذي لا غنى عنه فقد أقيم وسط الوادي كما اعلن ان الممرات العميقة المنحوتة في الصخر والمؤدية الى حجرات الدفن الخفية ستزود بالسلالم المتحركة .

واذا ما حل فصل الصيف فان المدينة التي كانت يوماً «طيبة» ومدينة الاموات المترامية الاطراف ازاءها تستسلمان الى سبات عميق تحت وهج الشمس المحرقة . فان السواح يكونون قد رحلوا عنها ، والفنادق الكبيرة تكون قد أغلقت ابوابها ، كذلك علماء الآثار الذين كرسوا انفسهم للكشف عن الماضي وتدوين حقائقه يحملون اوراقهم ومخطوطاتهم ويرحلون الى ديار ذات مناخ اكثر برودة . لقد حصد الفلاحون غلالهم وعادوا الى قراهم ينتظرون النيل ليفيض ويسمّد بفيضانه حقولهم فيبذرونها من جديد . اما الدساكر الصغيرة المتناثرة بين المدافن القديمة وحولها فتجد فيها قلة من الرجال مكبين بتثاقل على نحت تماثيل من حجارة الكلس يبيعونها في الشتاء المقبل للسائح الساذج على انها آثار قديمة .

ولا يعكر سكون ايام الصيف المشمسة الطويلة سوى طنين الذباب الذي لا يحصيه عــــدّ ، وصياح الاطفال والمشاجرات

الصاخبة التي تنشب لأتفه الاسباب . وفي الاقصر يعلو صوت الموسيقى الحديثة المنبعثة من غرامافون يملأ صداحه الشارع. وفي مدينة الموتى يرجّع الوادي بين الآن والآخر ولولة نساء يندبن عزيزاً فقدنه او صوت مؤذن يعلو بتعداد مناقب الفقيد وكأنه يخاطب جهات السماء الاربع . وترى على الطريق المؤدية الى المقبرة ، قرب قرية الكرنك جنازة تتقدمها فرقة موسيقية تشيّع جثمان وجيه الى مثواه الاخير وقـــد لفّ نعشه بكفن اخضر اللون . ويسير موكب المشيعين مرددين ترانيم الموت ، مسرعين حيناً ومتباطئين احياناً نزولاً عند ارادة الميت الذي يعز عليه فراق هذه الدنيا الجميلة ، ولكن اذا ما بدت المقبرة للعيان تسارعت الخطى متخلية عن وقارها .

واذا ما ارخى الليل سدوله ونشر ظلاله تعالى نباح الكلاب الجائعة في القرى ورجّعه عواء بنات آوى وهي تمسمس بين الاطلال طلباً للقوت . وان عكرت هذه الاصوات صفو الليل فهي انما ترهف احساسك بالسكون الشامل والفراغ العميق المخيم على طيبة وتزيدك شعوراً بأن طيبة اليوم ميتة لا يسكنها سوى الاشباح .

ولو ان مصرياً من عهد السلالة الثامنة عشرة شاهد طيبة في ثوبها الرخيص الذي تردات به اليوم لأنكر فيها مدينته الجميلة التي كانت تعج بالنشاط والحركة والتي شيّدت في وقت ما على ضفاف النيل لتصبح على مدى الايام رمزاً للثراء والعظمة والقوة.

بل انه لن يتعرف حتى على الاسم الذي نطلقه عليها ، وهو اسم اطلقه عليها اليونان ، وربما كان نعتاً محلياً للمدينة بدا لاسماعهم شبيهاً باسم ثيبة اليونانية (في بيوتيا) فأطلقوه عليها . امـــا المصريون فقد دعوا مدينتهم « واسط » اي « الصولجان » على اسم المقاطعة التي نشأت فيها . وكانوا احياناً يسمونها « مدينة آمون » إلهها العظيم الا انهم اكتفوا في اكثر الاحيان بتسميتها « المدينة » فحسب . وعلى حد قول انشودة في مديح طيبـــة وضعت في اواخر عهد المملكة الحديثة : « انها تدعى « المدينة » وجميع المدن الاخرى تستظل بظلها لتكتسب العظمة بالانتساب اليها » . وحينما شيد رمسيس الثاني عاصمة له في الدلتا كان خير ما حظيت به من اطراء انها « تاج جميل ... على غرار طيبة » .

كان لكل قسم من اقسام طيبـــة المختلفة اسم خاص . فمعبد الإله آمون الذي يعرف اليوم بالكرنك ، والذي نما واتسع حتى اصبح مدينة داخل المدينة كان يعرف باسم «ايبت اسوت» وربما كان معناه « المكان المختار » ، اما معبد آمون في الاقصر فقد دعي « اوبت الجنوبي » اي المعبد الجنوبي . ومدينة الموتى التي كانت مدينة تعج بالاحياء لخدمة الموتى كثيراً ما كانت تدعى «الجالسة قبالة سيدها» اي انها تقع عبر النهر من معبد آمون» كما كانت تعرف احياناً باسم « غربي المدينة » .

زار سترابو مدينة طيبة قبيل ظهور السيد المسيح وكانت حينئذ قد تقلصت الى مجموعة من القرى . وكانت حامية رومانية

قد اتخذت من خرائب المعبد الجنوبي مركزاً لها . يقول سترابو في وصفه لها انها كانت تمتد في عهد ازدهارها مسافة تسعة اميال على ضفاف النيل . وربما كانت تضم ضواحي كثيرة مثـــل « ميدامود » المجاورة لمقرّ إله الحرب « مونتو » . ان اطلال معبده هنالك يرجع عهدها الى زمن البطالسة فقط الا انها تحتوي ايضاً على حجارة استعملت من قبـــل في تشييد معابد قديمة . ومنذ عهد قريب عثر المنقبون تحت تلك الاطلال على معبد يرجع الى عهد قديم جداً .

اما مدينة طيبة ذاتها فلا تستطيع ان تفاخر بمثل هـــذا القدم ، ومع ان شاعراً عاش في عهد السلالة التاسعة عشرة قد صوّر له خياله ان المدينة وجدت منذ ان وجد التاريخ فالواقع ان منشأها ومنشأ إلهها آمون الذي اصبح إله مصر بأسرها وظل كذلك قروناً عديدة ، قد طواهما التاريخ وظلا مجهولين . هنالك مدن عظيمة من مدن مصر المقدسة مثل هليوبوليس ومفيس وابيدوس ومدن اخرى اقل شأناً يرجع تاريخها الى عهد السلالات الملكية الاولى بل والى زمن ما قبل التاريخ الا ان هذا ليس شأن طيبة . من الجائز ان مساكن طيبة الحديثة تخفي تحتها بضع قرى فقيرة قامت هناك قبلها الا ان اقـــدم دليل لدينا على استيطان هذا المكان نجده في ستة مدافن متواضعة يرجع تاريخها الى اواخر عهد المملكة القديمة وفيها قبور ملوك او حكام من مقاطعة « الصولجان » شاءوا ان يكون مقرهم الاخير في مدينة

الموتى التي اصبحت فيما بعد من اغنى الاماكن التي عرفها العالم واكثرها ازدحاماً بالسكان .

ظهرت طيبة في التاريخ اول ما ظهرت حينما استوطنها جماعة من المصريين ذوي الطموح والاقدام في اواخر العصر الالفي الثالث قبل الميلاد واتخذوا منها مقراً لهم ومركزاً لاعادة توحيد مصر التي تجزأت وتمزقت أوصالها على اثر انهيار المملكة القديمة وما تمخض عنه من الفوضى وسوء الادارة . ولم تكن هذه اول مرة ولا آخر مرة يتم فيها توحيد مصر على ايدي رجال اشداء من الجنوب . ففي فجر التاريخ ظهر ملك في مصر العليا اسمه (على حد قول الاسطورة) الملك « مينيس » وقام بفرض سلطانه على البلاد جميعها فعرفت بذلك الوحدة لاول مرة في تاريخها . ويعود اصل السلالة الملكية التي اوجدها الى مدينة هيراكونبوليس في أعـــالي النيل ، وقد اسس مينيس قصبة له في ثينيس قرب أبيدوس ظلت تعتبر مكاناً مقدساً حتى نهاية عهد الفراعنة ، الا انـــه اتخذ ممفيس القريبة من رأس الدلتا مركزاً يحكم منه البلاد الموحـــدة . وازدهرت مصر بعد عهد مينيس وظلت متمتعة بالازدهار زهاء الف سنة الى ان افلت زمام الحكم من يدي بيبي الثاني الضعيفتين فكان بذلك آخر حاكم فعلي من حكام السلالة السادسة .

لا يعرف التاريخ عهداً في الحكم اطول من عهد بيبي الثاني الذي عمّر مدة طويلة جداً . فقد اعتلى العرش وهو صبي في

السادسة من عمره وظل متربعاً عليه زهاء اربع وتسعين سنة . الا ان الوهن تطرق الى الدولة قبل عهد بيبي فقد بدّد اسلافه مصادر البلاد من المال والرجال في تشييد المباني والمنشآت الفخمة من المعابد والمدافن والاهرامات الكبرى . على ان البحوث الحديثة تشير الى انه من المحتمل ان يكون مناخ مصر قد تعرض في اواخر عهد المملكة القديمة الى تغيير مفاجىء مثلما حدث في اوروبا وفلسطين في تلك الآونة ، وربما كان لهذا التغيّر المناخي تأثير في اقتصاد مصر ، او ربما مرت سنوات عجاف متتالية لم يُجْدِ النيل فيها بفيضانه المعهود ، او ان زلزالاً عظيماً اجتاح البلاد وجرّ في اذياله المجاعة والطاعون مما ادى الى نشوب القلاقل واتساع نطاقها الى حرب اهلية . ولعله كان في مقدور حاكم قوي ان يحول دون انهيار الدولة انهياراً تاماً ، الا ان الملك العجوز فضّل العزلة في قصره وسط المراسم الملكية والدينية ومظاهر الابهة والترف ، وترك نبلاء مملكته الوراثيين يستأثرون بالسلطة . وحينما توفي كان هؤلاء النبلاء الجشعون قد سئموا ارسال المال والمحاصيل من المقاطعات التي يحكمونها الى عاصمة الملك ممفيس فشقوا عصا الطاعة ونصبوا انفسهم امراء مستقلين في مقاطعاتهم لا يخضعون للسلطة المركزية .

لا شك ان سكان مصر في تلك الآونة كان عددهم قليلاً ومع ذلك فان ممفيس نمت نمواً عجيباً وتزايد سكانها بصورة استنزفت موارد البلاد بأسرها . ففي ذلك القطاع الضيق من الارض الذي

تحده الصحراء وتحول دون اتساعه كان يعيش عدد ضخم من الناس على كَرَمِ الملك واحسانه . فقد كان القصر الملكي يزخر بالندماء والحريم والخدم والعبيد ، وكانت قصور الاعيان وكبار رجال الدولة — واكثرهم من اقرباء الملك — تعج بالبنين والبنات والخدم والاتباع ، ودوائر الحكومة تغص بالعديد من الموظفين ، والمعابد تزدحم بالكهنة والسدنة . هذا بالاضافة الى المئات من العمال والموظفين الذين يعملون في مدينـــة الموتى عند طرف الصحراء وبالاضافة الى الكهنة والسدنة الذين يؤمون معابـــد الاهرام لاقامة الطقوس الدينية التي تتطلبها ارواح الفراعنة في عالمهـــا الآخر . وظهرت كذلك بين المدافن قرى ودساكر اكتظت بصغار الموظفين والعمال يضاف اليهم جيش عرمرم من الرجال الذين كانوا يعملون في اقتلاع الحجارة الكلسية البيضاء من مقالعها لاستعمالها في بناء مدينة الموتى .

جميع هؤلاء وكثيرون غـــيرهم كانوا يعيشون على جرايات تخصص لهم من موارد الدولة ، فاذا ما انقطعت تلك الموارد او قلت قطعت عنهم جراياتهم وباتوا صفر اليدين . اجل ان الفرق كان دائماً عظيماً بين الغني والفقير في ممفيس . اما الآن وقـــد اخذت السلطة تفلت تدريجياً من ايدي الملك فقد تضاعف بؤس الفقراء الذين قامت المدينة على سواعدهم وتحول ضيق حالهم الى جوع دائم . ويرى بعض المؤرخين — ولرأيهم ما يبرره — ان المرحلة الاخيرة من تدهور المملكة القديمة قد اقترنت بثورة

قامت بها الطبقة العاملة فلجأ العمال الى اعمال العنف والسلب والنهب بدافع من الجوع واليأس . ومهما كانت حقيقة الامر فان نظام الحكم قد انهار وعمت البلاد الفوضى والقلاقل بعد اعتلاء خليفة بيبي الثاني العرش بمدة وجيزة .

نشر السير ألان غاردنر مخطوطة بردى (بابيروس) بعنوان « تحذيرات حكيم مصري » باعتبار انها سجل لتاريخ تلك الحقبة المضطربة . وقد كتب هذه المخطوطة مصري اسمه ايبوير عاصر تلك الفترة العصيبة وعاش احداثها . يقول ايبوير في وصف تلك الاحداث : « لقد شق نفر من الرجال عصا الطاعة وحاولوا حرمان البلاد من ملكيتها » . ثم يصف الكاتب كيف اقتحم غزاة غرباء ارض مصر، وقام الاخ ضد اخيه، وسادت الفوضى، فأتلفت السجلات، ونـُهبت القصور وأُحرقت، وانتهكت حرمة المدافن . « ان الاهرام » على حد قول هذا الحكيم « قد جرّدت من محتوياتها » وتخلـّى الصناع عن صناعاتهم ، وقلـّت المحاصيل لنقص في الايدي العاملة، واصابها التلف. وعمّت المجاعة وانتشر الطاعون وكثر السلب والنهب وسالت الدمـــاء في جميع انحاء البلاد . « وتراكمت الاوساخ في كل مكان ولم يعد هنالك من يرتدي ثوباً نظيفاً . . . لقد صار الفقير غنياً ، وصاحب الاملاك امسى معدماً» . وسواء كانت هذه المخطوطة وثيقة يعتمد عليها ام لا فانها على اي حال ترسم لنا صورة حية لاحداث لا يستبعد ان تكون قد وقعت في مصر عندما انهارت حكومتها المركزية.

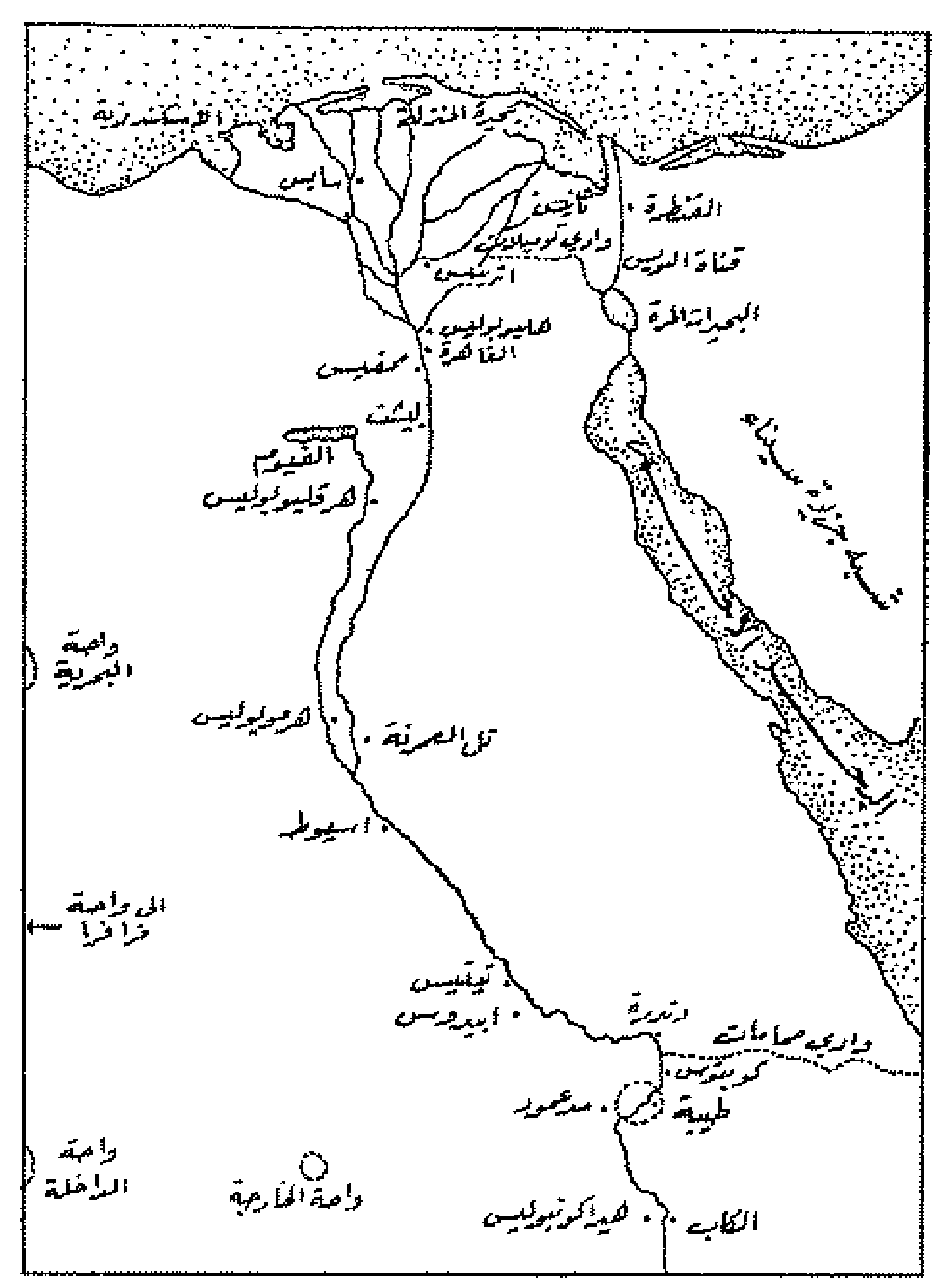
ان حكم بلد كمصر لم يكن امراً هيناً . نعم ان الطبيعة حبتها

بدرع دفاعي لا نظير له تستطيع به صد اي عدوان او نفوذ خارجي ، الا انها في الوقت ذاته شطرتها الى اجزاء ، الامر الذي وقف حجر عثرة في سبيل وحدتها . فمنذ اقدم الازمنة كانت هنالك مصران : مصر العليا ومصر السفلى . وما زال الحال كذلك حتى يومنا هذا . اما مصر العليا فهي ذلك الوادي الضيق الطويل الذي يجري فيه نهر النيل ، بينما تتألف مصر السفلى من السهول المنبسطة العريضـــة التي يتشعب فيها النهر وتتعرج فروعه متجهة نحو البحر . وقد حرص الفراعنة على ان تعكس ألقابهم هذا الازدواج في طبيعة مصر ، فدعوا انفسهم ملوك « مصر العليا والسفلى » أو ملوك « القطرين » ولم يكتفوا بأن يكونوا ملوك « مصر » فحسب . وظل الامر كذلك منذ اقدم الازمنة حتى عهد الاباطرة الرومان .

ان التوحيد بين الجزئين في ظل حكم مركزي واحد لم يكن ليتسنى لحكومة ليست بالحكومة القوية . فان مصر العليا بواديها الضيق تمتد جنوباً مسافة ستمائة ميل او نحوها حتى تبلغ الشلال الاول حيث يضيق النهر ويتدفق خلال اودية عميقة من صخور الغرانيت تشكل درعاً دفاعياً منيعاً ضـــد الغزو من الجنوب . وعند الطرف الغربي لوادي النيل المنبسط ترتفع تلال صخرية تمتد وراءها هضبة صحراوية شاسعة هي الصحراء الغربية او صحراء ليبيا التي تقطنها قبائل بدوية متفرقة ، وهي اليوم صحراء قاحلة لا يوجد فيها ماء او نبات ، الا انه كان فيها فيما

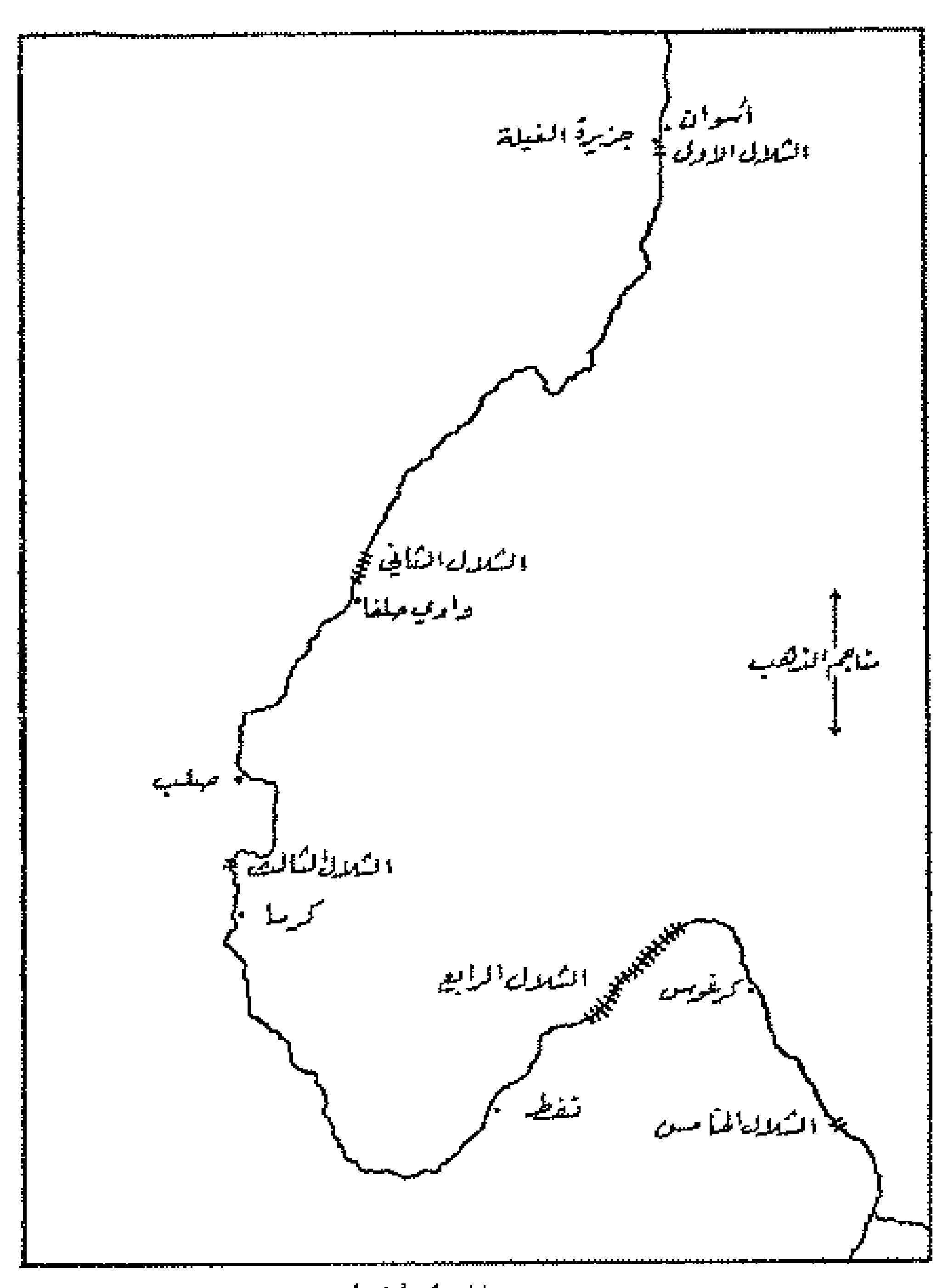
مضى من الازمان هنا وهناك مراع فقيرة تقتات بها مواشي البدو وتأوي اليها الوحوش البرية التي طالما شغف الملوك والنبلاء باقتناصها . وعلى مسيرة عدة ايام من وادي النيل كانت الواحات الخصبة المتباعدة تنتشر على طول الصحراء .

اما في الجهة الشرقية من ذلك الوادي فتمتد الصحراء الشرقية او الصحراء الغربية بجبالها الوعرة العالية التي تتخللها مجار للمياه جافة تكونت في ازمنة لا يعيها التاريخ . ويعرف احد هذه المجاري العميقة بوادي الحمامات وهو اقصر طريق الى البحر الاحمر ، وكانت القوافل قديماً تسلك هذا الطريق الذي يصل بين مدينة كوبتوس الواقعة على بعد ٣٠ ميلاً شمالي طيبة ونقطة قريبة من مدينة قُصَير الحالية . وعلى امتداد هذا الطريق كانت تقوم مقالع الحجارة الصلبة التي تهافت عليها المصريون القدماء لاستعمالها في صنع التماثيل وبناء النواويس . وكان من السهل الوصول من البحر الاحمر الى موانىء افريقيا لجلب البخور . كانت الصحراء الشرقية غنية بالذهب والاحجار شبه الكريمة ، ومع انها صحراء مجدبة فقد استطاع عدد قليل من الناس ان يعيشوا فيها بفضل ما فيها من آبار ماء شحيحة . وما زالت بعض جهاتها مأهولة بالسكان حتى يومنا هذا ، ولعل بعض هـؤلاء السكان الذين يتناقص عددهم هم بقية قبائل متحدرة من نفس القبائل التي نزح الشجعان من ابنائها في اوائل العصر الحجري وفروا من جفاف الصحراء المتزايـد ليستوطنوا وادي النيل الخصيب ويستقروا في ادغاله الآهلة بالحيوانات .



الاسكندرية
بحيرة المنزلة
سايس
القنطرة
تانيس
وادي توميلات
قناة السويس
البحيرات المرة
اتريبس
هليوبوليس
القاهرة
منفيس
الفيوم
هركليوبوليس
شبه جزيرة سيناء
واحة البحرية
هرموبوليس
تل العمارنة
اسيوط
الى واحة فرافرا
ابيدوس
دندرة
وادي حمامات
كوبتوس
طيبة
واحة الداخلة
واحة الخارجة
الكاب

مصر السفلى


أسوان
جزيرة الفيلة
الشلال الأول
الشلال الثاني
وادي حلفا
مناجم الذهب
الشلال الثالث
كرمة
الشلال الرابع
الشلال الخامس
مصر العليا

نسي المصريون المتحضرون في زمن الفراعنة ماضيهم البعيد في الصحراء بل انهم كانوا يرهبون تلك الاراضي الشاسعة التي دعوها « الارض الحمراء » (تمييزاً لها عن « الارض السوداء » التي يرويهـــا ماء النيل) واعتقدوا انها مأهولة بالارواح الشريرة والوحوش الخرافية. ومع ذلك فانهم كانوا يتحدون تلك « الارض الحمراء» طمعاً في كنوزها منذ اقدم العصور وقبل عهد السلالات الفرعونية . فالنقوش المنحوتة في صخور الطريق الخطر المؤدي الى البحر الاحمر تنبؤنا بان القوافل كانت تسلكه منذ عهد المملكة القديمة ، وظلت تسير عليه حتى عهد الرومان. ومن تلك النقوش نقش سجّل فيه موظف يدعى هنـــو كيف سافر من مدينة كوبتوس في العصر الالفي الثالث قبل الميلاد وكيف بنى سفينة ارسلها الى « بونت » على ساحل الصومال « لتأتي الملك بالمرّ الطازج من الشيوخ القاطنين في الارض الحمراء » . ويدعي هنو متفاخراً انه حفر الآبار على طول الطريق فيقول « لقد حولت الطريق نهراً وجعلت الارض الحمراء حقولاً يانعة اذ اعطيت كل رجل جرتي ماء وعشرين رغيفاً كل يوم ... لم يقم اي رجل من اعوان الملك المخلصين بمثل هذا العمل من قبل ... لقد فعلت ذلك من اجل جلالة سيدي لان حبه لي عظيم » . وهنالك نقش آخر روى فيه الوزير امينمحت الذي عاش في عصر لاحق قصة رحلته الى « البرية الرائعة » مع جيش من الرجال هم «خيرة سكان البلاد قاطبة » ، وفيهم المعدّنون والفنانون وقاطعو الحجارة والكتبة ، لنحت قبر للملك يكون « تذكاراً خالداً » . ويدّعي

الوزير بفخر انه لم يفقد احداً من رجاله في هذه الرحلة بل انه لم يضيع حماراً واحداً . وما ذلك الا بفضل الإله « مين » حامي الصحراء الذي شمله برعايته مكافأة له على تقوى الملك وورعه .

كان خصب مصر العليا رهناً بما يجود به فيضان النيل سنوياً من مياه تروي الوادي المحروم من الامطار وتبعث الحياة في تربته العطشى . فاذا ما بخل النيل بمائه وامسك عن الفيضان اصاب البلاد قحط وحلت بها المجاعة . وقد ادرك سكان الوادي منذ عهد موغل في القدم انه لا بد لهم من التعاون معاً لبناء السدود وشق القنوات للتحكم في ميـــاه الريّ والانتفاع بها . ولعل هذا هو بعض السبب في ان حكام القطرين ، مصر العليا ومصر السفلى كانوا على ممرّ الزمن رجالاً من مصر العليا الذين اكتسبوا خبرة في مثل هذه الاعمال التي تتطلب التعاون والتآزر .

واذا كانت مصر العليا تشكو قلة المياه فان المشكلة الرئيسية بالنسبة الى مصر السفلى كانت تصريف مياه الفيضان التي تغمر دلتا النيل ، ذلك المثلث العظيم الذي كانت ترويه قديماً سبعة فروع من النيل لا اثنان كما هي الحال اليوم ، هذا المثلث لم يعرف الجفاف الا فيما ندر . زد على ذلك انه يتمتع بماء المطر في الشتاء ولو بقسط قليل وخاصة في الجهة الشمالية من المثلث . كانت الدلتا ولا تزال اخصب منطقة في مصر فلشأت عند رأسها في الجنوب مدينتان قديمتان لهما شهرة واسعة في التاريخ همـــا

هليوبوليس وممفيس . وعند طرفها الغربي نمت مراع غنية طالما استهوت الرعاة الليبيين واجتذبتهم اليها مع قطعانهم . اما باقي جهات الدلتا فكانت موطناً لجماعات صغيرة من صيادي السمك وقناصين بدائيين يجوبون براريها ومستنقعاتها ، باستثناء القليل من القرى التي تناثرت هنا وهناك على الروابي والتلال المرتفعة عن الارض السبخة . كانت تحف بهذه القرى الحقول والكروم ، فاذا ما حل موسم الفيضان بدت — على حدّ قول ديودورس — وكأنها جزر وسط بحر مترامي الاطراف . والواقع ان ما نعرفه عن تاريخ الدلتا القديم قليل شحيح نظراً الى طبيعة ارضها التي تجعل التنقيب عن الآثار امراً صعباً بل ومستحيلاً في كثير من الاحيان . حتى ان المدن القليلة التي ورد ذكرها في سجلات قديمة لا تزال نجهل مواقعها على وجه التحديد . ومهما يكن من امر فاننا نعرف ان المنطقة الشرقية من الدلتا وجدت فيها مراكز مهمة في مواقع ستراتيجية قريبة من الطرق المؤدية الى آسيا .

ان الطرق البرية الرئيسية المؤدية الى الشرق الادنى عبر الدلتا كانت قليلة وما وجد منها كان سلوكه صعباً . اما الساحل الشمالي فكان غنياً بالمواقع الصالحة لرسو السفن تحميه المستنقعات والبحيرات المالحة من جهة البرّ ، وكثبان الرمال المستورة من جهة البحر . ولعل الطريق البحري الرئيسي الى سوريا كان يمر عبر « التانيتيك » وهو فرع من فروع النيل تقلص مع الزمن

حتى اصبح اليوم جدولاً صغيراً تفيض مياهه في مستنقعات بحيرة المنزلة . اما في الماضي فكان التانيتيك يشكل مع نهر آخر يقع الى الشرق منه ويدعى بيلوسياك طريقاً رئيسياً من طرق مصر المائية . وكان الطريق البري الرئيسي يمر بما يعرف اليوم بالقنطرة . وهنالك طريق آخر كان يمر عبر وادي توميلات ثم يتفرع الى فرعين : فرع يتجه شمالاً ويلتقي بطريق القنطرة ، وفرع يسير الى الجنوب ويمر بمحاذاة البحيرات المرة متجهاً الى رأس خليج السويس الذي كان المنفذ البحري الى مناجم الفيروز في صحراء سيناء وموانىء البخور على البحر الاحمر . جميع هذه الطرق كان سلوكها صعباً محفوفاً بالمخاطر ، ولكن ذلك لم يقف عائقاً في وجه المصريين فتحدوا اخطارها ومصاعبها منذ اقدم العصور سعياً وراء الكماليات التي كانت تفتقر اليها بلادهم .

كان المصريون يخافون ركوب البحر الذي كانوا يطلقون عليه اسم « الفيافي الخضراء الشاسعة » ولكن بالرغم من هذا فان ملاحيهم الاشداء اقتحموا في عهد المملكة القديمة عباب تلك « الفيافي الخضراء » وبلغوا جبيل على الساحل السوري وعادوا محملين بالاخشاب من غابات لبنان ليصنعوا منها الاثاث والتوابيت وليزينوا بها المعابد والهياكل ، كما انهم سافروا في البحر الاحمر الى « بونت » بلاد البخور ، وشقوا طريقهم الى الجنوب بمحاذاة النيل واجتازوا الشلال الثـــاني سعياً وراء العاج والابنوس والذهب . الا ان سكان مصر في عهد السلالات الملكية الاولى

قنعوا ببلادهم الآمنة وما تمتعت به من حدود طبيعية منيعة فلم يعيروا بالاً الى ما يقع وراء « القطرين » . فمصر بالنسبة اليهم هي الدنيا باسرها ولا شيء وراء حدودها جدير بأن يحسب له حساب .

ان الفوضى التي حلت بمصر على اثر موت بيبي الثاني وما ادت اليه من تفكك اوصال البلاد وضعفها شجعت الشعوب المجاورة على غزو مصر واستيطانها ، فكانت تلك مفاجأة قاسية بالنسبة لسكان الوادي الذين لم يحسبوا لها حساباً . كانت هذه الغزوات محدودة النطاق ، ولعلها لم تتعدّ كونها غارات شنتها جماعات من البدو من الصحاري الشرقية والغربية يدفعها الجوع وضنك العيش في الصحراء ، ولكنها على اي حال كانت من عوامل الفوضى في تلك الحقبة التي تعرف باسم « الحقبة المتوسطة الاولى » ، ودامت زهاء مئتي عام . وقد عادت مصر في هذه الفترة من تاريخها الى ما كانت عليه قبل عهد السلالات الملكية فتجزأت الى مقاطعات صغيرة يتنافس حكامها ويتناحرون على السلطة . ولم يكن اكثر هؤلاء الحكام سوى رجال نهب وسلب الا ان ذلك لم يثن بعضهم عن اتخاذ الالقاب الملكية كما تدل النقوش التي عثر عليها في قبورهم .

لم يمض وقت طويل على انهيار السلالة الملكية السادسة حتى ظهرت اسرة ملكية جديدة اطلق عليها المؤرخون المحدثون

اسم « هيركليوبوليس » ، وقد بسط ملوك هذه الاسرة نفوذهم على قسم من مصر وحكموه من عاصمتهم نين نيسوت (وهي مدينة هيركليوبوليس اليونانية واهناسيا الحديثة) وتقع على بعد خمسين ميلاً تقريباً الى الجنوب من ممفيس عاصمة فراعنة المملكة القديمة ، الا ان سلطة هؤلاء الملوك كانت مزعزعة . والمعروف ان اول ملوك هذه الاسرة كان قد بسط سلطانه على ممفيس ومصر الوسطى واتخذ الارهاب ونشر الرعب وسيلة لتثبيت دعائم ملكه . ومن ثمّ استطاع خلفاؤه بعد جهاد طال امده ان يخضعوا الدلتا لسلطانهم ويطردوا الغزاة الآسيويين من البلاد ويعيدوا التجارة مع الساحل السوري الى سابق عهدها . الا انهم لم يفلحوا قط في فرض سلطانهم على الجنوب واخضاعه بصورة تامة ، خاصة منطقة طيبة ، حيث ظهرت الاسرة القوية التي ابت الرضوخ لحـــكم هؤلاء الملوك والتي كانت سبباً في سقوطهم فيا بعد . وما فتئت شوكة هذه الاسرة تقوى وسلطتها تتعاظم حتى استطاعت ان تقوّض سلطان الملوك وتقضي عليه .

كان اقـــدم امراء هذه الاسرة – وكانوا يعرفون باسم « انتيف » الامر الذي لا يخلو من لبس وتشويش – ملوكاً على مقاطعة «الصولجان» وخاضعين بالاسم فقط لملوك هيركليوبوليس. اما خلفاؤهم – واكثرهم ايضاً يدعون « انتيف » – فقد نبذوا جميع مظاهر الخضوع لاي احد كان ونصبوا انفسهم في طيبة « ملوك مصر العليا ومصر السفلى » . والواقع ان ملوك السلالة

الحادية عشرة الاوائل امثال منتوحوتب الاول وانتيف الاول وانتيف الثاني وانتيف الثالث لم يكونوا جديرين بمثل هذا اللقب العظيم ، غير انهم استطاعوا ان يبسطوا نفوذهم تدريجياً على وادي النيل حتى حدود مصر الجنوبية ومن ثم اخذوا يزاحمون ملوك هيركليوبوليس ويتوسعون شمالاً على حسابهم . ولم يتم القضاء على ملوك هيركليوبوليس نهائياً الا عام ٢٠٤٠ قبل الميلاد وذلك على ايدي ملك يدعى منتوحوتب الثاني الذي كسر شوكتهم ووحد « القطرين » من جديد . وفي عهده وعهد خلفه سينخكري منتوحوتب الثـــالث بدأت طيبة تنمو وتزدهر واصبحت مدينة بكل معنى الكلمة ولو على نطاق ضيق .

لم تُبقِ لنا الايام شيئاً يذكر من منشآت الاسرة الحادية عشرة في طيبة ، ولم يصلنا من آثارها سوى بقايا القبور التي دفن فيها ملوكها في السهل المواجه للكرنك . ولكن لدينا من الادلة ما يشير الى ان هؤلاء الفراعنة قد شيدوا معبداً للاله «مونتو» في مكان قريب من الكرنك» وهو إله لا نعرف أصله على وجه اليقين ، ولعله اكتسب شهرته كإله حرب لعلاقته بالفراعنة الذين يحملون اسمه (منتوحوتب — ومعناه « منتو راض ») والذين اشتهروا بحبهم للحرب والقتال . ويبدو انه كان في الكرنك ايضاً معبد صغير للاله آمون ، الا ان آمون لم يكن قـــد اشتهر بعد . وهنالك نقش في المعبد الجميل التابع لمدفن نبهيبتر منتوحوتب الثاني في دير البحري — وهو اول المباني

الفخمة في مدينة الموتى – يفاخر فيه الملك بانه « المفضّل لدى مونتو سيد طيبة » ، في حين ان ذكر آمون في نقوش الاسرة الحادية عشرة ، سواء في طيبة او في اي مكان آخر ، نادر جداً.

لم يتبوأ آمون منزلته الرفيعة الا بعد انتقال السلطة الى اسرة جديدة هي الاسرة الثانية عشرة . فان اربعة من ملوك هذه الاسرة – ومنهم مؤسسها واول ملوكها – اطلقوا على انفسهم اسم «آمون امحت» اي «آمون هو الاعظم» ، وشيدوا له في الكرنك معبداً قدر له ان يصبح اضخم معابد مصر وافخمها . ومع ان ابنية المعبد التي شيدها ملوك الاسرة الثانية عشرة قد طمرت او هدمت لتفسح مجالاً لاعمال الترميم والابنية الجديدة التي شيدها ملوك لاحقون فان الحفريات الحديثة كشفت النقاب عن رواق صغير مبنيّ من حجر الكلس لم تمتد اليه يد البلى وبقي على حالته الاصلية تقريباً . وقد شُيّد هذا الرواق بمناسبة الاحتفال بيوبيل سينوسريت (سيسوستريس) الاول ثاني ملوك الاسرة الثانية عشرة ، واستعمل فيما بعد لسدّ فراغ في « المدخل المظيم » الذي شيده امنحوتب الثالث في عهد المملكة الحديثة . ويعتبر هذا الرواق الصغير على بساطته من اجمـــل المباني التي شيدت في مصر القديمـــة . ولعل ابرز ما فيه جدرانه المزينة بزخارف دقيقة نافرة ، بديعة الصنع يظهر فيها الملك مع قرينه الإلهي آمون ، وقد جلبت الحجارة الممتازة التي استعملت في بناء هذه الجدران من مقالع بعيدة على ضفاف النيل .

لم يبق في الكرنك غير الرواق شاهداً على عظمة ملوك الاسرة الثانية عشرة . ولكن الحجارة المتناثرة هنا وهناك تدل على ان المعابد التي شيدوها في الكرنك وفي اماكن اخرى في منطقة طيبة لا تقل في عظمتها وفخامتها عن معابد المملكة الحديثة . ان ملوك الاسرة الثانية عشرة الذين ينتمون الى طيبة لم يهملوا مدينتهم ولم يغفلوا إلهها آمون ولكن المنطق أملى عليهم ان يتخذوا المركز الاداري القديم عند رأس الدلتا عاصمة لهم فهناك يلتقي القطران ، وحكم مصر من ذلك المركز اسهل وأيسر . فأقاموا في ات – توي قرب ممفيس ودُفِنوا في جوارها في اهرامات مجهزة احسن تجهيز شيدوها عند طرف الصحراء مقلّدين بذلك الاهرامات العظيمة التي شيدها فراعنة المملكة القديمة .

اما رجال الدولة ، او بعضهم على الاقل – ممن انتقلوا مع اسيادهم الى الشمال فقد فضلوا ان يدفنوا في مصر العليا مسقط رؤوسهم فنحتوا لأنفسهم مدافن في الصخور في مدينة الموتى ازاء طيبة ، والمـلوك انفسهم ايضاً اقاموا لأنفسهم تماثيل في مدامود والكرنك وفي المعبد التابع لمدفن نبهيبتر منتوحوتب الذي زعموا انهم ينتسبون اليه . (ولكن مبررات هذا الزعم واهية ، اذ انْ اغلب الظن ان اول ملوك الاسرة الثانية عشرة هو الوزير اموغمحيت الذي ورد ذكره سابقاً ، ولا يبدو انه كان يتحدر من سلالة ملكية) .

كان ملوك الاسرة الثانية عشرة الملقبون بأموغحيت او بسنوسريت حكاماً يشار اليهم بالبنان ، فنظرة خاطفة الى صورهم التي تتسم بطابع فردي قلما تجده في صور اخرى من مخلفات مصر القديمة تنبئك بأن اصحابها كانوا رجالاً اذكياء ذوي سلطة واسعة . وقد وجد هؤلاء الملوك انفسهم امام مهمة صعبة هي ان يعيدوا للعرش هيبته التي فقدها بسقوط المملكة القديمة ولم يفلح ملوك الاسرة الحادية عشرة الطيبيون في ردها اذ كانوا ذوي افق ضيق في تفكيرهم ونظرتهم الى الامور . اجل ان ملوك الاسرة الثانية عشرة لم يبلغوا في سلطانهم منزلة الألوهية التي تبوأها فراعنة المملكة القديمة بدون منازع ، ولكنهم على اي حال حكموا البلاد بكفاءة وحكمة . ومن المشكلات التي واجهتهم مشكلة ايجاد طبقة جديدة من الكتبة والموظفين الذين يحسنون القراءة والكتابة ، وهو امر لا بدّ منه لادارة البلاد . ولتحقيق هذه الغاية شجعوا لوناً من ادب الدعاية اغدقوا فيه المديح والاطراء لمهنة الكتابة وفضلوها على غيرها من المهن . وقد احتضنت بيروقراطية المملكة الحديثة هذا اللون من الادب وشجعته .

من المنجزات الهامة التي قام بها ملوك الاسرة الثانية عشرة اعادة تنظيم الجهاز الاداري في البلاد وذلك باعادة تقسيم البلاد الى مقاطعات بغية ضبط امور الحكام الاقطاعيين وابقائهم تحت سيطرتهم . وفي عهد هذه الاسرة ايضاً عظمت سلطة الوزير

(او رئيس الوزارة) وزادت اهمية منصبه اذ لم يجد الملوك بدآ من ان يعهدوا الى وزرائهم بجانب عظيم من مهــــام الادارة في البلاد، وقد حددت مسئوليات هذا المنصب وواجباته بالتفصيل وأرسيت على اساس ثابت . ومما يذكر لفراعنة الاسرة الثانية عشرة المشاريع العامة الكثيرة التي تبنوها ، فهم اول من حاول انشاء المجاري لتصريف المياه في منطقة الدلتا ، ولم تخف عليهم الفوائد العظيمة التي يمكن جنيها من استغلال واحة الفـــيوم الخصبة القريبة من وادي النيل حيث توجد بحيرة قديمة واسعة تقع جنوبي ممفيس ولا تبعد كثيراً عنها . وفي الجنوب قاموا بترميم وتحسين قناة بناها ميرينري الاول سلف بيبي الثاني لتخطي الشلال الاول وفتح النيل جنوبيه في وجه الملاحة . وشاعت أسطورة في عصر لاحق تفيـــد بأن احد الفراعنة المدعوين سينوسريت بنى القناة التي تصل وادي النيل بالبحر الاحمر، وان سينوسريت آخر قد طاف حول الجزيرة العربية ووصل الى حدود ما بين النهرين . وظلت مثل هذه الاساطير متداولة الى زمن السواح الاغريق الذين زاروا مصر وشاهدوا عظمتها بعد ان امتدت اليها يد البلى . وان دلت هذه الاساطير على شيء فانما تدل على ما تمتع به حكام المملكة الوسطى من مكانة سامية وسمعة طيبة حفظتها لهم الاجيال حتى نهاية عهد الحضارة القديمة

ومما لا شك فيه ان المصريين في العصور اللاحقة كانوا ينظرون

الى عهد الاسرة الثانية عشرة نظرة اجلال وكانوا يعتبرونه العهد الكلاسيكي للثقافة المصرية . والنتاج الادبي الذي ظهر في عهد تلك الاسرة اتخذته الاجيال اللاحقة نموذجاً تنسج على منواله — ولكن جلّ ما وصلنا من ذلك الادب لا يعدو نبذاً نسخها طلاب المدارس في عهد المملكة الحديثة على سبيل التمرين . اما اللغة التي كتب بها ذلـــك الادب فظلت تستعمل في الطقوس الدينية لمدة طويلة بعد ان بطل استعمالها كلغة للكلام او الكتابة في البلاد . والنتاج الفني الذي خلفه فنانو مصر في عهد الاسرة الثانية عشرة لقي من الاعجاب والتقدير ما جعله مثالاً حذا حذوه فنانو العصور اللاحقة وخاصة الفنانون الذين ظهروا ابان النهضة القصيرة الاجل التي شهدها القرنان السابع قبل الميلاد والسادس قبل الميلاد. وقد قلّد هؤلاء الفنانون اسلافهم المصريين بأمانة ودقة عظيمة ، الامر الذي يسبب احياناً لمؤرخي الفن المحدثين البلبلة والالتباس .

نعمت مصر في عهد الاسرة الثانية عشرة بالازدهار والرخاء مدة قرنين او اكثر. وتلا ذلك فترة ثانية من الفوضى والانقسام تقلصت فيها سلطة الاسرة الحاكمة ودب النزاع بين المتنافسين على العرش . ولم يتعظ الفراعنة بـــا اصاب اسلافهم فمضوا ينافسون احدهم الآخر في مظاهر الابهة والعظمة واستنزفوا اموال الخزينة في انشاء المباني الفخمة . ودفعهم تهافتهم عـــلى الكماليات الى التوسع وبسط نفوذهم وراء حدود مصر . وفي

حين قنع الحكام السابقون بالمحافظة على حدود مصر وحمايتها من اي عدوان خارجي وفتحها في وجه التجارة، نجد ملوك الاسرة الثانية عشرة يجهزون حملة الى النوبة جنوباً مجتازين الشلال الثالث، ويبنون القلاع على طول الطريق، ويقيمون الحاميات ويؤسسون المستعمرات للسيطرة على الاتجار بمنتوجات افريقيا. وفي الشمال لم يكتف التجار المصريون بالابحار الى موانىء الساحل السوري بل تغلغلوا الى الداخل مخلّفين وراءهم ما يشهد على قيامهم بتلك المغامرات.

من المعروف ان سينوسريت الثالث جرّد حملة عسكرية على فلسطين استولت على مدينة «سيخم»، ولكن يبدو ان العلاقات بين مصر والاقطار الواقعة الى الشرق منها كانت اجمالاً علاقات دبلوماسية اكثر منها حربية. فكان الحكام يتبادلون الهدايا، وكان التجار كما يبدو، يروحون ويجيئون بقوافلهم بحرية تامة. ومع ان المصريين بنوا تحصينات جديدة لحماية الطرق الرئيسية من الشرق الا انهم في الواقع لم يشعروا بأنهم معرضون الى خطر فعلي. ولم يجدوا ان هنالك ما يدعو الى صدّ القبائل الوافدة من تلك الجهة. وما ان انتهى عهد الأسرة الثانية عشرة حتى كانت تلك القبائل الغريبة قد تغلغلت في منطقة الدلتا بصورة سلمية. وكان ملوك الاسرة الثانية عشرة في اواخر عهدها ضعافاً افلت زمام السلطة من ايديهم وانتقل الى ايدي وزرائهم الذين صاروا بالتدرُّج اصحاب الامر والنهي، وبات

الملوك مجرد ألعوبة في ايديهم . وما ان افل نجم تلك الاسرة حتى كان التغلغل الاجنبي قد وصل الى القصر الملكي ذاته ، فبعض ملوك الاسرة الثالثة عشرة تنم اسماؤهم عن اصل اجنبي .

عبثاً حاول اولئك الملوك المحافظة على وحدة البلاد والحيلولة دون تجزئتها . فظهرت ممالك صغيرة عديدة بينها امارة نشأت في افاريس في الجهة الشرقية من الدلتا (لعلها تانيس الحالية) . وقد اسس هذه الامارة جماعة من الغزاة الآسيويين الذين بسطوا نفوذهم بالتدريج على البلاد بأسرها . عرف هؤلاء الغزاة فيما بعد باسم « الهكسوس » وهي لفظة تترجم احياناً « الملوك الرعاة » — ولكنها في الواقع تعني « حكاماً من بلاد اجنبية » . ان ما نعرفه عن الهكسوس عدا انهم جاءوا من الشرق قليل جداً ، ولعلهم كانوا مزيجاً من القبائل التي دفعتها القلاقل في آسيا الى الهجرة غرباً ، ونظراً الى التفكك والانحلال اللذين سادا «القطرين» لم تجد تلك القبائل في موطنها الجديد مقاومة تذكر . ولم يمض وقت طويل على بزوغ نجم الهكسوس حتى استولوا على ممفيس ثم اخذوا يتوسعون جنوباً حتى بلغوا اسوان . الا انهم لم يستطيعوا ان يثبّتوا اقدامهم في مصر العليا وظل نفوذهم هناك ضعيفاً .

لم يدخر حكام طيبة في عهد المملكة الحديثة وسعاً في ذم « الآسيويين البغيضين » والتنديد بأعمالهم حتى اصبحوا مضرب الامثال في الشرّ والوحشية . ولكن اغلب الظن ان الهكسوس

لم يكونوا اسوأ كثيراً من اية قوة احتلال اخرى – قديمة كانت ام حديثة . لا ريب أن عهدهم قد شهد الكثير من اعمال السلب والنهب وانتهاك الحرمات بل والاصطدامات المسلحة . ولكن هؤلاء الغزاة استطاعوا ان يحتفظوا بزمام السلطـــة في مصر بأسرها اكثر من مئة سنة ولا بد انهم اوجدوا خلالها اساساً ما للتعايش السلمي مع سكان البلاد الاصليين، ويبدو ان الهكسوس قد وجدوا بين المصريين اعواناً كثيرين لهم . وقد لاقى هؤلاء الاعوان جزاءهم فيما بعد على ايدي كاموس سلف وشقيق ملك طيبة الذي تغلب على الهكسوس وطردهم . وقد كتب في ذلك يقول : « هدمت مدنهم وحرقت منازلهم حتى حالت اكواماً من التراب لا تقوم لها ابداً قائمة ، وذلك جزاء على ما جنت ايديهم في مصر اذ باعوا انفسهم للآسيويين وتخلوا عن مصر سيدتهم » .

ولما لم يكن للهكسوس ثقافة تذكر ، فانهم سرعان مـــا اقتبسوا عن المصريين فنونهم وعاداتهم بل وبعض نواح من دياناتهم ايضاً . واتخذ الحكام الجدد لأنفسهم ألقاب ملوك مصر فدعوا انفسهم « ابناء رع » إله الشمس المصري القديم الذي ادعى جميع الفراعنة الانتساب اليه . اما إله الهكسوس الخاص بهم فهو إله الرعد الذي يقابل الإله المصري « سيث » وقد اقاموا له معبداً في عاصمتهم افاريس في الدلتا . ويستدل من آثار قليلة متفرقة ان الهكسوس قد وسعوا بعض المعابد المصرية وجمّلوها بينما

خربوا غيرها . ان ما وصل الينا من عهد الهكسوس من آثار فنية وعمرانية يدل على تأخر وانحطاط في هذا المضمار ، اما في ميدان المعرفة فتدل ادراج البردي التي ما زالت موجودة على ان المعابد ظلت مركزاً للتعليم كسابق عهدها .

قدم الهكسوس للمدنية المصرية مساهمات كبرى وان كانوا ضعافاً في ميادين الفنون . فقد ادخلوا الى مصر اسلحة جديدة وأساليب حرب جديـــدة كما انهم جلبوا اليها مبتكرات ميكانيكية كالشادوف الذي ما زال يستعمل في الري حتى يومنا هذا . ولعلهم هم الذين علموا المصريين استعمال النول العمودي الذي ظهر رسمه لأول مرة في مدفن من مدافن طيبة يرجع تاريخه الى اول عهد المملكة الحديثة . ويعزى الفضل الى الهكسوس ايضاً في جلب الخيل والعربات ذات العجلات التي لعبت دوراً مهماً في تاريخ مصر العسكري .

هنالك ما يدعو الى الاعتقاد بأن الحصان ربما كان معروفاً في مصر قبل عهد الهكسوس ولو على نطاق محدود جداً . ولا يوجد لدينا دليل على ان الهكسوس استعملوا الخيل في فتح مصر على نطاق يذكر . ومهما يكن من اهمية الدور الذي لعبه الحصان والعربة في الحروب الآسيوية فيما بعد فانهما في الداخل ظلا قروناً عديدة مصدراً للمباهاة ومظهراً من مظاهر النفوذ ليس الا . وفي عهد الاسرة الثامنة عشرة والاسر التي جاءت بعدها اقتنى الملوك اصطبلات للخيـــل ، وكان الامراء من نسل تحتمس

يفاخرون بمهارتهم في ترويض الخيول « التي تسابق الريح » .
ولكن الحصان لم يرب في مصر وظل من الكماليات الغالية الثمن التي تستورد من الخارج كما ظل استعماله وقفاً على الملوك والامراء او كاد . ومما يلفت الانتباه ان دفن الخيل كان امراً نادراً للغاية في العهد الفرعوني — والاثر المحقق الوحيد الذي وصل الينا عن دفن الخيل في ذلك العهد عثر عليه في مدفن سينموت الذي كان يوماً ما محبوب الملكة حتشبسوت . وجميع العربات التي تم العثور عليها وجدت في مدافن للملوك واسرهم .

ان العربات ذات العجلات ليست لها فائدة تذكر في بلاد تتخللها الترع والقنوات . فان مصر منذ عهد سيسوستريس على حد قول هيرودوتوس (الجزء الثاني صفحة ١٠٨) « لا تستطيع استعمال الخيل والعربات وان كانت ارضها مستوية وذلك لكثرة ما فيها من ترع وقنوات تتشعب في جميع الاتجاهات » . وقد عزا هيرودوتوس مشاريع الري في مصر الى سيسوستريس هذا . نعم هنالك رسوم قليلة تظهر فيها عربات تجرها الثيران ، ولكن من الجلي انها لم تستعمل وسيلة للنقل الا فيما ندر ، وكانت قبل كل شيء وسيلة تسلية للامراء استعملوها في نزهاتهم للصيد في الصحراء ، كما استعملها الملوك والنبلاء في المواكب الرسمية ، واتخذها رسل الملك وسيلة لنقل رسائله بالتناوب بين محطة ومحطة . لقد ورد ذكر العربات والخيل في انشودة للحب كتبت في عهد المملكة الحديثة وتقول : « اسرع الى اختك يا حبيبي كما

يسرع رسول الملك الذي يترقبه سيده على احر من الجمر ... لقد سخرت له جميع الاسطبلات ، والخيل تنتظره في كل محطة على الطريق ، والعربة تقف مجهزة مستعدة . ولن يضيّع في طريقه لحظة واحدة » .

من الغريب ان المصريين الذين تمتعوا باستعداد فطري لتعلم المهارات المختلفة وحذقها لم يدركوا ما للدولاب من فوائد جمة يمكن استغلالها . وانقضت مدة طويلة قبل ان يعود الدولاب الى مصر على ايدي شعوب اخرى ليستعمل كبكرة ودولاب ماء (ساقية) ما زالت اصداؤه تتردد على ضفاف النيل حتى يومنا هذا . ولم يكن المصريون يوماً ما رجال فروسية . اجل هنالك رسوم متفرقة يظهر فيها سايس او خـــادم على ظهر حصان ولكنك لن تجد ملكاً او نبيلاً ممتطياً جواداً ولن تجد عامياً راكباً حماراً ، فقد ظل الحمار عند المصريين دابة لحمل المتاع ، والقارب او الحفة وسيلة للتنقل يستعملها من يربأ بنفسه من المشي على الاقدام .

على الرغم مما جلبه الهكسوس الى مصر من مغـــانم وما بذلوه من محاولات لاحلال الوئام والوفاق بينهم وبين السكان الاصليين فانهم لم يسلموا من المصير المألوف الذي يلاقيه كل شعب محتـــل . فبينما فتح لهم المصريون صدورهم واحتملوهم ردحاً من الزمن فان الحواجز بين الجانبين لم تزُل تماماً بل ان عهد الهكسوس شهد ، كما يبدو ، بوادر الشعور بالوحدة القومية

في مصر . ولا شك ان المصريين ادركوا في ذلك العهد لاول مرة في تاريخهم ان شعور الامن الذي عاشوا في ظله قروناً عديدة لم يكن سوى سراب خداع .

نشأت في مصر الوسطى ومصر العليا امارات مستقلة شقت عصا الطاعة على الهكسوس قبل طردهم من البلاد بمدة طويلة . وليس بالغريب ان احدى الامارات المنشقة كانت امارة طيبية اشهر زعماؤها الثورة على ملك الهكسوس « ابيبي » الذي لم يعقبه سوى ملك واحد آخر من ملوكهم . وقد استنجد ابيبي بامير كوش (النوبة) ولكن هذا لم يستجب لندائه فاضطر ان يفر بقواته من وجه الطيبيين الذين طاردوه حتى مشارف ممفيس . واحتفالاً بهذا النصر اقام كاموس ملك طيبة نصبين تذكاريين في معبد آمون في الكرنك . وفي عهد احموس اخي كاموس وخليفته طرد الهكسوس من مصر نهائياً . ولم يكف المصريون عن مطاردتهم حتى بلغوا جنوبي فلسطين حيث ضربوهم الضربة القاضية . وبالقضاء على الهكسوس عادت الوحدة الى مصر بزعامة احموس وصارت طيبة عاصمة البلاد بأسرها ، وأصبح الطريق ممهداً امام الاسرة الثامنة عشرة لجعل مصر امبراطورية عظيمة الشأن .

ما ان استتب الأمن في البلاد واستقر فيها السلام حتى وجه احموس همه نحو ترميم معابد الآلهة ، التي اهملت في عهد الاحتلال الهكسوسي وامتدت اليها ايدي السلب والنهب والتخريب .

وكان القسط الاعظم من الاهتمام والتبجيل من نصيب إله اقترن تاريخ الاسرة الثامنة عشرة باسمه اقتراناً وثيقاً – وهو آمون او بالاحرى آمون رع ، اذ انه كان في وقت ما من تاريخ ارتقائه سلم الشهرة والعظمة صنواً لرع إله الشمس العظيم في هليوبوليس . وقد اغدق احموس العطايا والهبات على إلهه وحاميه المقدس في الكرنك وقد عُثر على سجل لها على مسلة تذكارية مشوّهة – أكاليل من الذهب مرصعة بنجوم من اللازورد الحقيقي ، وعقود من الذهب والفضة مزينة بحجارة اللازورد والملخيت ، وعدد لا يحصى من كؤوس الخمر وموائد القرابين المصنوعة من الذهب والفضة ، وجرار من حجر الغرانيت الاحمر مملوءة بالطيب ، وقيثارة من العاج والذهب والفضة ، وتماثيل من الفضة على شكل ابي الهول ، ومركب مصنوع من «اجود انواع خشب الارز الجديد » ليقوم فيه الإله برحلاته البحرية .

خلف احموس على العرش امنحوتب الاول ولما يزل قاصراً ، فحكم البلاد تحت وصاية امه الملكة احموس – نُفريتاري . ومع انه تربع على العرش مدة عشرين سنة فان عهده ظـــل غامضاً . هنالك ما يشير الى انه وطـّد مركز مصر في فلسطين ونجح في اخماد ثورة في النوبة ، وما عدا ذلك فاننا لا نعرف عنه الا القليل . ولكننا على اي حال نعرف ان المصريين عبدوه وامه فيما بعد على انهما مؤسسا الاسرة وقبّهان إلهيان على مدينة الموتى في طيبة حيث ظلا يتمتعان بالاحترام والتبجيل قروناً عديدة .

اهتم امنحوتب الاول وخليفتاه تحتمس الاول وتحتمس الثاني بتوسيع معبد آمون في الكرنك وتحسينه ، فشيد امنحوتب الاول بناء من حجر الكلس وزينه بنقوش نافرة هي غاية في الدقة والاناقة ، وبنى خزانة صغيرة من المرمر لحفظ زورق آمون المقدس ، تم عما تميز به فن الزخرف في عهد الاسرة الثامنة عشرة من رقي وتهذيب . وامر امنحوتب الاول ايضاً ببناء مدفن متواضع له في واد صحراوي ليس بعيداً عن مدخل وادي الملوك حيث دفن من جاء بعده من الملوك . ولا نعرف احداً قبله من ملوك الاسرة الثامنة عشرة اتخذ لنفسه مدفناً في مكان خفي بينا بنى المعبد الذي تقام فيه شعائر الموت عند طرف الصحراء بعيداً عن موضع الدفن .

استخدم امنحوتب الاول مهندساً معمارياً اسمه اينني كما استخدمه من بعده خليفته تحتمس الاول ، وقد سجّل هذا المهندس في مدفنه في طيبة بعض ما نفّذه لسيديه من اعمال . وقد بنى اينني بأمر من تحتمس الاول سوراً حول الفناء المقدس التابع لمعبد آمون واقام رواقاً عظيماً ذا عمد عند طرفه الغربي . واشرف كذلك على بناء البوابات او الابراج التذكارية بايعاز من الملك نفسه . وقد اطلق على اولى هذه البوابات اسم « آمون ذو القوة والغنى » وتضم بين برجيها « باباً كبيراً مصنوعاً من النحاس الآسيوي عليه رسم الإله مرصع بالذهب » . ونصبت امام البوابة ساريات للرايات مصنوعة من اشجار الارز الطويلة

التي جلبت من لبنان ومروّسة بالذهب والفضة لتتلألأ تحت اشعة الشمس . وما زالت هذه البوابة قائمة وان كان الزمن قد جرّدها من الوانها وابوابها المرصعة وسارياتها السامقة وراياتها المرفرفة . ويذكر اينني ايضاً انه بنى لتحتمس الاول اول مدفن ملكي في وادي الملوك . يقول : «عاينت حفيرة المدفن الصخري الذي اعدّ لجلالته — وحدي دون ان يراني او يسمعني احد» . ولكن بالرغم من كل هذا الاحتراس والتكتم فان ايدي السلب والنهب وصلت الى مدفن تحتمس ومدافن اكثر خلفائه ، واجساد الملوك الآلهة دنست وانتهكت حرمتها قبل انقضاء عهد المملكة الحديثة بزمن طويل . بل ان الموضع الذي اقام فيه تحتمس ضريحه غير معروف .

لم يكن تحتمس الاول ابن سلفه . ولعل هنالك نسباً بعيداً يربطه بالاسرة المالكة من جهة والده . اما امه فكانت من عامة الشعب . ولكنه تزوج من اميرة من اسرة احموس (لعلها كانت اخت امنحوتب الاول) فكان ذلك سنداً قوياً له في طموحه الى العرش . نشأ تحتمس الاول نشأة عسكرية ولكن سجله في هذا الميدان لا يضاهي ما حققه فيما بعد حفيده الشهير تحتمس الثالث الملقب بالفاتح . وقد توغل في فتوحاته في بلاد النوبة وتجاوز الشلال الرابع ووطّد سلطان مصر في بلاد الجنوب . ويدل نقش من نقوشه على صخرة صوان في ما يعرف اليوم بـ «كرغس» ان نفوذ مصر قد امتد حتى الشلال الخامس على

حدود افريقيا السوداء . وفي آسيا بلغت فتوحاته نهر الفرات وقهر الامير المثاني الذي كان يهدد سوريا من الشرق، واعلن النهر الشرقي العظيم (الذي كان مصدر دهشة للمصريين لانه يجري في الاتجاه « الخطأ ») على انه من حدود مصر . ومع ان هذا كان استباقاً للواقع فان مصر قد اقتربت كثيراً في عهد تحتمس الاول (الذي دام سبع عشرة سنة) من تحقيق هدف ملوكها في فتح آسيا .

اعتلى العرش بعد تحتمس الاول ابنه تحتمس الثاني وهو ما زال يافعاً . ولما كان ابن زوجة قليلة الشأن من زوجات الملك فقد تزوج وهو صغير من اخته لابيه حتشبسوت ليدعم بذلك حقه في العرش . وعلى الرغم من انه كان معتل الصحة ومات في اوائل شبابه فان شؤون الملك سارت في عهده على خير ما يرام . ولعل الفضل في ذلك يعود الى حد ما لزوجته القوية التي خلد التاريخ اسمها كامرأة ذات شخصية قوية عجيبة ولكنها لا تخلو من الاستهتار . وبعد وفاة زوجها ظلت على العرش وصية على ابنه القاصر تحتمس الثالث الذي عينه وريثاً له . كان تحتمس الثالث كأبيه وجدّه من قبله ابن زوجة ثانوية تدعى ايزيس وليس ابن « الزوجة الملكية العظمى » . اما حقه في العرش فقد ايده وحي إلهي (أو هكذا ادعى فيما بعد) ، ولعل شرعية ذلك الحق قد ازدادت قوة بزواجه من اميرة عريقة النسب هي اخته لأبيه والابنة الوحيدة لتحتمس الثاني من زوجته حتشبسوت . وعلى

اي حال فان تحتمس الثالث ظل مـــدة طويلة بعد بلوغه سن الرشد ملكاً بالاسم فقط .

ذلك ان حتشبسوت ، وقد ذاقت طعم السلطة خـــلال السنوات المبكرة من عهده قبل بلوغه سن الرشد ، لم تلبث ان استولت على زمام الحكم وحصرته في يدها القديرة . ولم يكن طموحها — ولا خيالها ايضاً — ليعرف حدوداً . فقد ادّعت (كما فعل سواها من الحكام) ، يساندها نفر من اعضاء الحاشية الملكية ، بانها سليلة الاله « امون رع » الذي كان قد ظهر لأمها متجسداً في شخص والدها تحتمس الاول . وادّعت ايضاً بأن والدها قد توّجها هي خليفة له ووريثة ، متجاهلاً تماماً اخاها لأمها الذي اصبحت زوجته فيما بعد ، والذي تولى الملك ثمانية عشر عاماً . على انها لم ترتض بأن تكون ملكة ، ولذلك فقد أمرت بأن ترسم لها صور على هيئة ملك وهي ترتدي الزي الرجالي وحول ذقنها اللحية المستعارة التي كانت مخصصة للآلهة والحكام المقدسين . ويتضح من الكتابات والنصوص الخاصة بها التباس جنسيّ غريب ، ولو انه قد يكون حتمياً ، ذلك ان تلك النصوص ذكرتها « هي » على انها « الاله الصالح » ، الهورش « ابن الاله رع » .

ليس هناك شك في ان حتشبسوت كانت امرأة مقتدرة ، وكان لديها مستشارون مقتدرون . فقد سارت في عهدها شؤون

البلاد الداخلية بسلاسة ويسر ، وازدهرت مصر ، وساد السلام، وتدفقت الاتاوات على الخزانة من الاقاليم التي كان قد اخضعها اسلافها ، وانطلقت القوافل التجارية آمنة على الطرق التي كان الاسلاف قد ضمنوا سلامتها . غير ان قسماً كبيراً من الثروة التي تدفقت على مصر نتيجة لكل ذلك انفق في سبيل تمجيد الآلهة، باعتبار ان المصريين كانوا دوما ، كما ذكر هيرودوتوس بعد الف سنة ، « متدينين الى حد لا يقاس » . فقد اعادت حتشبسوت تحت ادارة ناظر الاشغال في عهدها ، ستنموت ، بناء معابد كثيرة ، ولكنها خصصت افضل جهودها لمدينة طيبة . ولعل اكثر ما كانت تفخر به من منجزات ، المسلتان العظيمتان اللتان شيدتها في معبد الكرنك هيكل والدها آمون ، ثم الحملة التي سيّرتها الى « بنط » على الشاطىء الصومالي لتعود حاملة البخور والطيب لتعطير المعبد ، واشجار اللبان الحية لتزرع في حديقة معبدها في دير البحري . وقد سجلت هذه المنجزات على جدران المعبد الذي خصصته مدفناً لها في غرب المدينة ، بحيث تظهر الرسوم النافرة مشاهد نقل المسلات قطعاً حجرية واحدة من مقالع الغرانيت في اسوان على بعد ١٣٠ ميلاً الى الجنوب عبر النيل ، كما تصور مراكب اسطولها الحامل للبخور والطيب والامصار والشعوب الغريبة التي شاهدها موفدوها عند شواطىء البحر الاحمر البعيدة .

تلك المسلات التي كانت موضع التباهي والاعتزاز ، والتي

كانت رؤوسها « تخـــترق السماء وتضيء القطرين مثل قرص الشمس » قد تحطمت منذ زمن بعيد . غير ان واحدة من الاثنتين اللتين كانت قد شيدتها في الكرنك ما تزال منتصبة في نهاية الباحة المسورة بالاعمدة التي كان قد بناها والدها ، والتي اقدمت هي على هدم جزء منها لتفسح مكاناً للمسلتين . اما المعبد الذي بنته لنفسها في دير البحري والذي يرتفع متكئاً على صخرة شاهقة ، فعلى الرغم من انه اليوم يبدو مهدماً ومحروماً من حدائقـــه وجنائنه الغناء ، الا انه يظل واحداً من افخم وأروع المعالم الاثرية في مصر . فهو مستوحى من المعبد المجاور الذي شيده نبهيبتر منتوحوتب من السلالة الحادية عشرة ، ولكنه اكبر واضخم . وهو يرتفع في طبقتين مدرجتين عميقتين تحف بها العمد ، تحاذيها قباب فخمة ، ليشرف مهيمناً على الوادي . وانك لترى اليوم تحت طبقتيه المدرجتين بقايا القاعة الامامية المسورة ، وفوقها منحوتاً في قمة الصخرة المحراب الرئيسي المكرس لآمون . ويضم المعبد ايضاً هيكلين احدهما للإلهـــة « هاتور » ، والثاني للاله « انوبيس » ذي الرأس الثعلبي ، وهما الالهان القيمان على مدن الاموات (المقابر) . كما يضم محاريب خاصة لعبادة حتشبسوت نفسها وعبادة والدها تحتمس الاول الذي ظل عمال المقابر يكرمون مثواه ويجلونه زمناً طويلاً بعد ان غدت هي نسياً منسياً .

على الرغم من عظمة هذا المعبد وضخامته ، فانه يوحي بالخفة

والسطحية ، على النقيض من المهابة والجلال اللذين يوحي بهما كثير من المعالم الطيبية الاخرى . وهو يبدو ، اكثر من غيره من ابنية العهود المصرية الغابرة ، جزءاً حتمياً لا يتجزأ من موقعه الطبيعي . ولعل ابرز مظاهره ان الرسوم الدقيقة النافرة التي تزين جدره تنم عن تحرر وعن سحر انثوي رقيق ، مما تفتقر له معالم البناء السابقة الاكثر محافظة وانكماشاً وطابعاً كهنوتياً . وانك لتكاد تستكشف نفساً شعرياً من خلال تلك الرسوم ، حتى لقد قيل ان شيئاً من شعر المصريين القدماء قد تسلل الى الكتابات التي نقشت على الجدران كتكملة للمشاهد المصورة .

كانت الملكة ممثلة على كل جدار من جدران المعبد. فولادتها المقدسة ، وتتويجها ، واعمالها ومنجزاتها ، وتعبّدها للآلهة ، كل هذا مثبت على الجدران نقشاً وتصويراً . فلا عجب اذن ان اقدم تحتمس الثالث، وقد حرره اخيراً موت حتشبسوت من سطوتها وطغيانها عليه ، على تحطيم ومسح كل ما كان يمت اليها بصلة من انصاب ونقوش، وعلى طمس اسمها في جميع الكتابات وتغطيته باسمه أو باسم والدها . لقد ازال كل التماثيل التي كانت ترمز الى الملكة في شكل اوزيريس ودفنها ، كما ازال سائر المنحوتات التي كانت تمثلها بالثوب الملوكي ، بالاضافة الى سلسلة تماثيل ابي الهول التي كانت تحف بطريق عريض، شق خصيصاً للمسيرات الاحتفالية ، يؤدي الى النيل . اما المعبد بالذات ، وقد كان

في الاساس مكرساً لآمون، فقد عفا عنه تحتمس الثالث وابقاه، ولكن لينا له بعد قرن من الزمن المزيد من التحطيم والبتر والتهشيم عندما أمر « الملك الملحد » اخناتون بمحو اسم آمون وازالته من المعبد .

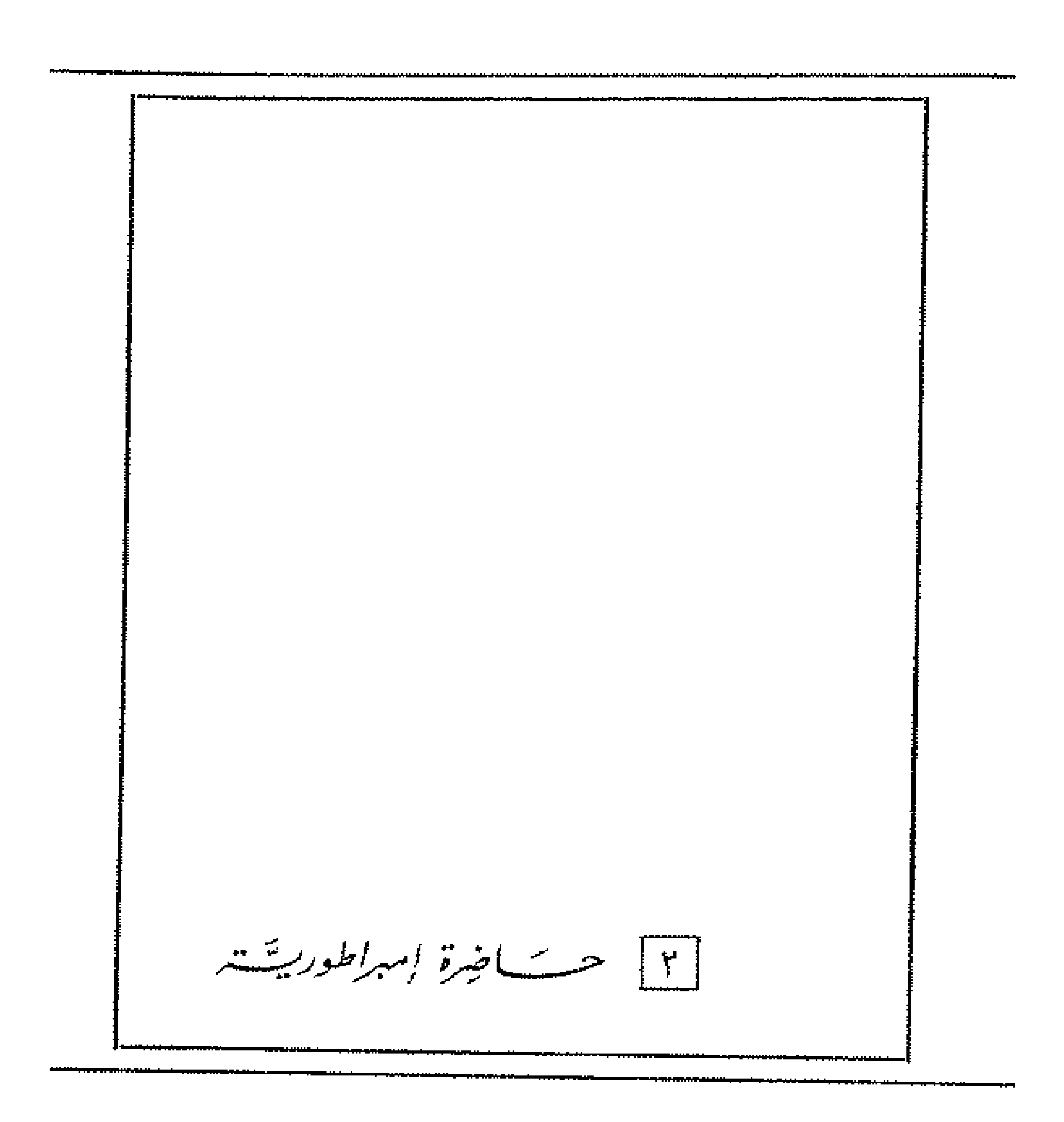
لا يسع المرء الا ان يستشف من خلال الظلال الخلفية المبهمة ان عهد حتشبسوت كان حافلاً بالمؤامرات والمكائد والدسائس، تحاك ضدها مكائد ودسائس معاكسة بصورة مستمرة . ومن الممكن جداً القول بأن حتشبسوت كانت مدينة بالقسط الاوفر من شهرتها كحاكمة مقتدرة الى تلك الفئة من رجال الحاشية الملكية الذين وجدوا ان من مصلحتهم ان تكون الملكة اداة طيعة في ايديهم يستخدمونها كما يشاؤون وتشاء منافعهم . وكان في مقدمة هؤلاء وطليعتهم سننموت ، اكثر المحببين اليها ، وهو رجل يتحدر من ارومة وضيعة التحق بخدمتها بادىء ذي بدء كوصي ومعلم لابنتها نفرورر . ومن هذا المركز المتواضع نسبياً راح يتقدم ويرتفع حتى بلغ منصباً خطير الشأن واسع السلطات، مما لم يسبق له مثيل من قبل . وقد كتب عنه وليام س. هيز في مؤلفه (صولجان مصر — الجزء الثاني — ص ١٠٦ / ١٠٧) انه ، اي سننموت ، اخذ يجمع لنفسه « المنصب المهم تلو المنصب المهم حتى غدا — حسب تعبيره هو بالذات — اعظم العظماء في سائر البلاد . فقد حمل اكثر من ثمانين لقباً ، وعلى الاخص في ادارة الممتلكات الواسعة التي كانت تخص الاسرة المالكة وإله الدولة

آمون ... ويرجح انه باسم تينك السلطتين العظيمتين ، وبحكم منصبه كوكيل الخرج الاعلى استطاع ان يتولى امر شطر كبير جداً من موارد ثروة الامبراطورية المصرية برمتها . ولما كانت الفرعونة قد جعلته امينها وصفيها المقرب ، وبصفته الوصي على ابنتها ، فقد كان مسموحاً له بطبيعة الحال ان يتصرف وكأنه أحد افراد العائلة ، وان يتمتع بحقوق وامتيازات لم يسبق ان منحت لمجرد موظف من قبل . على ان سلطته لم تعمر طويلاً بعد وفاة وصيته الملكية نفرور ، ولم يكد يطل العام التاسع عشر على ذلك العهد حتى كان سقوطه المريع التام ، فأهمل القبر العظيم الذي كان يبنيه لنفسه في دير البحري ولما يكتمل بعد ، وتعرض الكثير من آثاره ونصبه للتشويه والتهشيم او للتحطيم قطعاً متناثرة » .

فهل كان سبب سقوطه انه تجاوز حدوده وتطاول بحيث راح يخطط للاستيلاء على العرش، ثم لجعل ذلك الاستيلاء شرعياً ربما بالزواج من الملكة نفسها، ام ان سقوطه كان نتيجة مكائد حاكها له الحساد من زملائه واقرانه من الحاشية واشترك في وضعها تحتمس الثالث نفسه ؟ ان التاريخ لا يعطي جواباً على هذا السؤال . غير انه من المؤكد على اي حال ان تحتمس الثالث الذي اثبت فيما بعد انه احد اقدر الملوك الذين عرفتهم مصر وانشطهم ، كان عسيراً ان يظل خاضعاً لاستعباد الملكة لو لم تكن تساندها عصبة متآمرة قوية طموحة كان سنموت يمثل مركزاً بارزاً فيها .

وفي حين ان حتشبسوت كانت قد شيدت لنفسها لحدين اثنين ، فانه ليشك في انها قد دفنت بعد موتها في اي منها . والارجح ان تكون قد لاقت حتفها بميتة عنيفة وان يكون تحتمس الثالث قد قرر لها ان تدفن في قبر مجهول بناحية بعيدة من اودية مدينة الاموات. ومن المؤكد ان تحتمس الثالث انتزع جثمان جده الموقر ، تحتمس الاول ، من قبر الملكة (الذي كانت هي قد نقلت جثته اليه ، وكأنها تريد المضي حتى بعد مماتها في الاسطورة التي نسجتها من انها تلقت التاج من يديه) واعاد مومياءه الى القبر الذي كان قد بناه له المهندس المعماري اينني في وادي الملوك .

والجدير بالذكر ان الاجيال المتعاقبة باتت لا تعترف بأن حتشبسوت قد حكمت بالفعل . فان اسمها لم يظهر في القوائم التي وضعها الملوك اللاحقون بأسماء الملوك الاسلاف ، بل لقد حذف كما حذف اسم اخناتون الملحد وبعض الحكام المشبوهين الآخرين ممن بدا ان من الافضل ان يغفل ذكرهم وان يطويهم النسيان .



٢ حاضرة إمبراطورية

ما ان تخلص تحتمس الثالث من حتشبسوت البغيضة، زوجة أبيه ، والحاشية التي كانت تساندها وتؤيد مطامحها حتى ظهر كواحد من أبرز الحكام في التاريخ . ومع اننا لا نعرف الكثير عن الكيفية التي قضى بها السنوات الواحدة والعشرين رازحاً تحت نير طغيان الملكة ، فقد اصبح واضحاً ان تلك السنوات لم تذهب سدى . فسرعان مـــا أدار وجهه صوب الشرق حيث كانت الثورات تستعر في فلسطين وسوريا مهددة المكاسب التي بذل جدوده الجهد الكبير لتحقيقها . وقد اقتضاه على الاجمال تسعة عشر عاماً وسبع عشرة حملة شاقة قبل ان يتم له اخضاع جميع البلاد الواقعة فيما قبل الفرات ، من آسيا الصغرى في الشمال حتى حدود فلسطين الجنوبية . وبعد ان حقق ذلك الانتصار ، بات يتمتع باحترام دول أقوى بكثير من الزعماء القبليين الصغار الذين قهرهم . فدفع له الامراء الميتانيون ، الذين كانوا يهددون سوريا من بلاد ما وراء الفرات ، الجزية والاتاوات . وأرسل له ملك بابل الهدايا المحلاة بحجارة اللازورد . وحمل له رسل الحثيين من معاقلهم الجبلية في بـــلاد الاناضول الخواتم الفضية الثقيلة وغيرها من الهبات الثمينة النادرة .

غير انــه في الوقت الذي توطد فيــــه السلام في ربوع الامبراطورية ، كان تحتمس قد اصبح رجلا هرماً طاعناً في السن . ذلك انه ظل سنوات عديدة يقضي فصول الصيف في الحملات العسكرية المرهقة ، في حين ان فصول الشتاء التي كان يقضيها في مصر لم تكن لتجلب له الراحة والهدوء . ولعل همــه الأول كان ينحصر في القيام بجولات في البلاد ليتفقد مشاريعه العمرانية الكثيرة المتنوعة ، وليقف على مدى أمانة مرؤوسيه في اداء واجباتهم دون ان يلجأوا الى ظلم الشعب من غير داع . وقد قال احد اتباعه فيه : « ان صاحب الجلالة رجل يعرف تمامــاً ماذا يجري » .

تدفقت اذن على خزائن الملك والآلهة الاتاوات والاخراج والمغانم على شكل تجهيزات وثياب فاخرة، وحبوب، ومواشي، وعبيد اسرى . وبدأت طيبة تتحول الى مدينة عالمية ، بل الى بابل تختلط فيها الألسن واللغات . وأخذت الكلمات الاجنبية تتسلل الى اللغة الاصلية، وعجت القصور والمعابد والحقول بالعبيد الارقاء الاغراب ، ودخلت الاميرات الاجنبيات الحريم الملكي . وكان ابنـــاء الامراء الشرقيين القادمون الى مصر يقيمون في مستعمرات ملحقة بالمعابد لكي يتشربوا طريقة الحياة المصرية ويتدربوا على أتم وجه ، ليعودوا فـــيما بعد الى بلادهم ويرثوا الممالك الصغيرة في فلسطين وسوريا . ذلك ان فلسطين وسوريا لم تكونا أبداً مستعمرتين للمصريين بالمعنى الصحيح للكلمة . صحيح

انه كان هناك «مستشارون» مصريون في المدن الرئيسية وحاميات عسكرية في المواقع الستراتيجية ، ولكن الصحيح ايضاً ان امبراطورية مصر لم تكن « ارض الإله » — أي ارض الفرعون — الا بالمعنى المقلقل المشوش للعبارة . فان الممالك الصغيرة التي كانت تتألف الامبراطورية منها لم تكن موالية طائعة الا عن طمع وخوف — الطمع بأن العلاقات الودية مع مصر الغنية اجدى وأنفع مادياً ، والخوف ليس من مصر وحدها فقط ، بل من اعداء ألد وأشد ضراوة قد يغيرون عليها من الشمال والشرق — وهذا مـــا حدث بالفعل فيما بعد — ولكن قوة مصر كبحت جماحهم موقتاً فترة من الزمن .

أنفق جزء كبــــير من الثروة التي تدفقت الى مصر نتيجة لفتوحات تحتمس على تجميل معبد آمون في الكرنك ، ذلــك المعبد الذي كان يتلقى جمالات سنوية من مدن معينة مغلوبة على أمرها ، بالاضافة الى كنوز كثيرة اخرى . فقد وسع تحتمس دائرة نطاق المعبد وارباضه توسيعاً شاملاً وأقـــام حوله سوراً جديداً . وكان أول ما يستأثر باهتمامه ان يحيط المسلتين اللتين أقامتهما حتشبسوت ، بعد ان هدمت من أجل ذلك جزءاً من القاعة التي كان قد بناها والدها ، بسور يرتفع حتى قمتيهما ، اذ كان الملك مصراً ، وقد تبين ان من الصعب والحرج ازالتهما تماماً ، على الّا تظهرا للعيان من داخل المعبد . وأقدم ايضاً على اعادة بناء القسم الداخلي من بيت الله واحدث اضافات كثيرة

جديدة عليه ، فأقام عند المدخل الرئيسي بوابة جديدة، ونصب مسلتين من صنعه أمام مسلات تحتمس الأول . وشيد ، للاحتفاء بيوبيله ، خلف محراب السلالة الثانية عشرة ، قاعة احتفالات ضخمة هي عبارة عن جناح من الحجر ذي أعمدة حجرية تشبه العمد الخشبية المستخدمة في نصب الخيام . وتشاهد اليوم بالقرب من هذا الجناح بقايا غرفة جميلة نقشت على جدرانها بعناية ودقة فائقتين رسوم نباتات وحيوانات غريبة كان الفرعون قد عاد بها من حملاته في سوريا .

كل هذا ، وغيره كثير ، بناه تحتمس الثالث في معبد آمون . وتظهر المنحوتات والرسوم البارزة التي خلفها هنـــاك الروعة والكمال في الصقل اللذين كانا واضحين قبلا في أعمال حتشبسوت ، وعلى الرغم من أنّ العمار الفخم الذي حققه رمسيس الكبير كان يفوقها عظمة ، فان طابع الجلال والمحافظة اللذين اتسمت بهما الهندسة المعمارية في عهد المملكة الجديدة السابقة لا يزال واضحاً . ولم يتبق أثر يذكر من المعبد الذي بناه خصيصاً لهاتور بالقرب من دير البحري . وكل ما بقي هو الحرم المقدس الجميل النحت الذي احتواه المعبد ، والذي يصور الملك يستقطر حليب الحياة من البقرة الهاتورية ، وهو محفوظ في متحف القاهرة . وأندر من هذا وأقل ضآلة ً مـــا بقي من هيكل مدفنه بالقرب من متحف رمسيس ، كما ان آثاره في مدينة حابو قد غشت عليها الاضافات والزيادات التي حققتها السلالة العشرون .

ترك تحتمس الثالث في الكرنك وغيره من الامكنة بيانات مخطوطة بمآثره وأعماله البنائية . ومن بين سائر الفراعنة القدماء، لم تظهر الوثائق حاكماً أعظم منه شأناً وقيمة في التاريخ . ولكي يثبت نسبه الملكي ، قام بتحديد نسله نقشاً على جدران معبد آمون مُرجعاً تحدره الى السلالة الحادية عشرة — فأعطى المؤرخين العتيدين بذلك قائمة نفيسة مهمة بأسماء الملوك . وهناك ايضاً بيان محفوظ عن حملاته وغزواته وغنائمه الحربية ، وعن مهرجانات وأعياد النصر التي كان يقيمها ارضاء وابهاجاً للآلهة ولشعب طيبة . وهو يدعي بأنه هو الذي خطط لاعادة تنظيم ادارة المعبد واشرف على التنفيذ بنفسه ، بعد ان استوجب ذلك زيادة ثروة آمون وتحسين طقوس العبادة وتنقيتها . ويبدو ان لا شيء مطلقاً كان يفوت انتباهه واهتمامه .

ولم يبق من الهياكل والمقامات الكثيرة التي بناها في طول مصر وعرضها شيء قائماً الا في ما ذكره عنها في السجلات التي خلفها كتابة . فليس هناك ألبتة أثر باقٍ من المعبد الذي شيده لإله الشروق «هراختة» في هليوبوليس ، ولا من المسلتين اللتين أقامهما هناك ايضاً تكريماً للإله رع . والواقع انه ليس في مصر اليوم مسلة واحدة على الاطلاق من المسلات التي أقامها احتفالاً بيوبيلاته وسواها من المناسبات — وهو الثاني بعد رمسيس الكبير فقط في مضمار المسلات — بالرغم من ان عدداً منها يزين بعض مدن عالمنا الحديث . فالمسلتان اللتان أقامهما في هليوبوليس هما

« مسلتا كليوباتره » المنتصبتان في نيويورك ولندن، كما ان اثنتين من مسلاته في طيبة ما تزالان منتصبتين الواحدة في اسطمبول والثانية في روما منذ ألفي سنة تقريباً .

على ان بعضاً من آثاره ونصبه في بلاد النوبة (وهذه سوف تغرقها عما قريب المياه التي سترتفع خلف السد العالي الجديد) قد بقيت لتشهد بأن سلطانه قد امتد بعيداً في بلاد أعالي النيل . فعلى النقيض من فلسطين وسوريا ، كانت بلاد النوبة مستعمرة حقيقية ، وكان يحكمها ابن الملك نيابة عنه في كوش . وقد نقش تحتمس الثالث اسمه الى جـــانب اسم تحتمس الأول على الصخرة القريبة من الشلال الخامس كشاهد على انه قد اتصل بقبائل البلاد البعيدة تلك . ففي عهده ظهرت لأول مرة صور الزنوج على جدران المدافن المصرية . واستطاع الملك ايضاً ان يضع الواحة الخصيبة في الصحراء الغربية تحت اشرافه الوثيق — فقد ظهرت في أقبية طيبة وعنابرها جرار خمور رائعة تؤيد اسطورة « خمر الواحة » — كما أعاد الحياة والنشاط بعد زمن طويل من الاهمال الى دلتا النيل بمراعيها الشاسعة ، وأراضيها الخصبة الغنية ، وقنواتها الملاحية التي تؤدي الى البحر ومن ثم الى آسيا . فلا عجب اذن ان تردد صدى اسمه عـــبر الاجيال المتعاقبة دون ان يستطيع حتى اسم رمسيس العظيم الشهير ان يكسفه او يغطي عليه كلياً . فقد ظل اسم عرشه ، منخبر ، لامعاً بارزاً على الجعلان والاختام التعويذية حتى نهاية التاريخ

المصري القديم . وهو لا يزال حتى اليوم واحداً من الكنى الملكية المعروفة لدى سكان الحاضرة المعاصرين ، بل لقد اصبح بالفعل رمزاً وشعاراً لتجارة التحف القديمة المزيفة .

كان يساعد تحتمس الثالث في منجزاته العظيمة رجـــالٌ قديرون مخلصون وشهدت المملكة الجديدة تغييرات وتبديلات كثيرة في حقلي القصر والادارة في البلاد . ولعل هناك مغزى كبيراً وراء اختفاء الالقاب السابقة ذات الصلة الوثيقة بطقوس وتقاليد كانت تحيق بحياة الفرعون اليومية وتشكل له عبئاً ثقيلاً بالـــغ الازعاج . فلم يعد النبلاء يتلقون التسميات الفخرية ، كما كانت الحال في عهد المملكة القديمة ، كرؤساء الحلاقين او المزينين او صانعي العطور الملكيين . اما ما بقي قيد التداول من القـــاب وتسميات مشابهة كمثل « وصيف نهوض الملك » او « حارس الثوب الملكي او التاج الملكي » او « حامل المروحة عن يمين الملك » او « الساقي الملكي النظيف اليدين » ، كل هذه الالقاب لم تعد سوى رموز فخرية لما يتمتع به حاملوها من حظوة واعتبار لدى الملك دون ان تنطوي على قيامهم بأية خدمات شخصية حميمة للملك . هذه وسواها من المعلومات المتفرقة تدل ليس فقط على ان الفرعون بدأ يتمتع بذلك النزر اليسير من العزلة الشخصية او الحرية الخاصة المتوفرة لرؤساء الدول في أي زمان ومكان ، بل تعني ايضاً ، وبالدرجة الأولى ، ان متطلبات الحكم المتوسع المتعاظم قد قضت على الكثير من الرسميات التافهة

في جوهرها التي كانت متركزة حول شخص الملك المقدس النسب .

ولعل أهم من كل ذلك ان مجرد نبل الارومة والمولد أخذ يتضاءل بسرعة باعتباره الضرورة الوحيدة المؤهلة للمناصب العليا. فقد بات نظام الحكم الاستبدادي المتضخم يتطلب المقدرة والكفاءة اكثر من النسب والدم . وكون أي شخص نسيباً للملك او حاملاً للقب نبيل بالوراثة لم يعد ضمانة لحصوله على وظيفة مهمة تعود بالربح والفائدة . صحيح انه حدث قبلاً ان ارتفع اشخاص من الطبقات المغمورة نسبياً الى مناصب كبيرة واسعة النفوذ، ولكن الامثلة على هذا تضاعفت وتواترت مع بلوغ السلالة الثامنة عشرة أوج مجدها ، اذ تولى في عهدها رجال كثيرون من اصل غير ارستقراطي مناصب خطيرة الشأن . فان أي مستكتب طموح، او كاهن متواضع ، او زوج مربية من مربيات اطفال الاسرة المالكة او ابنها ، او ابن احدى نساء الحريم الملكي السابقات ، او قبل جميع هؤلاء ، أي جندي يظهر بسالة وجدارة في حقل المعركة ، كان يستطيع ان يطمح ويتوصل الى منصب عال في الدولة اذا كان له من الذكاء والاخلاص والامانة ما يؤهله لذلك . على انه لم يكن للديمقراطية أية علاقة بهذا الموضوع . كل ما في الأمر انها كانت مسألة حاجة وضرورة . فالملك ظل كما كان دائماً ابداً الحـــاكم المطلق ، بل « الإله الصالح » الذي يمسك بالبلاد وشعبها في قبضة يده .

ترك عدد من اتبــاع تحتمس الثالث سجلات عن خدماتهم

وولائهم في النواويس التي بنوها لانفسهم بمدينة المقابر في طيبة — تلك النواويس التي كانت من الفخامة بحيث تعطي الدليل على كرم الملك وسماحته . وفي مقدمة اولئك وزير مصر العليا ، رخمير ، الذي اشتهر اسمه لدى الخلف كما اشتهر اسم سيده الملك من قبل. وقد سجلت على جدران ناووسه في طيبة بمنتهى التفصيل وأوفى الشرح مراحل حياته في خدمة الدولة، من تنصيب الملك له وكيفية الاحتفال التقليدي بذلك ، اذ يرشده الملك ويبيّن له واجباته في وظيفته « المريرة » ، ثم تفوقه وبروزه في اداء مهامه والقيام بواجبه على أكمل وجه .

لا ريب في ان الوزير حينذاك كان شخصية مهمة اكثر من أي وقت مضى، وذلك بسبب تغيب الفرعون المتكرر عن البلاد في غزواته للبلاد الاجنبية ، ثم بسبب انشغاله فيما بين الغزوات بوضع الترتيبات والاعداد للحملات العسكرية التالية . فمنصب الوزير آنذاك يعادل على وجه التقريب منصب رئيس الوزراء في العصر الحاضر ، الا انه يزيده بأن وزير ذلك الزمن كان يتولى ايضاً وزارات الحربية والداخلية والزراعة ويشرف على المالية . وفوق كل هذا ، كان كبير القضاة ، ورئيس الشرطة في مصر العليا ، وفي الوقت نفسه عمـــدة مدينة طيبة ايضاً . وبصفته الوكيل الاكبر للملك ولمعبد آمون ، كان له الاشراف الفعلي على ثروة البلاد التي كانت في الحقيقة ملكاً مشتركاً بين الملك وبين

الإله : فالممتلكات التي كانت لغيرهما من الناس انما كانوا يتولونها اقطاعاً او التزاماً .

يروي لنا رخمير انه كان يجلس يومياً في قاعته ليستمع الى القضايا ويصدر القرارات . وهو يفاخر ويتباهى بأنه ما مال ابداً «الى جهة ما اكثر من الجهة الاخرى» ، وبأنه لم يقبل رشوة على الاطلاق . غير ان مشهداً متقطعاً غير بارز من المشاهد المرسومة في ناووسه يشير الى انه وان كان تصرف الوزير منزهاً معصوماً ، فان أيدي مرؤوسيه ومساعديه ربما لم تكن نظيفة نظافة يديه . ذلك المشهد يمثل المتداعين متجمعين عند باب قاعة رخمير ، بعضهم يزحف على البطون ، والبعض الآخر يتهافت متقدماً ولكن ليدفع الى الخلف بأيدي رجال الشرطة المسلحين بهراوات يهددون بها الناس . ويبدو بعض اصحاب الالتماسات قادمين وهم يحملون قطعاً من القماش ، وعقوداً ، وأوعية لا يعرف محتواها . فهل يحملون هذه الاشياء ليقدموها كدلائل واثباتات لدعاواهم — أم على سبيل الرشوة ؟ الرشوة ، ربما ، لا للرجل العظيم نفسه ، وانما لمعاونيه وبطانته الذين كان يجب على المتداعين المساكين اللجوء اليهم والاعتماد عليهم كي تتاح لهم فرصة المثول أمام الوزير واستماعه اليهم . وفي ضوء ما نعرفه عن مصر في أوقات أحدث عهداً من تلك ، يمكننا جيداً تصور مجلس رخمير وما يرافقه من ضجيج وعويل ومهاترات وازدحام وتدافع ، بل ومن أمل مقيم لدى المتداعين بأن تقديم هدية للشخص المناسب

قد يجلب لمقدمها فرصة عرض دعواه على الأقل ، ان لم يجلب العدالة — ولربما يؤدي حتى الى اسقاط الادعاء والاتهام .

وفي حين ان رخمير كان ولا ريب يوكل أمر جزء كبير من مهامه لسواه ، فان المرء ليعجب رغم ذلك كيف كانت نهاره يتسع ويطول بما فيه الكفاية لكي ينجز ولو شطراً متواضعاً من الاعمال التي يدعي انه كان يقوم بها . صحيح انه كان وزيراً على مصر العليا فقط الى الجنوب من اسيوط ، وكان هناك وزير ثان يتولى أمر مصر السفلى ، عـــدا عن نائب الملك في كوش ذي السلطان المطلق الذي كان يمارس السلطة على بلاد النوبة والاراضي الواقعة جنوب مدينة الكاب . ولسنا نعلم أية علاقات كانت قائمة بين هذين الرجلين وبين وزير الجنوب ، ولكن لا بد انهما كانا يعملان باوثق التعاون مع هذا النبيل الذي استطاع التبجح بأنه كان « ثانياً للملك فقط » .

ليس مؤكداً ايضاً ما اذا كان وزير الشمال قد أقـــام في هليوبوليس او في ممفيس . كانت هليوبوليس مدينة مفرطة في القدم يتكاثف على تأسيسها غبار ما قبل التاريخ . وكانت مقر إله الشمس رع الذي كان هيكله ، بعد هيكل آمون رع — وهو الذي انتحل اسم الإله الأول وكثيراً من صفاته — أغنى هياكل مصر قاطبة . وقد ظلت هليوبوليس حتى انتهاء العهد الفرعوني مدينة مقدسة ومركزاً للدين والعلم كان له أثر كبير عميق على

الاجيال المتعاقبة . والى هليوبوليس كان الرحالة اليونان يتوجهون علهم يفقهون سرّ الحكمة الذي كان يحفظه بحرص بالغ رجال الكهنوت المتضائلون رويداً رويداً .

اما ممفيس فقد كانت ذات أهمية اكبر سياسياً واقتصادياً . فمنذ تأسيسها كانت الرمز القوي لمصر المتحدة وللملكية المقدسة . وقد بنى مينيس ، أول حـاكم للبلاد بكاملها ، قصره الابيض الجدران فيها ، واصبح معبد بتاح القريب من هناك المقر التقليدي لحفلات التتويج حيث كان الفراعنة يتسلمون التـاج المزدوج . وهناك ايضاً نشأ عيد « السيد » ، او يوبيل الحاكم ، الذي كان يجري خلاله تمثيل مرحلتي توحيد القطرين وبناء أول قصر ، ثم تأكيد حق الملك باعتلاء العرش .

وعلى النقيض من ممفيس — ومن معظم المراكز العالمية في الحقيقة — فان طيبة لم تتمتع الا بمزايا جغرافية ضئيلة فيما عدا سهلها الزراعي الفسيح وجمال موقعها الأخّاذ. فهي لم تكن ميناء بحرياً ، حتى ولا ميناء نهرياً ذا شأن . ولم تكن لها تحصينات طبيعية تحميها، ولا هي كانت تسيطر على طريق تجاري او تحمي حدوداً . بل لقد كانت في الموقع غير المناسب اطلاقاً للاشراف على مصر السفلى وعلى الطرق البرية والبحرية الى آسيا . ويروي لنا هيرودوتوس ان طيبة ، في زمانه ، كانت على مسافة تسعة أيام سفر من هليوبوليس (في حين ان هذه الاخيرة كانت على بعد

اربعة عشر ميلاً عن ممفيس في خط مستقيم) . وكان الوصول الى المدينة من البحر يستغرق مثل نصف تلك المدة على الأقل . وفي حين كان بامكان السعاة الخصوصيين اختصار هذه المدة ، الا انه لمن الواضح حتماً ان موقع طيبة لم يكن الموقع الأقرب او الأكثر ملاءمة لا للادارة الداخلية ولا للفتوحات العالمية .

ولكن ممفيس القايمة على مقربة من ذروة الدلتا ، كانت بحكم موقعها هذا نقطة التقاء القطرين واتصالهما . وقد لعبت في عهد السلالة الثامنة عشرة دور العاصمة الثانية ، الأقل غنى وثروة من طيبة ولكن المنافسة لها من حيث الأهمية . فهناك كانت تتجمع الجيوش ، وتبنى الاساطيل ، ويتمركز المبعوثون والقادة العسكريون من أجل غزو آسيا . وهناك كانت المراكب التجارية تفرغ حمولاتها من نتاج البلدان الاجنبية وتحمل الصادرات الى الشرق . وقد انشئت فيها العنابر ومخازن الحبوب الضخمة ، حتى ان إله طيبة آمون كانت له مستودعاته الخاصة في العاصمة القديمة . وأقدمَ الملوكُ والامراءُ على تشييد القصور لحريمهم فوق مرتفع فيها يشرف على المعابد والبساتين والبحيرة الاصطناعية الضخمة التي أمر حكام المملكة القديمة بصنعها . وعلى الرغم من اخلاص فراعنة السلالة الثامنة عشرة لآمون ووفائهم له ، فقد اهتموا بأمر مقامات آلهة ممفيس القدماء ولم يهملوها . وفيما بين تلك الاقداس القديمة قامت هياكل جديدة كرست لآلهة سورية غريبة ، ذلك ان ممفيس بزّت طيبة في كونها مدينة عالمية تتلون وتتنوع فيها

الحياة بالزوار الاجانب والتجار والمهاجرين والعبيد والاسرى والرهائن ، وبقيت دائماً كذلك . وقد ذكر سترابو انها ، شأن الاسكندرية ، كان يقطنها « خليط من اجناس البشر » .

ليس هناك اليوم اكثر من بضعة حجارة متفرقة مبعثرة تدل على المكان الذي كانت تقوم فيه ممفيس . فالبيوت والمخازن والقصور التي كانت مبنية بطوب الطين قد انهـــارت وتهدمت واستحالت غباراً . اما المعابد فقد سلبت ونهبت منذ زمن بعيد ونقلت حجارتها لتستخدم في بناء الجوامع والحصون بالقاهرة في العصر الوسيط . ووسط بساتين النخيل والحقول التي تغطي الآن موقع المدينة الغابرة يستلقي تمثال ضخم لرمسيس الكبير ، كان فيما مضى منتصباً أمام معبد بتاح . وهنا وهنـــاك تظهر قطعة صغيرة من حجر منحوت، او يبدو أثر اساس قديم. الاهرامات وحدها والمدافن الفسيحة الارجاء عند طرف الصحراء هي الباقية كشهود على التاريخ الطويل لمدينة عظيمة كانت آهلة فانقرضت .

لا بد ان تحتمس الثالث كان يقضي اوقاتاً طويلة في العاصمة القديمة خلال الاعداد لغزواته الآسيوية . ويعتقد بعض العلماء انه لم يكن يزور طيبة الا في منـــاسبة عيد اوبت ، اكبر الاعياد الطيبية . اما خلفاؤه ، ولا سيما الذين لم يولدوا منهم في احد القصور الملكية في ممفيس ، فمن المؤكد انهم كانوا يتلقون علومهم الأولية في ناحيتها .

ويرجح ان تعليم الامراء كان يشمل تلقينهم القراءة والكتابة ، وعلى الأقل شكليات الطقوس الدينية . غير انه في عصر الفتوحات والتوسع ، بدا ان التركيز كان ينصب بصورة رئيسية على مـا يسمى بمزايا الرجولة . وقد خلف امنحوتب الثاني ، ابن الفاتح وولي عهده ، سجلاً مشرقاً عن تعليمه في الصغر ، وذلك على لوحات حجرية وضعها في محراب اندثرت معالمه كلياً الآن كان هـــو قد شيده للإله هرماشيس في جوار أبي الهول الكبير ، لانه « يتذكر المكان الذي تمتع فيه بالسعادة والهناء في صغره » . واعتماداً على بيانه ، يبدو انه برع منذ حداثة سنه في سائر فنون إله الحرب الطيبي مونتو ، وتفوّق على جميع من عداه في رسم قوسه الكبيرة. وكان فوق ذلك ماهراً في سياسة الخيول – مما يفرح الإلهين السوريين رشف وعشتروت – حتى ان والده سلمه أمر الاسطبلات الملكية في ممفيس وهو بعـــد صبي صغير . وبلغ من مهارته وجلده ومدى طاقته في الرياضة المائية حداً أتاح له الفوز ، ولما يبلغ الثامنة عشرة بعد ، بقيادة القاعدة البحرية الرئيسية وترسانة الاسطول المصري في بيرو – نفر : وهذا اسم يعتقد الدكتور هيز انه قد يكون بمعنى «مع السلامة» .

ما ان ارتحل والده الى جوار الآلهة حتى سنحت الفرصة لامنحوتب الثاني بأن يضع جرأته وإقدامه قيد الاختبار . فقد تواطأ الامراء الصغار في الشرق وتكاتفوا لاثارة الشغب والقلاقل في سوريا بأسرها الى الشمال من الحدود الفلسطينية . فما كان

منه الا ان أخمد الانتفاضة في حملة واحدة لا غير، وعاد الى طيبة ظافراً بجثث سبعة من الزعماء المتآمرين، فعلق ست جثث منها مقلوبة الرؤوس الى أسفل على جدران معبد آمون ليراها جميع الناس، بينما أرسلت الجثة السابعة الى مدينة نبطة البعيدة عند الشلال الرابع في الجنوب لتعرض هناك كعبرة مريعة لزعماء القبائل النوبية عما يمكن ان يحدث لاولئك الذين يتحدّون سلطان الفرعون وصولته. عمل وحشي بربري، نعم، غير انه ليس منذ زمن بعيد كزمن الفراعنة، كانت رؤوس الخونة تقطع وتشهر فوق الخوازيق لتنتن في قلعة لندن. وليس ببعيد عن الذكرى كيف كانت جثث المجرمين والاشرار تترك معلقة على المشانق في «تيبورن هيل» متدلية معلنة اشأم التحذير. وبامكان آبائنا ان يرووا لنا عن ازمان كانت تجري خلالها في العالم «المتمدن» عمليات قتل وتنفيذ اعدام تقشعر لهولها الأبدان، وكأنها أعياد مرعبة. اما ما يجدر عدم ذكره من فظائع جيلنا المعاصر — فذلك ويا للأسف يكاد ان يغدو شيئاً عادياً.

ولكن يبدو ان الدرس الفظيع الذي لقّنه امنحوتب لم يكن ذا فعالية كاملة، اذ ان اخضاع الشرق استدعى قيام حملتين مصريتين اخريين عليه. وبعد ذلك لم يعد يسمع بثورات جديدة في سوريا وبلاد النوبة طوال مدة حكم امنحوتب الذي دام ستة وعشرين عاماً. واذ ذاك حلت الجزية والاتاوات والتجارة بنوع خاص محل الاسلاب والمغانم في ملء خزائن

الملك والآلهة . ولعل انتاج بلاد النوبة ، او « أرض آمون الذهبية » ، كان أهم بكثير مما كان يرد الى مصر من الولايات السورية . فتلك المنطقة كانت تزود مصر بالجنود وبالكثير من العبيـــد ، وبخشب الابنوس وسواه من الاخشاب الثمينة من الادغال الاستوائية ، وبجلود الحيوانات لصنع الشعارات والثياب الملكية والكهنوتية ، وبريش النعام لصنع المراوح الضخمة التي كانت تستخدم في المهرجانات التقليدية للآلهة والملوك . وليس هذا فقط ، بل ان بلاد النوبة كانت تزود مصر ايضاً وفوق كل هذا بالذهب . ومع ان مصر كانت تملك مصادر اخرى تمدهـا بهذا المعدن الثمين — مناجم الصحراء الشرقية التي ظلت تدر وتعطي رغم استثمارها منذ الازل — فان أغنى تلك المصادر اطلاقاً كانت الجبال الواقعة الى الشرق من بلاد النوبة . واننا لنجد اليوم في تلك البلاد الحارة الموحشة ، على سفر أيام عديدة الى الجنوب من الحدود ، بقايا قرى حقيرة بائسة محرومة من المياه كان الاسرى والمجرمون المنفيون يعيشون فيها ويموتون وهم يعملون في استخراج الذهب من أجل اغناء مصر .

كان الدخل السنوي من مناجم بلاد النوبة يبلغ ارقاماً مذهلة في عهد المملكة الجديدة . وكان الذهب المـــادة الرئيسية في الاتجار مع البلدان الاجنبية . وكان يستخدم ايضاً ، كما هي الحال في العصر الحديث ، على سبيل الاعانات — « المنح والهدايا » — تعطى للحكام الشرقيين أملاً في ان يتمكنوا من المحـــافظة على

السلام في مناطقهم او منح تأييدهم للجهة الصحيحة . وكان الذهب يسك على شكل خواتم وحلقـــات او سبائك مختلفة الاحجام والاوزان ، ويقوم الى جانب الفضة والنحاس مقـام العملة النقدية بالرغم من ان هذه المعادن كانت تدخل في عدد ضئيل محدود من الصفقات والعمليات ، اذ ظل اسلوب المقايضة بالبضائع الطريقة الوحيدة المتبعة في التبادل التجاري المعتاد . وفي حين ان بعض السلع كان يمكن ان يساوي زنة معينة من النحاس او الفضة او الذهب ، الا ان قيمتها ظلت تقـــدر على الغالب بأوزان او مكاييل من الحبوب . وفي كثير من الاحيان كانت البضائع تتبادل بشكل بساطة دونما رجوع او استناد الى أي قياس او اعتبار ، اللهم سوى الحاجة المشتركة بين الفرقاء لمثل هذه التجارة .

والى جانب ندرة الذهب وقيمته ، كان ينظر اليه ، كما هي الحال ابداً ، بعين الاعتبار والتقدير نسبة لجماله وفتنته . ولقد كان مطمعاً يُطمع فيه بسبب بريقه الخلاب الذي يضاهي بريق الشمس . وعلاوة على ذلك كله فان الذهب «خالد دائم البقاء» لا يمكن ان يعتريه صدأ او ينقب فيه سوس او يحلّ فيه فناء ، ولذلك فقد اكتسب قيمة رمزية غامضة أبعد مدى من قيمته الحقيقية . كان الجوهر اياه الذي هو جوهر الآلهة الازليين . وكان المستحقون من خدام الفرعون يتلقون احياناً من يده «ذهب الشجاعة» ، ولكن أثمن المعادن هذا كان في الغالب وقفاً

على السلالات الملكية وعلى الآلهــــة . فالملوك المعبودون كانوا يذهبون الى المثوى الاخير في نعوش من ذهب ، وكانت أقواس الآلهة ، وتماثيلها ، والممرات المؤدية الى محـــاريبها تشع ببريق الذهب ، كما كانت تتراكم الآنية والاوعية الذهبية في مستودعات المعابد . ولا تزال تظهر على الاعمدة والابواب والجدران المنقوشة بالرسوم البارزة آثار التصفيح والتغليف بالذهب الذي مزقه عنها ونهبه منذ زمن بعيد لصوص لم يرهبوا غضب الآلهة .

أنفق امنحوتب الثاني ، شأن اسلافه من قبله ، الكثير من ثروته الضخمة على بناء المعابد وتجميلها وتزيينها في مملكته . فقد اضاف الكثير من البناء والتحسين على معبد آمون الذي لم يلبث ان غدا بناء مركباً مشعباً ضخماً مذهلاً بحيث عجزت عاديات الزمن وأعمال النهب والسلب والتحطيم عن تدميره كلياً . وقد أكمل ايضاً على قدر ما امكنه ذلك ترميم قاعة تحتمس الاول التي كانت حتشبسوت قد أقامت عند نهايتها مسلتيها ، كما شيد لنفسه معبداً صغيراً الى الجهة الجنوبية من المحراب الرئيسي . وهنالك قرائن تثبت انه جمّل معبد الكرنك وأضاف تحسينات عليه ، الا ان الذي بقي من آثار أعماله هناك غير كثير ، والقليل جداً كذلك باق من الابنية الاخرى التي شيدها في مختلف انحاء مصر . اما الهيكل المدفني الذي بناه لنفسه بالقرب من الهيكل الذي يخص والده في مدينة الاموات الطيبية فلم يبق هناك أثر يميزه اكثر من الموضع الذي كان يقوم فيه ، مع ان السجلات القديمة

تؤكد انه ظل قيد الاستخدام الى ما بعد وفاته بثلاثمائة سنة . وهذه الحقيقة جديرة بالتنويه لان مثل تلك المقامات ، وان كانت في الواقع تنعم بصفة الدوام مؤبداً، فان الذكريات لم تكن لتعمر طويلاً في وادي النيل ، شأنها في أي مكان آخر حقاً . ولذلك ، غالباً مـــا كان الملوك ينسون أجدادهم فيأمرون بهدم اضرحتهم او نصبهم التذكارية وبتحويل الدخل المتأتي عن هدمها للانفـــاق في وجوه اخرى . وكان يحدث هذا على الرغم من التوصيات التي كتبت للملك مريكار قبل ان تصبح طيبة مدينة عظيمة بزمن بعيد، والتي تقول: «لا تؤذ نصباً تذكارياً لغيرك... ولا تبن ضريحك بما يكون قد تهدم من ضريح سواك !» . ومع ان هذه الوصية جرت مثـــلاً ومبدأ ينسخه طلبة الكُتّاب ويتناقلونه في دفاترهم المدرسية، غير انها كانت أمراً لا يؤبَه له.

على ان ضريح امنحوتب الثاني الذي كان يضاهي ضريح والده في الحجم والضخامة لا يزال ماثلاً للعيان في وادي الملوك . وشأن الاضرحة الملكية الاخرى ، فان جدرانه مزينة ، ولو بشيء من الخشونة ، على شكل صحائف بردى مفضوضة نقشت عليها نصوص ورسوم مأخوذة من الكتابات الجنائزية التي تصف مراحل الرحلة الليلية للإله الشمس والملك المتوفى عبر العـــالم السفلي . وكان يعتقد ان تلك الكتابات تخدم ، نوعاً ما ، كدليل الى الدنيا الآخرة يزود المسافر بآيات وعبارات سحرية تعينه على المخاطر التي يواجهها في الطريق الى النعيم .

وكان الأمر يختلف بالنسبة لاضرحة حاشية الملك . فان جدران اضرحة هؤلاء كانت تزين بمشاهد عن هذه الدنيا البهيجة، كما كانت تحمل بيانات عن الممتلكات والمسرات والامجاد التي كان اصحابها ينعمون بها في حياتهم ، او يأملون ان تكون لهم في دنيا مـــا وراء القبر المجهولة . وهنالك بين اضرحة الاشخاص البارزين في عهد امنحوتب الثاني بعض الاضرحة التي تعدّ من أجمل وأروع الاضرحة زينة وزخرفة في مدينة الاموات بطيبة. وهي تروي الكثير عن ثروة مصر المتعاظمة، وعن الترف والابهة المتزايدين في حياة القصور . وفي متاحفنا اليوم اشياء جميلة رائعة كثيرة تحدّرت الينا من المدافن التي أقيمت في عهده ، ومنها الاواني والأوعية الدقيقة الصنع من الزجاج المتعدد الألوان . ولعل هذه من أول ما عرف التاريخ من الآنية الزجاجية، وليس يبزها في القدم الا قلة ضئيلة من الأوعية والجرار المحطمة التي وجدت في ضريحي تحتمس الثالث وامنحوتب الأول .

تعطينا الكتابات والنقوش التي عثر عليها في اضرحة اتباع امنحوتب الثاني لمحة عن خلق الملك وعما كان يبديه من ثقـة وامتنان نحو اصدقاء حداثته ونحو رفاقه في السلاح . ويبدو ان احدى أروع الجنازات التي جرت في عهده كانت جنازة كنامون ، ابن مربية امنحوتب ورفيق طفولته . وكان هذا يحمل ألقاباً عديدة لعل أرفعها واكثرها مدعاة للفخر لقب «الاخ بالرضاعة لسيد القطرين » ، ولو ان لقب « ناظر الخاصة الملكية »

في ممفيس الذي حمله كناموون ايضاً كان حتماً اكثر ألقابه منفعة مادية له . وهناك مربية ملكية اخرى ارتقى زوجها ، واسمه سينيفر ، الى منصب عمدة طيبة ، كما ان أخاه المسمى امونيمويت توصل الى سدة الوزارة . وقد أجريت ايضاً لمعلمي الملك ومدربيه في حداثته جنازات ضخمة ، وكان من بين هؤلاء النبّال «ميني» الذي درّبَ الفرعون على الرماية وشد قوسه القوية .

وكما كان امنحوتب يبدو قاسياً عنيفاً مع اعدائه كان ايضاً لطيفاً دمثاً مع اصدقائه . فمثلاً ، قبيل انقضاء عهده كتب رسالة شخصية الى ضابـــط يدعى وزرساتت كان قد شاركه المصاعب والمشقات والمباهج والمسرات ابان حملته على سوريا وهو بعد فتى يافع . وقد كتب امنحوتب تلك الرسالة لصديقه الضابط اثناء مهرجان بهيج جرى أثر الاحتفال بيوبيله ، فقد انتشى من شرب الخمر وراح يستذكر الأيام الجميلة الماضية متذكراً صديقه الغائب عن الاحتفال ، فكانت هذه الرسالة التي هي في الواقع احدى المستندات غير الرسمية من اندر الرسائل التي خطتها يد ملك وآلت الينا . وقد أقدم وزرساتت ، الذي كوفيء المكافأة اللائقة بتعيينه في منصب رفيع جداً هو منصب نائب الملك في كوش ، بفخر واعتزاز على نقش رسالة الملك اليه بالحجر النافر في قلعة سمنا البعيدة في جوار الشلال الثاني . وقد أشار الملك في رسالته الى اعدائه السوريين الذين قهرهم بمنتهى الهزء والاحتقار ، فدعاهم بـ « النساء العجائز » ، كما حذر رفيقه السابق من دسائس أهل النوبة وحيلهم وسحرهم .

على الرغم من ان ضريح امنحوتب قد تعرض للنهب والسلب منذ القدم ، فقد ترك اللصوص القوس التي حفر عليهـــا اسمه والعبارة التالية : « ضارب سكان الكهوف ، قاهر أهل كوش ، مقوض مدنهم ... سور مصر المظيم ، حامي جنوده » . وتركوا ايضاً مومياءه مجردة من كنوزها ولكن لما تزل مكللة بالزهور التي كانت ندية منذ ثلاثة آلاف عام تقريباً . على ان البقايا الضئيلة المتجمدة المتقلصة لا تعطي فكرة جيدة عن قوته الجسدية الشهيرة او عن قوة الخلق والشخصية التي جعلت منه حاكماً عظيماً . وكذلك الحال بالنسبة المنحوتات والنقوش التي تمثله ، فهو يبدو فيها فتى نحيلا ذا وجه جميل ولكن فارغ التعابير .

تكاد المنحوتات الملكية في عهد المملكة الجديدة تكون بدون استثناء متسمة بطابع التمثيل الكمالي للاشياء والاشخاص ، فيما عدا منحوتات تلك الفترة القصيرة التي اتسمت بفورة «تل العمرنة الفنية » . هذا في حين ان منحوتات العهود السابقة بلغت درجة عظيمة من الكمال في الصقل ، وكانت تتمتع بجمال جامد غريب ، ولكنها لم تكن ذات شخصية ذاتية مميزة . وبما ان بعض الملامح العائلية البارزة كمثل « الأنف التحتمسي » تتكرر مرة تلو المرة في المنحوتات ، فانه لمن الصعب في الغالب معرفة الملوك التحتمسيين المتعاقبين بعضهم من البعض الآخر الا بالاعتماد على الكتابات المرفقة بالرسوم ، حتى ان رسوم حتشبسوت لا يمكن احياناً التفريق بينها وبين رسوم تحتمس الثالث . وفي عهد امنحوتب

الثاني غدت القاعدة الفنية مصحّفة مملة ، ولكن عهده شهد على كل حال تحولاً في فن تزيين الاضرحة وتحت الرسوم الخاصة مما أعطى أول دليل على الثورة الفنية المقبلة التي بلغت الذروة في حقبة تميزت بطـــابع «الواقع المنتحل» الفني وعرفت بحقبة «تل العمرنة» .

اما تحتمس الرابع ، ابن امنحوتب وخلفه ، فلم تصلنا سوى لمحات معتمة عنه . فقد كانت أمّه الزوجة الملكية الكبيرة تيا ، أخت امنحوتب لوالده ، ومات شاباً بعد ان تولى الحكم فترة قصيرة . وقد نشأ على ما يظهر في منطقة ممفيس ، وحارب فترة وجيزة في سوريا وبلاد النوبة ، وبنى هيكلا مدفناً له بالقرب من هيكلي والده وجده المدفنين ، ووضع الخطوات الأولى لبنساء ضريحه في وادي الملوك . ولكن الضريح لم يكتمل ، واسفرت الحفريات الاثرية عـــام ١٩٠٤ عن التقاط بعض الفضلات من تجهيزاته الملكية التي لم يأبه لها نهابو القبور القدامى . وتشتمل تلك الفضلات على عربة مزينة برسوم نافرة ذات طابع متحرر جداً، كما تشتمل على أقدم نماذج المنسوجات ذات الألوان الواضحة التي عثر عليها في مصر او في أي مكان آخر من العالم . ويحمل بعض هذه المنسوجات اسمي تحتمس الثالث وامنحوتب الثاني ، مما يدل على انها كانت اشياء نادرة يحتفظ بها كمتاع عـــائلي يتوارث . ورغم ان زخرفتها تحمل الطابع المصري ، الا انهـــا مستلهمة على الراجح من الشرق ، اذ هي تعكس على ما يبدو

الذوق الشرقي الفني المترف الذي كان قد أخذ يؤثر تدريجياً في فنون الزخرفة المصرية الكالحة المتقشفة نسبياً، ويبدل مقاييسها.

هناك قصة حلم تراءى لتحتمس الرابع في حداثته وعاشت زمناً طويلاً في الفولكلور، وهي منقوشة على رقعة حجرية وضعها هو بنفسه بين مخالب أبي الهول الكبير في الجيزة، وفيها يروي الملك انه فيما كان عائداً ذات يوم من الصيد في الصحراء بعربته التي تجرها خيول «أسرع من الريح»، توقف ليستريح لحظة في ظل أبي الهول. فغالبه النعاس، فغفا، فاذا بأبي الهول يتحدث اليه في الحلم.

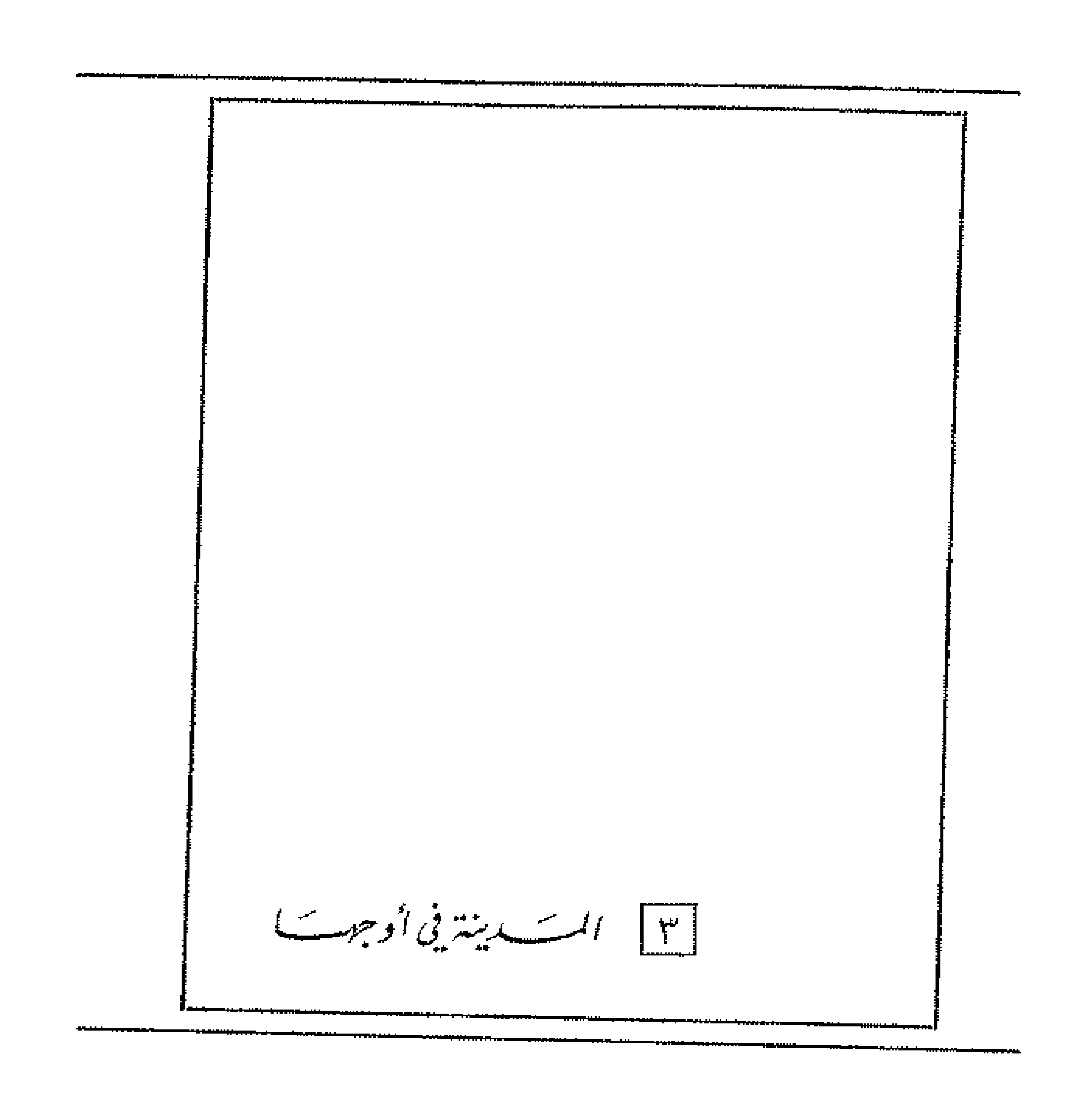
ان أبا الهول، كما نعلم اليوم، هو نصب تذكاري ملكي جعل رأسه مشابهاً للملك المعظم خفرو من السلالة الرابعة، وهيكله على شكل أسد عظيم. ولكنه بالنسبة لأهل السلالة الثامنة عشرة الذين عاشوا بعد انقضاء ألف سنة تقريباً على نحته في رأس صخرة صحراوية، كان يمثل الإله هرماشيس — «هورش عند الأفق». وعلى اساس انه إله اذن، تحدث الى الامير النائم متوسلاً اليه ان يزيل عنه الرمال المحيقة به التي تكاد تدفنه. خاطبه أبو الهول قائلاً: «انظر، ان حالتي مثل حالة الذي يعاني الآلام، وجسدي كله مفكك الاوصال». وفي مقابل هذه الخدمة، وعد هرماشيس بأن يمنح الامير تاج مصر، وحكم الارض طولاً وعرضاً، وخيرات القطرين وكل بلد اجنبي آخر.

انه وعد غريب . وعد لم يقطعه إله الدولة آمون رع ، الذي هو أبو الملوك جميعاً . ولذلك فهو يفسح المجال للشك بأن تحتمس الرابع لم يكن فعلاً في خط التسلسل الوراثي المباشر ، ويلمح علاوة على ذلك الى ان هذا الامير الشمالي التربية (كوالده من قبله) كان يتوق الى اتباع عبادة الشمس في هليوبوليس ، مما ولّد البدعة الدينية الجديدة التي أدت الى كسوف آمون رع المؤقت ، وبالتالي الى سقوط السلالة وبداية انهيار مدينة طيبة الانهيار الطويل .

لعل الحقيقة الوحيدة الاخرى ذات المغزى التي تبرز من خلال عهد تحتمس الرابع القصير ، هي اقترانه بابنة ملك الثانيين ، الذي كان تارة عدواً للبيت المالك في طيبة وتارة اخرى حليفاً متقلب الاطوار والمزاج . ولم تكن هذه أول مرة يتزوج فيها ملوك مصر من أميرات أجنبيات الاصل ، ولا كانت المرة الاخيرة . فتحتمس الثالث كان يحتفظ في حريمه بثلاث زوجات يحملن أسماء اجنبية كن على ما يعتقد بنات حكام شرقيين . وقد دفنت اولئك الزوجات الثلاث في ضريح واحد كان مخبأ في واد بعيد بالقرب من وادي الملوك ، وقد استخرجت منه كنوز تليق بمرتبتهن . ولسنا نعلم ما اذا كانت هؤلاء الاميرات قد استحضرن الى مصر كسبايا اسيرات ، أم اذا كن قد أتين نتيجة حلف دبلوماسي . ولكن الراهن ان زواج تحتمس الرابع من الاميرة المثانية كان ثمرة مفاوضات طويلة مع والدها الملك ، وانه جدّد

بداية نهج جديد يقضي بالمحافظة على السلام مع الشرق بواسطة « الطرق الدبلوماسية التقليدية » .

وقد اعتقد البعض ان تلك الاميرة التي لم يعرف اسمها لم تلبث ان اصبحت الزوجة الملكية الكبيرة لتحتمس الرابع ، وانها حملت اسم « موتمويا » المصري . ولكن مهما تكن الحال ، فان من الثابت ان موتمويا هي أم آخر ملوك السلالة الثامنة عشرة العظام ، وهو امنحوتب الثالث الذي لقب بـ « العظيم » .


٣ المدينة في أوجها



كانت طيبة التي جاء امنحوتب الثالث وريثاً لها مدينة متناقضات ، ينقصها الرونق وتشوّه معالمها قذارة ظاهرة . كان بامكانها المفاخرة بأنها تقع في احد اجمل مواقع مصر . فهناك ينفرج النيل في انسيابه نحو البحر ، بعد انحصار مسافة طويلة بين ضفاف صخرية ضيقة ، ويتسع في فسحة عريضة تتخللها الجزر . والى الغرب منها ترتفع تلال الهضبة الصحراوية المنيعة تخترقها وديان عميقة ملتوية ، ثم تنحدر في سلسلة من المصطبات المدرجة غير المتناسقة لتلتقي في منبسط من الارض المزروعة . والى الشرق منها تتوزع المرتفعات الصحراوية الصغيرة وتتراجع لتخلّف سهلاً وسيعاً حسن الري تنتشر فيه الجنائن والبساتين .

كانت المعابد والهياكل تهيمن على المكان من كلا جانبي النهر، وهي معابد أضخم واروع واكثر عدداً مما يمكن ان توحي به بقاياها اليوم . وعند سفح التلال الجنوبية كانت تمتد سلسلة من الهياكل المدفنية بناها اسلاف امنحوتب ، محاطـــة بالبساتين والحدائق ، وتخترقها اقنية وممرات مائية براقة تصل اليها من النيل . وخارج الاسوار التي كانت تحيط بهذه الهياكل كانت

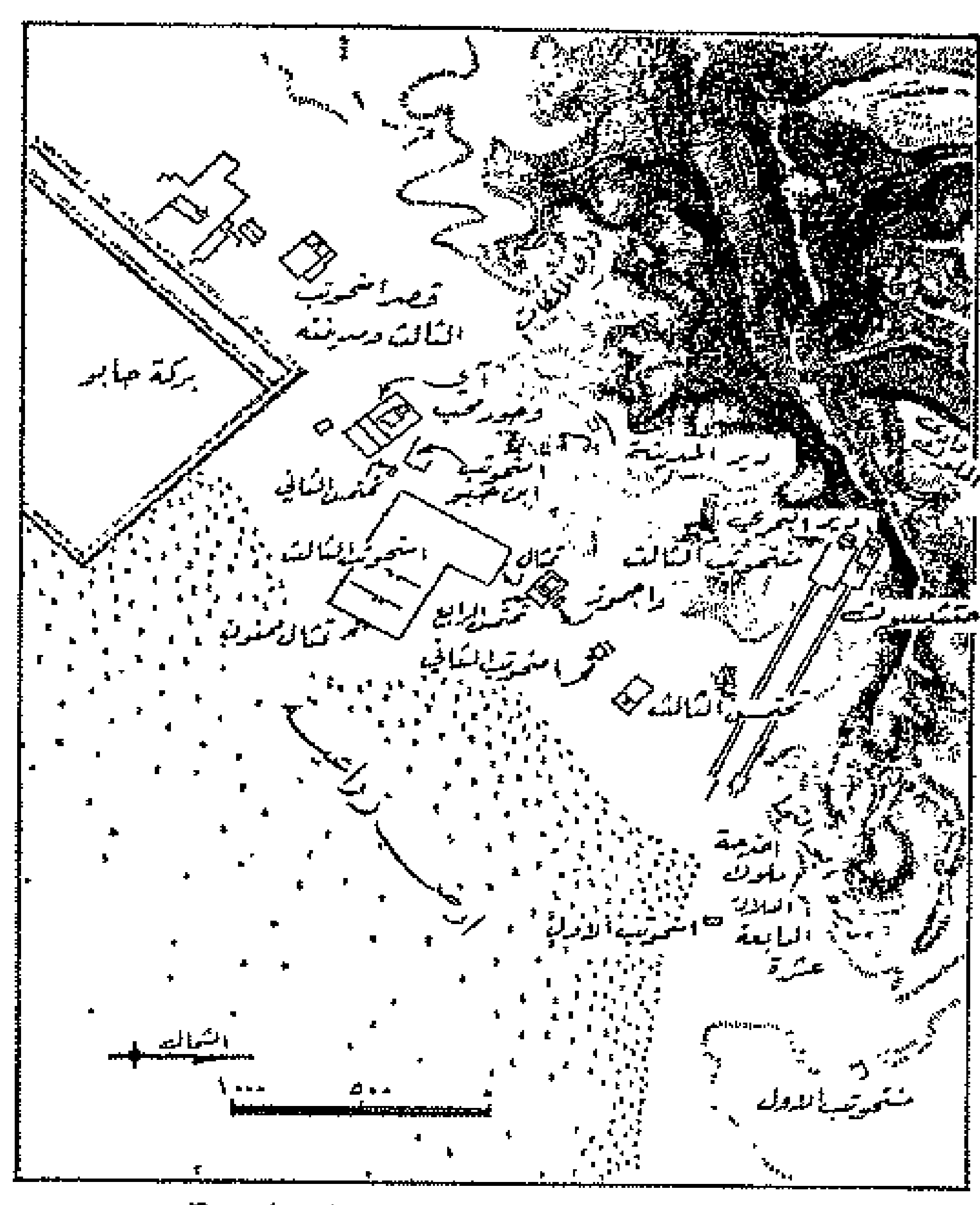
تتجمع القرى ، في حين ان التلال المرتفعة فوقها كانت تبدو كقرص الشهد بما تحتويه من الاضرحة والمدافن ذات الاروقة ، حيث كان يرقد عظماء طيبة . وعلى ضفة النهر الشرقية ، كانت تقوم المدينة بالذات ، ممتدة خلف معبد آمون ومحرابه الجنوبي القائمين عند حافة المياه .

لم يكن الوضعاء من الناس يأملون مطلقاً بالدخول الى هياكل الآلهة والملوك المؤلهين ، ولكن كان بامكانهم ان يروا خلف اسوار تلك الهياكل الابراج ذات الافرزة المطلية بألوان زاهية ، ورؤوس ساريات الاعلام تتدلى منها الرايات والبيارق مرفرفة في الجو ، وقمم المسلات الجبارة متوجة بالاشكال الهرمية المغلفة بالذهب تحاكي شعاع الشمس . وفي ايام الاعياد كان صغار القوم يستطيعون مشاهدة الاله الكبير فيما كان الكهنة بأثوابهم الطويلة البيضاء يحملونه فوق محفة في خزانته المقدسة المطعّمة بالجواهر ، سائرين به عبر الجادة العريضة التي تحف بها على الجانبين تماثيل من نوع تمثال ابي الهول ، او فيما كان يتهادى فوق صفحة النيل في زورقه الوضاء . وقد يكون بامكانهم ايضاً ، قبل ان يخرّوا الى الارض منهوكين ، ان يشاهدوا الملك الذي لا يقل جمالاً وبهاء عن الاله ، وهو يخرج من هيكل او قصر .

الى الداخل شرقاً من نهر النيل ، كانت طيبة مدينة ذات

شوارع ضيقة ملتوية تحف بها من الجانبين جدران باهتة ذات ابواب متواضعة ، واحياناً بادية الفخامة . اما النوافذ القليلة المطلة على الشارع ، فقد كانت عالية بحيث لا تقترب منها أيدي العابثين وأعين الفضوليين . وهنا وهناك يظهر باب مفتوح على صانع يعمل ، او على حديقة غنية بالظلال والازاهير العطرة — مشهد رائـــق للعيون المبهورة بوهج نهارات مصر العليا ، والمغشاة بالغبار والذباب المتشبث بها .

الغبار والذباب كانا على وفرة وغزارة هناك ، بالاضافة الى الروائح المختلفة التي كانت تطغى على شذا الزهور والبخور . كان الغبار المتصاعد عن اعمال الهدم والبناء المتواصلة ، وعن الطرقات والازقة غير المعبدة المزدحمة بالناس يملأ الجو بما يشبه الضباب الخفيف . اما الذباب ، فقد كان البلاء الذي يعذب مصر منذ زمن ما قبل موسى . حتى انه في عالم تزيين المدافن كانت الزوجة الكبيرة للملك 'تصوّر' وهي تحمل منشة ذباب لا تختلف كثيراً عـــن المنشات التي تعرض ليبتاعها السواح في قرية الكرنك هذه الايام . على ان طيبة القديمة كانت مبتلاة بحشرات وهوام لم تلمح اليها رسوم الاضرحة . فقد كان هناك الناموس والبراغيث والقمل والعقارب والافاعي الفتاكة . وكان الجراد يأتي على الحقول من حين لآخر فيعريها . وكانت الجرذان والفئران تعشعش في المخازن والمستودعات .



خريطة الضفة الغربية لطيبة

كانت رائحة طيبة أشبه بالرائحة غير الكريهة جداً التي تسيطر على أية مدينة شرقية من مدن اليوم ، فتختلط فيها رائحة الغبار الحار برائحة السماد والفحم المحروق برائحة السمك واللحم المجفف فوق السطوح ، فكأن المكان تكتنفه غمامة من بخار النشادر . ومع ان بيوت الاغنياء كانت مجهزة بالحمامات وبيوت الراحة ، فلم يكن هناك نظام صحي بالمعنى الصحيح . فالمياه القذرة كانت تصرف الى حفر تحت الارض ، والنفايات كانت تلقى هنا وهناك ، لتنقض عليها فيما بعد الطيور والكلاب والثعالب فتلتهمها ، وما يبقى منها تطهره الشمس . وكانت زرائب المواشي غالباً ما تحـــاذي الدور الانيقة التي يمتلكها الموسرون . وكانت الحيوانات تربط في الباحات الصغيرة التابعة للاكواخ الحقيرة ، او تشارك اصحابها غرفهم الضيقة المكتظة . وكانت بيوت الفقراء لا تعرف وسائل الراحة على الاطلاق .

كانت طيبة مدينة تنمو وتكبر تدريجياً باطراد وبصورة اعتباطية . ويبدو انها لم تكن محاطة بأسوار ، على عكس ما كان يعتقد هوميروس . اما اشارته المتكررة الى « بواباتها المائة » ، فقد أوحت بها البوابات الكثيرة التي كانت للمعابد (مما لم يفطن اليه ديودورس في القرن السابق لعصرنا) . وقد انتشرت المدينة وامتدت على اوسع نطاق بمحاذاة النيل ، مبتلعة مع نموها المنازل والدساكر الريفية الصغيرة ، مبقية بعضها على حاله تارة ، وملزمة بالهدم واعادة البناء تارة اخرى . وكانت لها

دورها و « فيلاتها » الانيقة المحاطة بالحدائق ، كما كانت لهـــا ابنيتها السكنية العالية المشيدة باللبن على نسق مساكن اللبن الشاهبة ذات الطبقات الثلاث او اكثر التي تقوم في بعض المدن العربية اليوم . هذا بالاضافة الى مبانيها الحكومية ومستودعاتها الحربية وقصورها ومراسي السفن الكثيرة الحركة ، والعدد القليل من الجادات الاحتفالية . ولكن الاحياء الحقيرة كانت تختلط باحيائها الفخمة . فورش الصناعة والمآوي الوضيعة كانت تجاور المباني العظيمة ، وفي الايام التي كانت تقام فيها الاسواق كنت ترى الاكشاك والاعشاش المصنوعة من سعف النخيل جاثمة بمحاذاة أسوار الهياكل والقصور .

كانت طيبة مدينة صاخبة كثيرة الضوضاء . فمراسي السفن كانت تضج بصياح العمال وحداتهم وهم يفرغون حمولة القوارب القادمة من سائر انحـــاء مصر واقاصي الامبراطورية ، ناقلة المنتوجات والبضائع والسلع الثمينة لتعبئة خزائن الآلهة والملك ، والحجارة الجميلة لبناء الهياكل ونحت التماثيل . وكانت الشوارع تردد أصداء صياح الحمالين والاولاد المكارين على الحمير . وعمال البنـــاء يرفعون الاحجار الضخمة الى اماكنها في الابنية وهم ينشدون انغاماً على ايقاع خاص . والعبيد الذين يصنعون الطوب من طين النيل يثرثرون بلغاتهم الاجنبية ويترنمون بأغانيهم الغريبة وهم يعملون . وفوق كل هذا ، كانت ترتفع أوامر المناظرين المتقطعة ممزوجة بقرع السياط . وفي الشوارع الضيقة يتعالى

الطنين والرنين من آلات الصناع المنهمكين في اعمالهم ليمتزج بأصوات النساء الحادة وصراخ الاطفال العراة وعويلهم. هكذا، من الفجر الى الغسق، لم يكن يهدأ الضجيج او تنقطع الاصوات، الا بعد غياب الشمس. وقليلون هم الذين كانوا يبقون خارجاً اثناء الليل الذي لم يكن ليعكر سكونه سوى نباح الكلاب وعواء الثعالب، واحياناً نهيق حمار. وقد يحدث في الامسيات المقمرة ان تتصاعد من النيل انغام قديمة ساحرة، كما هي الحال احياناً في هذه الايام، مترددة من زورق الى زورق على وتيرة واحدة لا تتغير، يصاحبها نقر الطبول في نبرات متأخرة. هذا على الاقل ما يمكن تخيله.

الواقع، اننا لا نعلم الا القليل عن المدينة في اوجها. فان مداها الحقيقي واوصاف الارض التي كانت تشغلها ومظهرها التكويني، كل هذا قد ضاع الآن واندثر. وفيما عدا الآثار الباقية من المعابد التي بنيت من الحجر القوي الاحتمال، لم يتبق شيء يذكر من المدينة التي كانت عاصمة الدنيـــا في وقت من الاوقات. ذلك ان الاكواخ الحقيرة والقصور المنيفة على السواء كانت مبنية من طوب الطين المجفف بالشمس، وقد اختفت معالمها جميعاً منذ زمن بعيد. ونادراً جداً ما استطاع علماء الآثار المنقبون العثور على بعض الاساسات غير الواضحة للمساكن القديمة، فاعتمدوا عليها لتخمين ماهية الابنية التي كانت قائمة فوقها. ويمكننا بالاستناد الى اكتشافاتهم وحدها في ضواحي طيبة وغيرها

من الامكنة في مصر ، والى السجلات المكتوبة الباقية ، وهي في الغالب ناقصة غير واضحة محيرة ، والى الرسوم والمشاهد المنقوشة على جدران الاضرحة ، والى المجانسات والمشابهات المصرية في الشرق البطيء التطور ، يمكننا ، بالاستناد الى هذه الاشياء وجمعها ، وضـــع صورة عن طيبة واهلها ونسق حياتهم . ومع ذلك فاننا نجد بين ايدينا لغزاً ضخماً يحير الالباب .

ربما لم يكن في مجتمع مصر الزراعي ، قبل عهد السلالة الثامنة عشرة ، سوى عدد قليل من المراكز التي تصح تسميتها مدناً بالمعنى الكامل . وانه لمن الصعب المقارنة على وجه التحديد بين المدن التي نشأت نتيجة للرخاء الذي عرفته الامبراطورية المصرية آنذاك ، وبين المعنى الحديث لكلمة مدينة . فان معظم تلك المدن مدفونة تحت طبقات كثيرة متعاقبة من المساكن ، ولم يبق منها الا أسماؤها المحرفة تحريفاً غريباً في بعض الاحيان، ونقل الكثير منها الى مواضع اخرى قطعاً قطعاً ، فاستخدم البناءون جيلاً بعد جيل احجار معابدها في مبانيهم المتعاقبة . واستغل الفلاحون جيلاً بعد جيل مسحوق طوب بيوتها الطيني ونفاياتها كسماد مخصب في زراعتهم . ذلك انه ليس هناك سماد زراعي مخصب اجود وأرخص من الرواسب القديمـــة الغنية بأزوت النيتروجين. وليس ثمة سوى مدينة عظيمة واحدة بقيت منها آثار واضحة لم تطمسها الاستيطانات المتوالية ، وهي المدينة

المعروفة اليوم باسم تل العمرنة ، وقد أسسها عاصمة لملكه اخناتون ابن امنحوتب الثالث وخلفه ، على مسافة مئتين وخمسين ميلاً تقريباً الى الشمال من طيبة . هذه المدينة التي تكاد تكون قد بنيت بين ليلة وضحاها ، ثم هجرت تماماً قبل ان تكمل ربع قرن من العمر ، لا يمكن اعتبارها نموذجاً للمراكز التدريجية النمو مثل طيبة ، ولكنها رغم ذلك تتمتع بالكثير من الصفات التي كانت للمدينة في أوجها .

وتدين تل العمرنة ببقائها على الحال التي هي عليها الى بعدها وانعزالها ، مع العلم انها قد تهدمت جزئياً بالنظر لقدمها ، كما تعرضت لثلاثة آلاف سنة من التقلبات الجوية واعمال النهب . فان الموقع الذي اختاره اخناتون لعاصمته كان موقعاً موحشاً موغلاً في القفر ، فهو خليج في الصحراء الشرقية تحيط بـــه المرتفعات الصخرية بصورة شبه دائرية منحنية عند طرفيها الشمالي والجنوبي ومتقوسة لتلتقي بضفة النيل . وقد كان لتل العمرنة في محاذاة النهر قطعة مستطيلة وضيقة جداً من الارض الزراعية ، ولكن الصحراء كانت تتقهقر على الضفة المقابلة لتخلف سهلاً مروياً فسيحاً يوفر للمدينة حاجتها من المنتوجات الزراعية . فوق ذلك الخليج الصحراوي المجدب اذن ، أنشئت العاصمة التي سميت اختـــاتون ، اي « أفق أتون » بطريقة يصح القول انها كانت تفتقر افتقاراً عظيماً الى التخطيط المنظم .

كان بمحاذاة مجرى النهر جادة عريضة تمتد مسافة ثمانية اميال تقريباً أطلق عليها علماء الآثار اسم «الطريق الملكية». والى الداخل منها في خط متواز معها نوعاً ما، كانت هنالك طريقان اخريان تخترقان المدينة ولكنها أضيق من الجادة الاولى. وكانت تتقاطع مع هذه الشرايين الرئيسية الثلاثة، على مسافات غير منتظمة، شوارع وازقة صغيرة، تنتهي في الغالب الى تشعبات غير نافذة لا سبيل الى الخروج منها. وعلى جوانب هذه الطرقات قامت المدينة وانتشرت بشكل اعتباطي وكيفما اتفقت الحال. الا ان القسم الاوسط من المدينة وحده كان يبدو عليه بعض التنسيق، وكأنه شيد بشيء من بعد النظر. وفي هذا القسم كان يقوم المعبد الكبير والقصور الملكية. هنا، كانت الطريق الملكية تتسع وتزداد انفراجاً حتى يبلغ عرضها زهاء مئتين وخمسين ياردة. والى الغرب منها كان يقوم القصر الرسمي حيث كان الملك يعقد مجالسه، وكان هذا القصر يتصل بقصر السكن الملكي، على الجهة المقابلة من الطريق، بواسطة جسر مسقوف تتوسطه غرفة صغيرة ذات شرفة، هي «نافذة الظهور» التي كان الفرعون يطل منها من وقت لآخر على شعبه الامين ليكافئه بهدايا الذهب، ويتلقى بالمقابل التملق والمداهنة من الجماهير. والى جوار السور المحيط بقصر السكن، وهو أضخم الابنية الدنيوية الاثرية على الاطلاق، حيث كانت شقق الملك السكنية ومصلاه الخاص، وملحقاتها الكثيرة وحديقتها الشاسعة، كان يقوم معبد أتون الكبير بحرابه الذي يغمره

ضياء الشمس ، على النقيض من قدس الاقداس المظلم المعتم حيث كان يقيم آمون ، وعلى تشابه كبير مع هياكل الشمس المعروفة في الشمال . وقد يكون ذلك المعبد أضخم ما بني من المعابد اطلاقاً خلال حكم ملك واحد . فقد بلغ طول الواجهة الامامية لجدرانه ألف قدم ، في حين انها امتدت مسافة ألفين وخمسمئة قدم الى الخلف في الصحراء . وقـــد تم بناؤه قبيل نهاية حكم اخناتون القصير الذي لم يدم اكثر من سبعة عشر عاماً. ولذلك شيدت الاحرام ضمن نطاقه على عجل وبطوب الطين .

خلف هذه المجموعة المتشابكة من المباني الملكية والمقدسة، انتثرت المبـاني العامة بصورة اعتباطية – دور المحفوظات والمستندات ، والمكاتب الادارية ، وبيوت موظفي الحكومة ومأموري المعابد ـ تتاخمها الى الجهة الشرقية الثكنات العسكرية وصفوف طويلة من الاصطبلات ومرابط الخيل . وبعد هذا ، كانت تنبسط الصحراء خالية خاوية الا من بعض المقامات والمذابح المقدسة المتفرقة ، ومن قرية معزولة في تجويف لا يشاهد من المدينة ، تقوم عليها حراسة دقيقة ، ويعيش فيها العمال الذين كانوا يشتغلون في بناء الاضرحة وتزيينها في المرتفعات الصخرية القاحلة .

على طول الطريق الملكية، وهنا وهناك في الشوارع المتفرعة عنها ، كانت تنتثر الدور الانيقة والفيلات . وهذه البيوت التي كانت مبنية على أرض مبسطة لا عوائـــق فيها ، كانت على

الراجح اكبر وذات مجال ارحب من الدور التي بنيت في طيبة ، ولكنها كانت تتّبع نفس النمـــط الذي كان متبعاً في هذه الاخيرة ، كما يستدل من نقوش الاضرحة ورسومها وغيرها من الدلائل . فهي تكاد تكون مربعة ، وتتألف عادة من طبقة واحدة . وكان بعضها يحتوي على ثلاثين او اربعين غرفة . وكانت تتوسطها قاعة رئيسية تزينها الاعمدة ، وترتفع عما حولها من الغرف لتوفير الاضاءة الحسنة ، وتجاورها من جهة واحدة غرفة انتظار فسيحة وفيرة الاثاث . وعلى الجهات الثلاث الاخرى كانت تتوزع قاعات اصغر ، وغرف للضيوف ، واخرى لنساء العائلة ، ثم جناح مستقل يتألف من غرفة نوم وحمام ومرحاض ، مخصص لسيد البيت . وفوق السطح ، كان يقوم صيوان موجه صوب الشمال ليستقبل النسائم الشمالية المنعشة ، ويقود اليه درج خـــاص . وكانت الغرف تطرش بالجير الابيض وتزين بأفاريز مزهرة زاهية بهيجة . ولعل الاعمدة الملونة ، والاثاث الانيق من المقاعد والدواوين الموسدة ، والابسطة المصنوعـــة من القش والاعشاب ذات الالوان المنيرة ، كانت تضفي على الدور رونقاً وترفاً يبعثان الانشراح .

كان لكل منزل سوره الذي يحتويه ، ويحتوي كذلك ضمن نطاقه مطبخاً ومساكن للخدم واصطبلات وغرف مؤونـــة ومخازن حبوب ضخمة تعلوها القباب . اما في طيبة ، وكانت اكثر ازدحاماً بالسكان ، فان مثل مخازن الحبوب تلك ، وحتى

أفران الخبز ، كانت تبنى احياناً فوق سطوح المنازل . وفي تل العمرنة ، كان لكل بيت حديقته الخاصة التي غالباً ما كان يتوسطها بحرة ماء ومعبد صغير ، ذلك ان الحديقة كانت ملحقاً ضرورياً لأي منزل مصري فخم ، او لأي قصر او معبد . فان بعض الرسوم المنقوشة على جدران الاضرحة الطيبية والتي تمثل الحدائق ، تبين نماذج عن جميع الاشجار التي كانت تزرع في مصر تقريباً ، كما ان رسوم البحرات كانت تعج بالاسماك وتحوطها ازهار « اللوتس » وعرائس النيل . على ان التربة الصخرية القلوية كانت تجابه الجنائني بمشاكل خاصة . فقد كان من الواجب غرس الاشجار والازهار في حفرات تملأ بأتربة خصبة تنقل اليها من ضفاف النهر ، كما كان من الواجب حفر آبار عميقة جداً تصل الى الطبقات الارضية السفلى حيث توجد المياه لاستخراجها وارواء الحدائق واصحابها .

لم يكن في اخناتون منازل عالية مرتفعة كالتي عرف انها شيدت في طيبة الاكثر سكاناً . ولكنها فيما عدا ذلك ، كانت تشابه العاصمة القديمة من حيث الافتقار الى التنظيم المدني والتخطيط المدروس ، ولو ان هذا الافتقار كان اكثر وضوحاً في طيبة . فالمساكن الفخمة كانت تتعاقب مع البيوت المتواضعة والورش الصناعية ، كما كانت الاحياء الحقيرة تندرج بين الاحياء ذات المنازل البورجوازية المنيفة ، ولا سيما في القطاع الشمالي من المدينة . ولم تكن هنالك مجارير او اقنية لتصريف المياه والنفايات

والاقذار ، وكانت اكوام النفايات تملأ الباحات والامكنة المفتوحة حتى عند جدران القصور . بل أن الطريق الملكية [illegible]

تترك الصحراء الا آثاراً هيكلية تنبىء عن عظمتها التي ظهرت بسرعة عجيبة . ولكن هذه العاصمة القصيرة العمر كانت في ايامها كثيرة الحركة والضوضاء والضجيج كطيبة تماماً . ولا بد انها كانت كذلك غارقة في الصخب والغبار الناتجين عن حركة البناء التي لم تهدأ ولم تتوقف حتى آخر لحظة من عمر المدينة . والنيل الذي كان يمر بها لا بد ان يكون قد شهد رواح وغدوّ الكثير من المراكب المحملة بالبضائع ومواد البناء . وبعض تلك

الملوك المتعاقبين بعد فاصل العهد العمرني ظلوا يصبون الثروات على المدينة لتنفق على تحسين معابدها القديمة وبناء المعابد الجديدة، فان ما بنوه لم يعدل ابداً ما بناه ملوك السلالة الثامنة عشرة من حيث الذوق والجمال. ولعل امنحوتب الثالث كان اعظم بناة تلك السلالة على الاطلاق.

رغم ان الكثير من منجزات امنحوتب الثالث العمرانية قد اندثرت معالمها، فان معبد الاقصر الجميل، او حريم آمون الجنوبي، ما يزال قائماً كدليل على مآثره. ولكنه عانى كثيراً من المحن والصروف. فقد أقامت فيه حامية عسكرية رومانية في وقت من الاوقات، مخلفة وراءها بقايا ثكنات بنيت من طوب الطين لتدفن فيما بعد تحت الانقاض المتراكمة بالتدريج. وفي وقت لاحق استخدم قسم منه ككنيسة مسيحية. ومع دخول العرب الى مصر، أعطى ذلك المعبد اسم الاقصر، وهو تحريف الكلمة « القصور » او « القلاع »، الى البلدة الحديثة التي نشأت عنده وحواليه. وخلال جيل او جيلين من عصرنا نحن، غدت منازل سكان الاقصر تبدو معلقة تحت سجف أعمدته وحلياتها وكأنها أعشاش العصافير. وما يزال هناك جامع قديم قابع فوق كومة من الحطام في احدى زوايا المعبد — جامع يقوم وليّه المسلم كل سنة بجولة عبر الشوارع في زورق، معيداً الى الذاكرة رحلات آمون المماثلة في مركبه الرائع يحمله على الاكتاف كهنة ديانة طواها النسيان. والآن، وقد نفضت عنه

أتربة العصور ورواسبها ، فان ذلك المعبد الضخم يُبيّن بوضوح ، رغم انه بدون سقف في حالته الراهنة ، ما كانت عليه هياكل السلالة الثامنة عشرة من فخامة وعظمة .

صُمّم المعبد وبني في الاصـــل كقصر له مجالسه وباحاته وقاعاته ذات العمد التي تؤدي الى شقق خاصة كان الإله يأخذ فيها متعته وينعم بمباهج الحياة ومسراتها . كان اذن بيت الإله بالمعنى الحرفي الدقيق للعبارة . وفي احدى غرفه الداخلية ، وصف امنحوتب الثالث بالنقوش والرسوم حـــدثَ مولده العجائبي على انه كان ابناً للإله آمون رع ، تماماً كما كانت حتشبسوت من قبله قد سجلت عجيبةً مماثلة على جدران معبدها في دير البحري . وكانت الاعمدة التي تتوسط معبد الاقصر اطول وأضخم من اية اعمدة اخرى شيدت في عهود الحكام السابقين ، وهذا شيء متوقع طبعاً من ملك عظيم كأمنحوتب . ولكن تلك الاعمدة، رغم ارتفاعها الى علو اثنين وخمسين قدماً، كانت متباعدة بعضها عن البعض الآخر ومتناسقة بحيث ان ضخامتها عادت غير ثقيلة او مزعجة .

وحرصاً منه على توفير الراحة للإله ، انشأ امنحوتب جادةً عريضة تصل بين معبد الكرنك ومعبد الاقصر . وكانت تحف بهذا الممر الذي بلغ طوله ميلاً كاملاً ، صفوفٌ من تماثيـــل الاكباش الرابضة على انها تجسيد لآمون ، وكان بين القائمتين الاماميتين لكل كبش منها تمثال مصغر للملك . وما تزال بعض

تلك الاكباش قائمة في مكانها حتى اليوم يتسلقها ويقفز عليها اطفال قرية الكرنك العابثون . وكان هناك ايضاً طريق فرعية تزدان من على الجانبين بتماثيل ابي الهول ، وتؤدي من الجادة الاحتفالية الرئيسية الى المعبد الذي بناه الفرعون الإلهة «موت»، زوجة آمون . وانك لتجد بين اطلال معبد موت اليوم بعضاً من تماثيل « سخمت » ذات الرأس الاسدي ، وهي اكبر من الحجم الطبيعي ، وقد عثر على العشرات منها ، وكان الفرعون قد زين بها المعبد . ذلك انه نتيجة لما كانت تطمح اليه طيبة من جعل آمون « السيد الإله للعالم أجمع ، وبداية كل شيء حي » وزعيم جميع الآلهة ، فقد غدت سخمت ، وهي زوجة الإله الممفيسي بتاح ، تُقرَن بموت . وقد بلغ من كثرة تلك التماثيل المنحوتة من الحجر الناري الاسود انه ليس في العالم الغربي متحف ذو شأن لا يملك واحداً ، او قطعة من واحد منها .

وفي بلاد النوبة البعيدة بنى امنحوتب اروع معبد عرفته تلك الارض الخاضعة لمصر ، وذلك في مدينة صُلب شمالي الشلال الثالث . وما يزال هذا المعبد يهز المشاعر وهو انقاض واطلال ، وقد كان فيما مضى يضاهي معبد الاقصر روعة وجمالاً ، ولعل كلا المعبدين من تصميم مهندس واحد . وكان لمعبد صُلب ايضاً جادته المزينة بتماثيل الاكباش ، كما انه كان يحتوي على تمثال بديع للملك في شكل اسد منحوت من حجر الغرانيت ، وهو موجود الآن في المتحف البريطاني . وفي صلب ، كما في ممفيس ،

شيد امنحوتب لنفسه والإله بتاح حرماً مقدساً ، ومن ثم كرس عبادة « شخصه الحي » ، كما أقام ايضاً هيكلا بالقرب من صلب لعبادة زوجته الملكة .

ولكن الملك لم يهمل طبعاً معبد آمون في الكرنك . فقد بنى له البوابة — البرج الكبيرة بعد ان هدّم لأجل ذلك المصلّى الجميل الذي كان لسينوسريت الاول . وعلى مقدمة البوابة ، كان يظهر « الروح المقـدس في شكـل كبش ، مرصعاً بأحجار اللازورد الاصليـــة ، ومشغولاً بالذهب والاحجار الكريمة المديدة » . وعلى مؤخر البوابة سجل بيان بالهدايا الوفيرة الفاخرة التي قدمها الفرعون لأبيه ، الإله . وعند المدخل الشمالي لصحن المعبد ، شيد امنحوتب هيكلا صغيراً لآمون ، كان على حد قول الملك نفسه في وصفه « شيئاً مذهلا . . . مشبعاً بالذهب ، لا حصر ولا عد لما فيه من احجار اللازورد والملخيت ، ومكاناً لاستراحة سيد الآلهة صنع على شكل عرشه الذي في السماء » ، وقد أقيم ضمن « اطار جعل ليشع ويضيء بجميع الازاهير » . وهناك ايضاً جعران حجري هائل الحجم كان امنحوتب قد رفعه تكريماً لإله الشمس « اتمخبر رع » ، وهو ما يزال قائماً فوق قاعدته المرتفعة والمطلة على بحيرة الكرنك المقدسة . وعلى بعد من هذا الجعران ، عند بداية الطريق الموصل بين الكرنك ومعبد موت ، شيّد الملك نصبين ضخمين يمثلان شخصه بالذات . وقد سجل المهندس الملكي ، امنحوتب ابن حبو ، على قاعدة احد

التمثالين العبارة التالية : « لقد أقمت التمثال في هذا المعبد العظيم لكي يتسنى له البقاء ما بقيت السماء . وانتم ، يا من ستأتون فيما بعد ، شهودي » . ولكن ، ويا للأسف ، لم يبق ظاهراً لنا نحن الذين نأتي فيما بعد الا القدم والرسغ من احد التمثالين فقط ، مع الاشارة الى ان تلك الكسرة الضئيلة تبلغ من الارتفاع بحيث تحاذي خصر الرجل .

على ان شيئاً اكثر من هذا ما زال باقياً من أثرين جبارين آخرين من منحوتات الملك ، هما التمثالان الهائلان المعروفان باسم « ممنون » ، وكانا منتصبين امام هيكله المدفني على الضفة الغربية للنيل . اما الهيكل ، وهو كبير ويفوق كل ما سبقه من امثاله فخامة وجمالاً ، فقد اختفت معالمه ولم يبق منه اثر يذكر . واما التمثالان الجباران فانهما ما برحا قائمين ، يرتفعان فوق الحقول الخضراء الزراعية الحديثة ، ويزدادان عظمة بالنظر لانفرادهما وعزلتهما . وهما مصنوعان من حجر الصوان البلوري ، وكانا في الماضي يرتفعان الى علو سبعين قدماً ، ولكنهما ينقصان الآن عن ذلك بسبب انهيار تاجيهما عن رأسيهما . ويبلغ طول اصابعهما الوسطى اربعة اقدام ونصف القدم . وقد اقتلعت الحجارة لصنعهما من « الجبل الاحمر » بالقرب من ممفيس ، وجرى نحتهما تحت اشراف المهندس امنحوتب ابن حبو نفسه الذي اشرف على صنع تماثيل الكرنك الضخمة وسواها من اعمال الملك ، ومن بينها على الارجح معبد الاقصر بالذات . وبالرغم من أن

هذا المهندس المعماري الذي ادعى بأنه « العينان للملك مصر السفلى ، والاذنان للملك مصر العليا » لم يبلغ أياً من الوظائف العليا في البلاد ، الا انه تمتع بحظوة بالغة لدى الفرعون ، حتى أن نعمة فريدة اسبغت عليه ، وذلك بأن يكون له هيكل مدفني خاص على مقربة من هيكل سيده المدفني مكافأة له على خدماته الطيبة . ولعل من السخرية أن هذا المعماري ، سَمِيّ الملك امنحوتب ، بات معتبراً كحكيم ، ومعبوداً كنصف إله إبان الدور الاغريقي — الروماني ، اذ لم يعد هناك الا القلائل من الناس يذكرون ايا هو الشخص الذي كان يرمز اليه التمثالان العظيمان . فقد حسبهما الاغريق والرومان تمثالين للبطل الاغريقي ممنون الذي سقط شهيداً في حرب طروادة .

على بعد غير كثير من هيكله المدفني في غرب المدينة ، بنى امنحوتب الثالث قصره السكني الرئيسي . وليس يعرف لماذا اختار موقعاً لقصره ذاك في مدينة الاموات . فلم يعثر على اية آثار لقصور ملوك سابقين في ذلك المكان. ولكن هناك ما يبعث على الاعتقاد بأن بعض الحكام السابقين كان لهم على الضفة الغربية ما يعادل « الاستراحة » او « محط الرجل » ، على شاكلة البناء الذي كان لرمسيس الثالث في مدينة حابو والذي ما زال قائماً حتى اليوم ، وهو لا يعدو كونه منزل استراحة فخماً كان الفرعون يلجأ اليه مع حاشيته عند حضوره الاحتفال بالاعياد في مدينة الاموات. وكان لامنحوتب الثالث قصور اخرى ، واحد

منها في ممفيس ، وواحد عند مدخل الفيوم ، وربما واحد في طيبـــة الشرقية ، كما كان له حتماً مساكن اصغر في امكنة اخرى، ولكن القصر الذي على الضفة الغربية كان المركز الذي يحكم منه . وقد يكون انه اختار ذلك الموقع لسبب بسيط : لمجرد انه يعطي مجالاً أرحب للبناء الفخم . ومع ان احد علماء العصر الحديث اعتقد انه كان يبغي ملاذاً بعيداً عن آمون وكهنوته، فانه لمن العسير اعتبار ذلك الموقع بعيداً حتى بالنسبة لايام السفر البطيء تلك . ثم ان الملك ، بالرغم من انه كان يؤدي الاحترام للاله الطالع اتون ، لم يكن على خلاف او خصام مع اله سلالته ، ولا مع كهان الكرنك الذين كانوا مخلوقاته .

قد يكون ممكناً انه في وقت حكم امنحوتب الثالث، كانت مدينة الاموات قد اصبحت مركز الثقل والموطن الآهل بالسكان اكثر من طيبة التي تجمعت وتكثفت حول معابد الكرنك والاقصر . وفي حين اننا لا نعلم شيئاً عن كيفية توزع السكان في المدينة المترامية ، فان بالامكان القول بأن الضفة الغربية كانت مكاناً كثير الحركة والنشاط ، يعج بالموظفين الرسميين والخدم والعبيد المكرسين للعمل في هياكل الملوك الراحلين ، وبمئات العمال والصناع المنهمكين في خدمة الاموات . وكان هناك البناءون المشتغلون في تشييد وتزيين المعابد الملكية والاضرحة الخاصة الاكثر روعة ، كما كان هناك النحاتون الذين «يولـّدون» التماثيل للآلهة والملوك والاعيان ، وصانعو التوابيت الحجرية ،

والحنطون ، والكتبة الملحقون بكل دائرة من دوائر العمل والموجودون في كل مكان — كل هؤلاء وعائلاتهم كانوا يعيشون في دساكر صغيرة متفرقة في انحاء مدينة الاموات ، بالاضافة للجزارين والخبازين والحياكين الذين كانوا يزودون الاحياء والاموات على السواء باحتياجاتهم . وكانت هناك قرى خاصة للفلاحين عند اطراف الحقول، وقرى خاصة ايضاً اسكن رجال قوة الشرطة. ويظن ان الوزير جعل مكتبه على الضفة الشرقية، وان كبار الموظفين الآخرين وجدوا انه من الانسب ولا ريب الاقامة بالقرب من المقر الملكي ، عدا عن اولئك الاقربين للملك الذين خصصت لهم بيوت داخل صحن قصره .

استغرق بناء ذلك القصر وقتاً طويلاً من الزمن . فقـــد انقضى زهاء ثلاثة أرباع مدة حكم الفرعون التي دامت ثمانية وثلاثين عاماً قبل ان يتم تشييده ، وعندما ارتحل امنحوتب الى مثواه الابدي الاخير ، كان القصر قد امتد فوق مساحة تزيد على ثمانين فداناً . وقد ظلت اطلاله موضعاً لاهتمام علماء الآثار وابحاثهم ، وعرضة لاعمال التنقيب والحفريات الاعتباطية طوال الشطر الاكبر من قرن كامل ، كما ظلت طوال مدة مماثلة او اكثر تحت متناول ايدي القرويين المحليين الذين اطلقوا على الموقع تسمية « الملقطة » — اي « المكان الذي تلتقط فيه الاشياء » . ورغم ذلك فقد بقي من آثاره ما كان كافياً لان تتمكن مؤسسة امريكية ، هي « المتحف المركزي للفن » ، من

القيام بحفريات علمية ادت الى الكشف عن المخطط العام للقصر ، وعن شيء من تاريخه وتفاصيل كثيرة عن كيفية بنائه وزخرفته .

كان في الواقع مدينة مصغرة اكثر منه قصراً . فقد كان يضم داخل اسواره ، على الاقل ، اربعة مبان فسيحة الارجاء ، ذات طبقة واحدة ، مخصصة للملك وزوجتيه الرئيسيتين وربما لولي عهده ايضاً . ومع ان القصر كان يسمى « سناء اتون » (وفيما بعد « بيت الافراح ») فقد كان بين جنباته معبد مكرس لآمون رع وكانت دائرته تشتمل على ابنية للادارة العامة ، وعلى دور فخمة لكبار اصحاب المراكز الرفيعة في القصر ، وبيوت اصغر للرسميين الاقل شأناً ، وعلى مساكن للخدم ، ومطابخ ، ومستودعات للمؤن ، وورش صناعية ، ومجموعات مزدحمة من المنازل المتواضعة للعمال والصناع المنهمكين في اشغال البناء والترميم ، وكلها مبنية بطريقة اعتباطية وكيفما اتفقت الحال ، حول الابنية الرئيسية وباحاتها الفسيحة . وكان هناك ممر خصوصي يصل منطقة القصر بالهيكل المدفني الملكي على بعد ميل منها ، كما كان هناك قناة تؤدي من بحيرة اصطناعية جعلت كميناء للقصر ، الى مجرى النيل الرئيسي .

كانت تلك الكتلة من الابنيــــة مشيدة من الطوب المجفف بالشمس ، وجدرانها ملبّسة من الداخل والخارج بالطين المطلي بالجير . اما الحجر فلم يستعمل الا لماماً ، حتى في بناء المعبد . ولكن ابنية السكن لم يكن فيها حجر مطلقاً الا في مواضع

قواعد الاعمدة الخشبية ، وعتبات الابواب احياناً ، وارض الحمامات . ولكن بالرغم من ان طريقة البناء كانت زرية حقيرة ، فان المنظر العام ، اجمالاً ، كان متألقاً باهراً . فالقصر المشمس المعقد الذي كان يعيش الملك نفسه فيه كانت له قاعتان كبيرتان للاستقبالات الرسمية ، واحدة منهما بلغ طولها مائة قدم ، وعدد من القاعات الصغيرة الاخرى للاستقبالات الخاصة . اما جناح شقق الملك الخصوصية ، فكان يقع عبر قاعة فسيحة تتخللها الاعمدة ، في طرفها غرفة عرش تؤدي الى غرفة الملابس الملكية ، فغرفة المنامة ، فالحمام ، وعلى طول الجانبين مخادع أنيقة مريحة لسيدات الحريم الرئيسيات .

جميع هذه القاعات والغرف كانت مطلية بالجير ومزينة بالألوان الزاهية . وكانت منصة العرش والدرجات المؤدية اليه ، وهي ترمز الى ما تحت قدمي الفرعون ، مزدانة برسوم تمثل أسرى آسيويين ونوبيين يرتدون ملابس غريبة زاهية ويرسفون بالقيود والاغلال . وفوق المنصة كانت خيمة العرش المثلثة المتقنة الصنع تشع بأفرزة من الخزف الملون والذهب ، منقوشة برؤوس افاعي الكوبرا الملكية وسواها من الشمائر . وحول غرفة منامة الملك كانت الجدران محلاة برسوم راقصة تمثل « بيس » ، ذلك الإله القبيح ولكن الانيس المرح الذي يرعى البيوت والعيال ، وهـــو ذو رأس أسد وجسد قزم مقوس الرجلين ، وكان الجميع كباراً وصغاراً يعبدونه على انه الشفيع

الحارس لغرفة النوم ، والملابس ، ومستحضرات التجميل ، والموسيقى ، والرقص ولكل المباهج والمسرات العائلية الحميمة .
اما زخارف قاعة الاستقبال الكبرى ، فكانت تعكس حب المصريين للطبيعة ، وهو شيء اتضح جلياً اكثر من أي وقت مضى في عهد امنحوتب وعهد ابنه . فان ارض القاعة كانت مدهونة بألوان ورسوم تبدو لك وكأنها بحيرة يحيط بها القش والاعشاب وتقطنها الاسماك والطيور المائية ، في حين ان السقف كان مطلياً بلون أزرق سماوي ، ورسوم العصافير تتطاير عبره حتى لتتمثله الفضاء الطبيعي . وكان سقف غرفة اخرى مزيناً بحيث يمثل عرائش العنب ، بينما رسم على جدران غرفة ثالثة مشهد صحراوي تعددت فيـــه الحيوانات الشاردة بين نباتات وحشائش قليلة الكثافة . وكانت اطارات الابواب والنوافذ داخل القصر وخارجه تزداد رونقاً وتألقاً بزخارف خزفية تمثل عناقيد العنب الارجوانية اللون ، وازهار اللوتس والاقحوان ، والطيور والاسماك ، والشعائر والتعاويذ التي تنطوي على معاني الحياة الطويلة والصحة والقـــوة . هذا بالاضافة الى اسم عرش الملـــك ، نبمعتر رع ، أي « رب الحق هو رع » الذي تردد مراراً وتكراراً في كل مكان مكتوباً بأحرف من ذهب .

على ان بعض تلك الزخارف صُنِع بلا مبالاة وبدون اعتناء ، ولا بد ان معظمها كان كثير البهرجة يبهر الانظار ،

قبل ان بهتت ألوانها وامتدت اليها الايدي لتنزع طلاءها الذهبي. ولكنها تنم عن عناصر المرح والانطلاق والتحرر التي قدر لها ان تجد اسلوباً نهائياً غير مقيد للتعبير عنها في تل العمرنة . ولعل هذا الطابع التحرري قد نقل او تم تعلمه عن الفن الايجي المتسم بالحيوية والبهجة . اما من الشرق ومن افريقيا البربرية، فقد أتى نهج يميل الى الفخفخة المزوقة ، مما لم يكن موضوع رغبة كبيرة في السابق بالنظر لغرابته كل الغرابة على الثقافة المصرية في عهودها المبكرة التي تميزت بالعبوس والتقشف . ولم تكن تلك الفخفخة واضحة في الميل نحو الضخامة في اعمال البناء والنحت فحسب ، بـــل وفي تزايد ضخامة الاثاث والمفروشات ، وفي تكثيف الزخارف ، وفي المغالاة باتقان الملابس وتصفيف الشعر ايضاً . فالاثواب غدت فضفاضة ، حتى ان الملك بات يظهر بألبسة مزركشة بالحواشي والاهداب ، وذات ثنايا وطيات مما يشبه أثواب الحكام الشرقيين . والحلي والمجوهرات اصبحت كبيرة الحجم ثقيلة ، حتى ان الرجال والنساء على السواء راحوا يحلون اذانهم بالاقراط والاحلاق التي ازدادت طولاً وبروزاً وبهرجة مع اقتراب المملكة الجديدة الى نهاية عهدها . وراجت جمات الشعر المستعار ذات الضفائر والجدائل والخصل المجعدة المقوصة ، ملصقة بشمع العسل ، حتى حاكت تسريحات الشعر الهمجية التي ما تزال اليوم شائعة مألوفة لدى القبائل البدائية في الجنوب. وبالرغم من ان الفن واللباس قد احتفظا في عهد امنحوتب بشيء

من الذوق واللياقة والانضباط ، فانهما أصبحا في العهود اللاحقة في اكثر الاحايين على شيء من الابتذال .

وكما كان يفعل كل مصري ذي يسار، هكذا اقدم امنحوتب الثالث على التفكير بضريحه ، وهو في سياق بناء قصره . وقد أمر ببناء الضريح له في افجيج جبلي ضيق الى الغرب من موقع المدافن الملكية ، بعيداً عن أضرحة اسلافه . وكان طبيعياً ان يكون اكبر وافخم واكثر تعقيداً من اي ضريح ملكي آخر ، اذ احتوى على سلسلة متلاحقة من القاعات المزدانة بالاعمدة ، وعلى غرف عديدة اخرى لا يتسنى الوصول اليها الا عبر ممر كثير الالتواء نقر عميقاً داخل الصخور . ومع ان العمل في بنائه بدأ مع مطلع عهده ، فانه لم يكتمل تماماً ابداً . فواحدة فقط من قاعاته الكبرى الاربع وبعض اجزاء من ممراته الكثيرة ، هي كل ما تم تزيينه وزخرفته بالمشاهد التقليدية وبالعبارات السحرية المأخوذة من كتابات اوراق البردى الجنائزية . وكان في جوار الغرفة المدفنية الخاصة بالملك شقتان يظن ان الفرعون قصد تخصيصها ، خلافـــاً لكل عرف سابق ، الى زوجتيه الكبيرتين « تيي » و « سيتامون » اللتين كان كلفاً جداً بهما .

ولعل من الغريب جداً اننا نعرف عن حياة العمال الذين بنوا ضريح امنحوتب اكثر مما نعرف عن حياة الملك نفسه . فقد عاش اولئك الرجال في قرية خاصة أسسها حكام سابقون من السلالة الثامنة عشرة ، وقد زوّدت بقاياها التي كشف عنها

علماء الآثار المحدثون بمعلومات خاصة دقيقة عن العائلات التي كانت تسكنها . كانت قرية مسورة ومخبأة في فجوة موحشة من الهضبة الصحراوية على بعد غير كثير من مدخل وادي الملوك . ولم يكن للرجال الذين اقاموا فيها سوى مهمة واحدة هي نحت الاضرحة الملكية وزخرفتها ، وكانوا يحملون بفخر لقب « الخدام في مكان الحق » . وشأن دساكر العمال في مدينة الاموات في تل العمرنة ، كانت هذه القرية بعيدة عن الزراعة ومحرومة تماماً من الحياة ، كما كانت تقوم عليها حراسة مشددة — بحيث ان سكانها كانوا اشبه بسجناء محجوزين في ذلك الحبس الصحراوي الضيق . ومن المرجح انها أسست عندما شيد المهندس المعماري ايني اول مدافن الملوك لسيده تحتمس الاول ، وانها بقيت قائمة حوالي خمسمئة عام ، اي حتى الوقت الذي توى فيه آخر حكام السلالة الرعمسيسية المنهكة . اما اسمها القـــديم فغير معروف ، ولكنها تدعى اليوم « دير المدينة » نسبة الى دير قريب يقيم فيه رهبان مسيحيون التمسوا العزلة والهدوء في ذلك الوادي الصحراوي المقفر .

استطاع علماء الآثار ان يقتفوا معالم حياة سكان تلك القرية القدامى بتفصيل واف مذهل ، وذلك بالاستناد الى ما عثروا عليه من بيوت قديمة مهجورة ، ومن مدافن بناها صناعها لانفسهم في التلال المجاورة ، وعلى الاخص من اكوام الانقاض والنفايات التي كانت غنية بالسجلات المهملة المكتوبة على الواح

البردى ، وكسرات الاوعية الفخارية ، وشظايا الصوان . وتدل اسماء اولئك القوم على انهم كانوا خليطاً من النوبيين والآسيويين والمصريين ، كما يتضح ايضاً ان تجنيدهم للعمل هناك قد تم أصلاً من بين الاسرى او المتحدرين نصفياً من الاسرى ، ومن ابناء البلاد الحقيري النسب . وكان سكان القرية في البداية قلائل ، ولكن عندما بدأ امنحوتب الثالث ببناء ضريحه ارتفع عددهم وازداد بحيث استدعى قيام خمسين بيتاً داخل سور القرية وعدة مساكن اضافية خارجه . وكان السكان الذكور يؤلفون جمعية او نقابة يصنفون فيها كل حسب عمله وطاقته . فعلى رأس الجميع كان يأتي مديرو الاعمال ، والمهندسون المعماريون ، والمناظرون، والكتبة . ثم يأتي بعدهم الفنانون — الرسامون ، والنحاتون ، والدهانون . ويلي هؤلاء مرتبة الصناع — عمال المقالع والبناءون . واخيراً العمال الاعتياديون — من حفارين وجابلي طين وحمالين . اما ادنى رتبة على الاطلاق فكانت تتألف من الاشخاص الذين كانت مهمتهم تنحصر في تزويد القريـــة باحتياجاتها — وهم الغسالون والنواطير والمكاريون الذين كانوا يجلبون الزاد والوقود والمياه على ظهور الحمير .

كان الرجال الذين يعملون في الاضرحة الملكية يقسمون فرقاً ، تعمل كل واحدة منها فترة عشرة ايام . ولما كان تشييد المدافن قد اخذ يتم في امكنة تتباعد تدريجياً عن القرية ، فقد بنيت محطة استراحة في ممر بين التلال على ارتفاع من القرية ،

حيث كان رجال كل فرقة من فرق العمال يقضون لياليهم في مآوٍ حقيرة ، ولا يعودون الى بيوتهم الا بعد انتهاء فترة ايام العمل العشرة . وكان جميع العمال بصرف النظر عن رتبهم يتقاضون اجورهم عيناً ، اي مقايضة وليس نقداً ، فكانوا لا يختلفون بذلك ابداً عن سائر الحرفيين والعمال المشتغلين في اي مكان آخر في طيبة او في مصر بصورة عامة . ومع ان سكان هذه القرية كانوا يشكلون النخبة الارستقراطية بين العمال ، اذ كانوا تابعين مباشرة للملك وبالتالي يتقاضون اجوراً أعلى – وبصورة منتظمة عادة – اكثر من العمال الاعتياديين ، فان معدل الاجر السنوي لصاحب حرفة هناك كان لا يساوي اكثر من ثمن ثور بقر واحد . وكان يقدم كل شهر بيان دقيق بالاعمال والساعات الى المسؤولين في احد الهياكل الملكية في مدينة الاموات الطيبية ، وبعد ان يقوم الكتبة هناك بالتدقيق والتحقيق فيه ، يجري دفع الاجور بالاطعمة وسواهـا من الحاجيات . وفي نهاية كل شهر كانت قافلة من الحمير تحمل الى سكان القرية حصصهم المقررة من الخبز والجعة (لوازم المعيشة الضرورية لجميع الرتب) والفول والبصل والسمن واللحوم والاسماك المقددة والملح ، الى جانب التجهيزات والمواد اللازمة للعمل كالادوات والعدد والدهانات الملونة .

كل هذه المعلومات والتفاصيل امكن الوقوف عليها من البيانات المكتوبة على قطع الفخار التي خلفها كتبة القرية .

وتذكر تلك البيانات حوادث التغيّب عن العمل ، واحياناً الاعذار التي كان يموه بها المتغيبون ، كما تذكر ايضاً المشاجرات والفضائح التي كان وقوعها حتمياً في اية دسكرة او قرية ، وعلى الاخص اذا كانت مقيدة محصورة كهذه . حتى لقد غدا اولئك القوم القدامى بالنسبة لعلماء الآثار المصريين الذين درسوا تلك البيانات جيراناً يتبادلون حولهم الاخبار والاحاديث والتعلّات . وان بالامكان اقتفاء آثار سير الاعمال التي احترفها بعض العائلات جيلاً بعد جيل . فالابناء في تلك القرية ، كما في اي مكان آخر في مصر ، كانوا يتتبعون حرف الآباء . ولكن كان يصدف احياناً ، نتيجة للكفاءة او الكد والاجتهاد (او الحظوة في بعض الاحيان) ، ان يرتقي امرؤ الى مرتبة تفوق المرتبة التي وُلد فيها .

وهذا ما حصل مثلاً للمهندس المعماري « خا » الذي بدأ حياته كرسام ثم ارتقى حتى اصبح على التوالي كاتباً فمهندساً يتمتع بالتقدير والتكريم لدى امنحوتب الثاني ، فتحتمس الرابع ، فأمنحوتب الثالث ، وهم الملوك الذين خدم في عهودهم . وقد استطاع هذا المهندس ان يجهز لنفسه ضريحاً رائعاً في ذلك الوادي الصحراوي الذي كان مسقط رأسه . ومحتويات هذا الضريح موجودة الآن في متحف مدينة تورينو بايطاليا . وبين تلك المحتويات بعض الاثاث المنزلي الخشبي ، وأبسطة من النسيج محاكة بأشكال ملونة (ونادراً ما عثر على مثل هذه المنسوجات

في اي ضريح مهما بلغت عظمته) ، بالاضافة الى تمثال مصغر من خشب الأبنوس لحا نفسه ما يزال حتى الآن مكللا بضفيرة من الزهور الطبيعية التي كانت ندية في ذلك الوقت . ومن تلك المحتويات ايضاً ، كنوز اخذها معه الى الدنيا الآخرة ، بينها بعض الهدايا الملكية ومنها كأس من الذهب الابيض تحمل اسم أمنحوتب الثالث .

كانت الرتب العالية تجلب لأصحابها من اهل القرية التقدير والتكريم والزيادة في الدخل ، ولكنها لم تكن تعني حصولهم على مساكن اكبر او افضل. فجميع البيوت التي ازدحمت داخل اسوار دير المدينة كانت متشابهة متطابقة بالنسبة لكل الناس . فبيت لحا لم يكن اكبر من بيوت جيرانه . وكان يخترق المدينة من بوابتها الواحدة الى البوابة المقابلة شارع يكاد لا يبلغ عرضه ثلاثة اقدام ، يتفرع عنه زقاق يؤدي الى شارع ثان يمتد بمحاذاة السور على طوله . وفيما بين حدود هذين الطريقين كانت البيوت مبنية على نسق واحد لا يختلف ، تماماً كمساكن « الشركات » المصرية ، حائطاً الى حائط ، ومؤخرة الى مؤخرة ، وكل واحد منها لا يزيد عن خمسة عشر قدماً في العرض ، وحوالي ضعفي ذلك في الطول ، وزهاء عشرة اقدام ارتفاعاً . وقد ظهر من تصميم نموذجي ان تلك البيوت كانت تتألف من اربع غرف : قاعة المدخل ، وكانت تستخدم ايضاً كغرفة منافع عامـــة وكمشغل ، وغرفة جلوس فيها عمود واحد ، وغرفة منامة ،

ومطبخ . وكانت قاعة المدخل لا تعرف النور عادة الا من خلال الباب الذي يفتح على الشارع . اما غرفة الجلوس ، وهي مرتفعة عن سواها من الغرف ، فقد كان لها كوّات مستطيلة مشقوقة في اعلى جدرانها تقوم مقام النوافذ : واما غرفة النوم فلم يكن فيها ضوء مطلقاً ، في حين ان المطبخ كان على الغالب مفتوحاً للفضاء ، اي انه بلا سقف . وكان هناك درج يقود الى السطح الذي كان يستخدم كغرفة اضافية تمس الحاجة اليها ، ودرج آخر يؤدي نزولاً الى قبو ضئيل للتخزين . واذا سار المرء عبر القرية اليوم او وقف بين جدرانها المتهدمة ، فانه يشعر وكأنه عملاق في قرية أقزام . ومن الصعب جداً ان يتصور كيف كانت عائلات كبيرة حاشدة تعيش وتعمل في تلك البيوت الصغيرة ، او كيف كانت جماهير المعيدين تزدحم وتتحاشر في شارع يكاد لا يتسع لمرور حمار محمل .

ولكن الواقع ان بيوت دير المدينة كانت على الارجح ارحب وافضل بناء من بيوت معظم الناس العاديين في عهد امنحوتب . بل انها تفوق بيوت كثير من القرى الحديثة . فمعظم الفلاحين في هـــذه الايام يعيشون كأسلافهم القدامى في مساكن صغيرة مبنية من الآجر المجفف بالشمس ، ذات ارضيات من التراب المرصوص وسقوف تتفرع منها عوارض خارجية مطينة . وقد تكون بيوت اللبن مساكن لطيفة محببة ، ولكن منازل كثير من المصريين اليوم يعتريها التصدع والاهتراء ، وتكتظ بالسكان ،

وليس فيها من وسائل الراحة الحديثة أكثر مما كان في تلك البيوت لثلاثة آلاف سنة خلت . وهي ، شأن منازل دير المدينة القديمة ، قليلة الاثاث جداً . فان المقتنيات الطفيفة التي كان يملكها رب بيت متوسط في القرية القديمة كانت تتألف من سرير حقير واحد ، وعلى الاغلب من بساطات للنوم تطرح على الارض او فوق الديوان المرصوف من طوب الطين ، ثم من بضعة مقاعد حجرية ، وطاولة منخفضة او اثنتين ، ومجموعة متواضعة من الاطباق والاوعية الفخارية ، ومهراس (جاروشة) لسحق الحبوب ، وبلاطة لجبل العجين ، وفرن مقبب من الصلصال لخبز العجين . ولعل وجود مثل هذا المتاع لدى قروي في عصرنا الحاضر يجعله يشعر بالراحة والاطمئنان ، بل وبوجه عام ، بأنه على شيء من اليسر والسعة .

على ان المهندس خا جهز ضريحه بأشياء أنفس وافخر من تلك . وانه ليشك فيما اذا كان قد حشر في بيته الصغير قدراً من المتاع يعادل ما تراكم في مثواه الاخير . ولكن التجهيزات المدفنية — كما غلب العرف — كانت تمثل ما يأمل المرء ان يلقى في عالم افضل من العالم الذي نعم بالعيش فيه على الارض . فقطع الاثاث التي عثر عليها في ضريحه لم تدل على انها كانت قيد الاستعمال ، وكان معظمها تقليداً للمقاعد والطاولات والخزائن المطعّمة الانيقة التي كانت تصنع من الاخشاب الثمينة لمن هم افضل وأعلى مرتبة منه . اما الذين صنعوا ذلك الاثاث المطعّم

بحذق ومهارة بالعاج والخزف والزجاج الملون ، فقد كانوا الصناع المهرة من ابناء القرية ، ويتضح هذا من الحطام والانقاض التي عثر عليها في تلك الغرف من بيوتهم التي كانت تستعمل كمشغل ايضاً. تلك الانقاض والحطام تضم كذلك تصاميم لمختلف الامتعة المنزلية ، وقوالب لسكب المصاغ والجوهرات ، وقطعاً مشققة تشهد على وجود صناعة الخزف ، وشظايا منحوتات لم تكتمل . ولكنه من غير الواضح ما اذا كان صناع القرية قد عملوا لانفسهم ولجيرانهم ، ام بصورة خاصة لزبائن اهم وارفـــع شأناً . وفي الامكان الحدس بأن تمثال خا المصغر من خشب الأبنوس الثمين قد صنع محلياً ، وهو وسواه من الاشياء الجميلة الصنع التي عثر عليها في ذلك المكان تشير الى انه كان بين القرويين فنانون موهوبون .

من المؤكد ان المدافن التي شيدها الخدام « في مكان الحق » لانفسهم ، كانت جميلة الزخرفة والزينة . وقليلون جـــداً هم الفنانون واصحاب الحرف الذين اشتغلوا في امكنة اخرى بطيبة كانوا يستطيعون ان يطمحوا الى مدافن جميلة كتلك التي أستغل عمال دير المدينة اوقات فراغهم ، والاعتدة والدهانات الملكية ايضاً ولا ريب ، لانشائها . ولم يسخ هؤلاء العمال بمهارتهم على انفسهم وحسب ، بل سخوا بها ايضاً على آلهتهم . فقد بنت كل فئة من فئات نقابتهم حرماً خارج سور القرية لالهها الحارس . وهناك معبد بطليمي ، ما يزال قائماً اليوم ، يحدد الموقع الذي

كان يقوم عليه حرم مقدس شيده القرويون وكرسوه للإلهة هاتور .

كان سكان دير المدينة متدينين اتقياء شأن جميع المصريين غيرهم . ولما كانوا يفخرون بأنهم تابعون للملك الحاكم مباشرة ، فقد كانوا يمجدون آلهة العاصمة العظماء ، وعلى الاخص آمون الذي كانوا يتقربون منه ويخاطبونه (لا سيما بعد فترة خروج تل العمرنة على الدين) بصورة شخصية غريبة ، فكانوا ينقشون على قطع الفخار صلوات مؤثرة موجهة اليه على انه « وزير الفقراء » و « القاضي الذي لا يأخذ الرشوات » . وكانوا طبعاً يوقرون أوزيريس ، إله وقاضي الموتى ، بالرغم من ان ايزيس ، الام المقدسة ، وهاتور بصفتها المزدوجة كإلهة الحب وإلهة المقابر ، كانتا اقرب وأحب اليهم . اما بتاح ، سيد الحرفيين ، وتوث الحكيم ، شفيع الكتبة والرسامين والبنائين ، فقد كان لهما عبّاد كثيرون . واما الآلهة الاقل شأناً ممن لم تكن تمجد باقامة هياكل خاصة لها ، فقد كانت تظهر في الخزانات المقدسة التي تقام داخل البيوت ، ومنها الإله الطيب بيس ، والإلهة توريت التي تشبه فرس الماء الضخمة البشعة ، وهي حامية النساء المولدات .

غير ان الإله الرئيسي لسكان القرية ، على أية حال ، كان الملك المؤله امنحوتب الاول ، الذي كانوا يعبدونه على انه مؤسس جمعيتهم . وكانوا يصورونه بصحبة والدته نفرتاري (التي كانت

تمثل بايزيس وهاتور نظراً لكونها ام هورس الملك) وايضاً بصحبة انوبيس ، الحنط وروصي المقابر ذي الشكل الثعلبي . وكان القرويون يتوجهون بصورة رئيسية الى الملك وأمه في مشاكلهم . كان امنحوتب الاول ، بوحي إلهي ، يفصل في خلافاتهم حول الممتلكات ، ويكشف عن اللصوص ، ويقوم بدور الحكم في قضايا المدفوعات المختلف عليها، ويتلقى الالتماسات والاستغاثات ضد القرارات التي تصدرها محكمة القرية . ومن تلك القرية انتشرت عبادته تدريجياً الى محاريب اخرى في طيبة الغربية ، فكان من بين سائر الجدود الملكيين السلف الذي تمتع بالاحترام والتبجيل لأطول زمن ، فـلم يُنس حتى في زمن البطالسة . ولا يزال اسمه حتى اليوم ، ولو انه محرف وغير معترف به على انه هو بالضبط ، خالداً في احد شهور التقويم القبطي الموروث عن الفراعنة والسائر الآن في طريق الزوال من الاستعمال العام .

على الرغم من ان سكان دير المدينة كانوا يؤلفون طبقة على حدة، فان قريتهم لم تكن مختلفة عن سواها من القرى الكثيرة التي كانت تشكل مدينة طيبة الكبرى . والحياة التي كانوا يعيشونها ، بوجه عام ، كانت مماثلة لحياة الجموع الطيبية التي حكمها امنحوتب الثالث المظيم . فحفنة محدودة من المصريين فقط كانت تستطيع ان تطمح الى اكثر من مجرد البقاء . اما معظم الباقين فقد رضخوا للاوضاع التي ولدوا فيها. كانوا راضين

بأن يعملوا النهار بطوله مقابل اجر هزيل ، فرحين بأن يكون لهم عش يأوون اليه مع بهائمهم (اذا كانوا ممن وفقهم الحظ بامتلاك أية بهائم) ، شاكرين اذا تيسر لهم الحصول في فترات نادرة على قطعة من القماش الخشن تكفي لثوب واحد ، سعداء لأن يشتركوا في الاعياد الكثيرة التي تتخلل السنة المصرية — تلك الاعياد التي كانت تعني المواكب والأبهة التقليدية والموسيقى ، وتحمل معها غالباً حصة اضافية من الطعام توزع عليهم كرماً وجوداً من الإله او الملك .

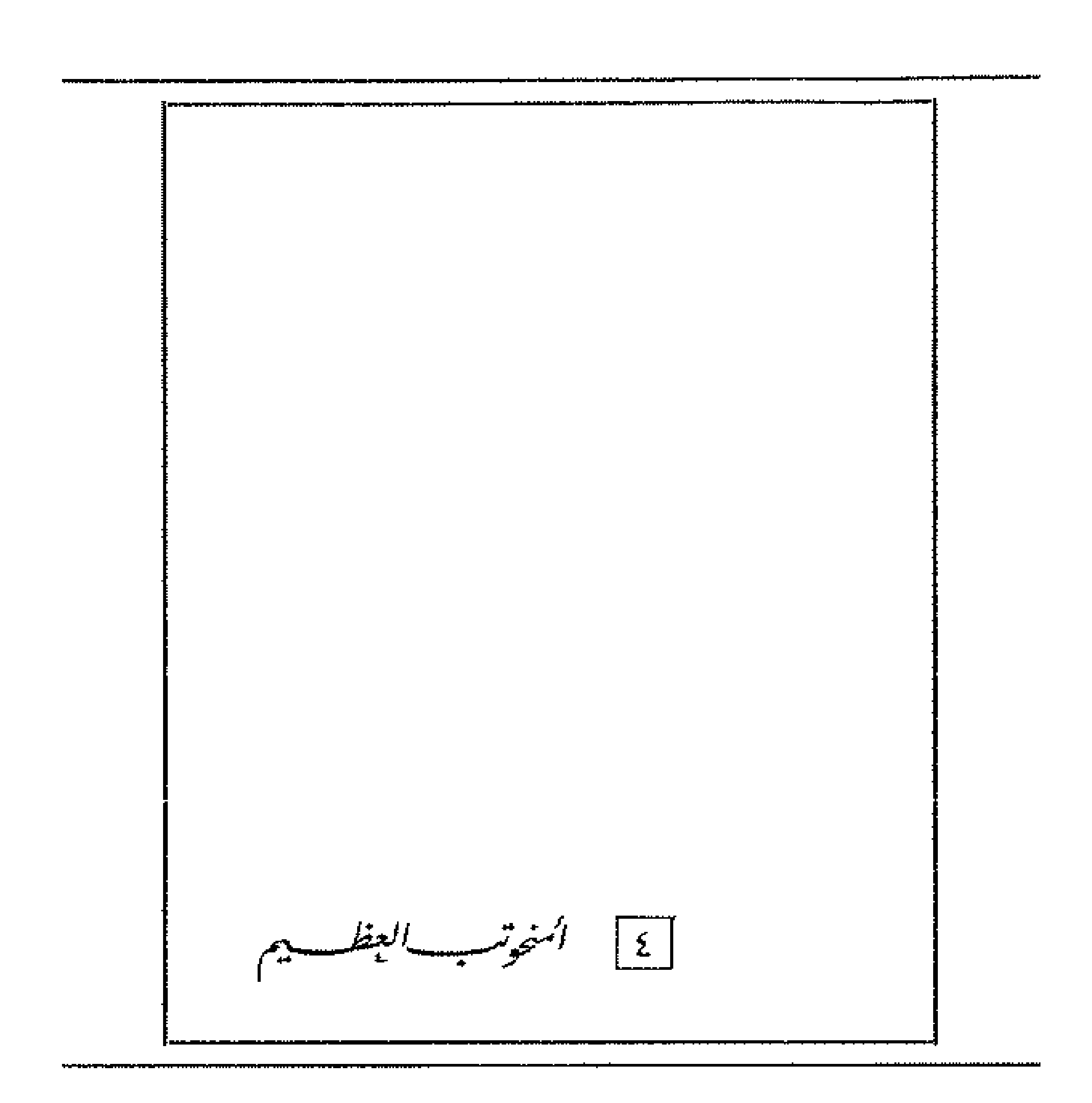
كانت جماهير الشعب حوالي نهاية السلالة الثامنة عشرة تعيش ، على الارجح ، في حالة لا تختلف عما كانت عليه بعض الشعوب الأخرى من حيث النظام الاجتماعي والتفاوت في الطبقات . كان هنالك بعض الطموحين ، وكان يتاح لرجل من اصل متواضع أن يرتفع ويرتقي من وقت لآخر ، ولكن قلائل هم الذين كانوا يتوقون الى ما هو ارفع من مرتبتهم في الحياة . وكانوا يتذمرون احياناً ، ويحاولون التهرب من جابي الضرائب ، واحياناً يفرون من الخدمة العسكرية الالزامية ، ولكنهم لم يجادلوا قط في حق الملك او السيد المتسلط على اشخاصهم وانتاجهم وكدهم . فذلك الحق كان جزءاً من نظام الكون .

كان لطيبة ، كأية مدينة اخرى في أي زمان او مكان ،

نفوسها القلقة المتململة الثائرة ، وملحدوها ومريبوها ، وغشاشوها وأئمتها ومجرموها . وكانت المشاجرات سهلة الاشتعال ، وتنتهي احياناً الى جرائم التشويه الجسدي او القتل . وكان اللصوص ينطلقون في الليل ، وقطاع الطرق يتربصون في الممرات الموحشة . وحتى مدينة الاموات التي تقوم عليها حراسة مشددة ، كانت احياناً تتعرض لغارات اللصوص الذين كانوا يتسللون الى المدافن الغنية عبر ممرات سرية يحفرونها بأيديهم . وفي بعض الاحيان كان اولئك اللصوص (تماماً كما يفعل لصوص القبور اليوم) يقتلعون او يحطمون اعين التماثيل المرسومة على الجدران لكي لا يكون ثمة شاهد على جريمتهم . ولكن الافعال الشائنة بين الناس كانت اجمالاً ضئيلة وتافهة على كل حال في عهد امنحوتب الثالث الذي تميز بالرخاء والرفاهية والنظام . والناس كانوا يقبلون العالم على ما هو عليه ، ويأملون ان يكون العالم الذي سينتقلون اليه بعد الممات مماثلاً له على الاقل .

هذا ، وتكشف البيانات التي تعطي لمحات عن الحياة الشعبية ، ان اهل طيبة الذين كانوا يعملون بكد ونشاط ، كانوا ايضاً مرحين ويتحلون بسرعة الخاطر وحضور النكتة وخفة الروح ، تماماً كخلفائهم المصريين المعاصرين . فقد كانوا يغنون وهم يعملون ، وفي اوقات فراغهم كانوا ينسجون الحكايات الشعبية المذهلة المليئة بالعجائب . غير ان نتفاً ضئيلة فقط من اغانيهم

واحاديثهم وقصصهم وصلت الينا ، ذلك ان معظمها لم يكن مكتوباً . وهكذا ، فاننا نجد في وقتنا الحاضر لوناً معيناً من الادب الشعبي الشفهي ما يزال منتشراً بين الفلاحين (بعضه ربما سحيق في القدم) ، نجده يسير بسرعة نحو الاضمحلال في طوفان العصرية والتجديد ، اذ لم تدوّن الا آثار طفيفة جداً منه .


٤
المخوتب العظيم

أي صنف من الرجال كان امنحوتب الثالث ، وأية حياة هي التي عاشها في قصره المسمى « بيت الافراح » ؟ بالرغم من ان الوثائق المدونة عن عهده كثيرة بالغة الفصاحة ، فان الاجابة عن هذين السؤالين يجب ان يبحث عنها فيما بين السطور .

من الصعب الّا نتصور الملك على نحو ما يبدو في احد رسومه الاخيرة والصادقة بدون شك، والذي عثر عليه في تل العمرنة ، وهو يمثله رجلاً ذا وجه منتفخ الاوداج، وجثة مترهلة، يسيطر عليه الاعياء والارهاق وفتور الهمة . غير ان له رسوماً تقليدية سابقة تظهره كشاب وسيم على شيء من الخشونة، عريض العنق، ممتلىء الشفتين ، لوزي العينين ، غير مرهف الاحساس ولا ، ربما ، الذكاء ايضاً ، ولكنه في أتم الصحة والنشاط والعزم. هكذا كان يبدو حتماً عندما ورث عرش القطرين .

كان عمره آنذاك حوالي خمسة عشر عاماً ، ولكن الفتى ابن الخمسة عشر كان يعتبر رجلاً في مصر القديمة . وثمة اعتبارات كثيرة تحمل على الاعتقاد بأنه كان قد تزوج قبل ذلك من فتاة

صغيرة مغمورة تدعى تيي ، وهي ابنة احدى وصيفات أمه ، وربما حبيبة طفولته التي قدر لها ان تصبح فيما بعد زوجته الملكية الكبيرة . كان امنحوتب قد تلقى في ممفيس ولا ريب التربية المألوفة بالنسبة للامراء ، وهي تنحصر في تلقن نزر يسير من القراءة في الكتب وعلوم الدين ، ثم في تدرّب شاق على فنون الحرب والطراد التي هي من شيم الرجال . وفي السنوات المبكرة من عهده ، كان له نشاط واسع في مضمار رياضة الملوك التاريخية العريقة ، الا وهي الصيد . وكان يوزع على المقربين اليه تذكارات أنيقة هي عبارة عن جعلان (جعرانات) تشيد ببسالته وشدة بأسه كصياد . وكان احد هذه التذكارات يباهي برحلة صيد دامت يومين ، تمكن الملك خلالها من صرع ستة وثمانين ثوراً برياً بسهامه هو ، بينما يثبت تذكار آخر بمنتهى الزهو والخيلاء انه قتل مئة واثنين من الاسود الضارية خلال السنوات العشر الأولى من توليه العرش .

لم تكن طرائد الصيد متوفرة في مصر زمن حكمه كما كانت متوفرة في أزمنة سابقة . صحيح ان المواشي البرية كانت ما تزال في الصحراء الشرقية ، ولكن الاسود كانت نادرة يصعب العثور عليها . ومع ان هنالك اعتقاداً بأن امنحوتب يمكن ان يكون قد بلغ وادي الفرات بحثاً عن الاسود ، الا انه من الممكن جداً ان يكون قد عثر عليها في أمكنة أقرب للعاصمة ، في غابات نبات البردي بالدلتا مثلاً ، او بالقرب من ينابيع الماء المشتتة في

الجبال الشرقية ، او بالتأكيد في بلاد النوبة حيث كانت الاسود كثيرة وافرة ، وما تزال كذلك حتى أيامنا الحاضرة . وانه لمن المحتمل جداً ، على كل حال ، ان تكون رحلات الصيد الملكية قد جرت في مرابع الصيد المحميّة الخاصة بالملك التي كانت مليئة بالطرائد .

ليس هناك أي دليل على ان امنحوتب قد أقدم على ممارسة ألوان الرياضة المجهدة ابداً بعد انقضاء سنته العاشرة في الحكم، كما انه لم يعد يشترك في الحملات والغزوات الحربية على رأس قواته، كما كان يفعل جدوده الافذاذ من قبل . ومع ان الكتابات التي أمر بنقشها عنه تردد ادعاءات اسلافه ، وهي ادعاءات أصوب وأحق من ادعاءاته ، بالفتوحات الآسيوية ، مستعيراً احياناً كلماتهم بالذات، فان قدمه لم تطأ ارض سوريا على ما يظهر (اذ كتب احد الحكام السوريين لابن امنحوتب فيما بعد يقول : « الحق"، ان والدكم لم يتحرك الى الخارج، ولا تفقد اراضي امرائه الموالين») . بل انه ليشك حق في ان يكون قد قاد شخصياً الحملة غير المهمة على بلاد النوبة التي سجل حدوثها في السنة الرابعة من حكمه، بالرغم من تبجّحاته في عدد من لوحات النصر التذكارية بأنه سحق «الكوشيين اللئام» وحقق تقدماً مظفراً حتى الشلال الرابع تقريباً ، ثم عاد حاملاً هدية من الذهب لأبيه آمون .

ولكن الزمن كان يعمل ضده . كان الجهاز الحكومي الذي اطلقه الملوك السابقون يسير على ما يرام . والشعوب الرعايا التي

كانت ما تزال تذكر العقاب الصارم الذي كان ينزل بهـــا في السابق ، ظلت موقتـــاً طيّعة وديعة سهلة القياد . واستمرّت الجزية (مع انها اصبحت تأتي على الاغلب الآن في شكل « هدايا » كان متوقعاً ان تقابل بمثل قيمتها) في التدفق بمولة الملك وإلهه . والنيل الزاخر الغزير لم يقصر ابـــداً في فيضانه السنوي كالمعتاد . ومناجم الذهب كان يبدو انها لن تنضب . ومصر أثرت واغتنت وعرفت رخاء لم تعرفه من قبل ، وكانت تعيش في سلام . لم يكن هناك في الظاهر مـــا يحوج حاكماً الى اجهاد نفسه . وهكذا ، فما ان بلغ امنحوتب الخامسة والعشرين من عمره حتى كان قد اصبح حاكماً شرقياً كسولاً خاملاً محباً للترف والعيش الرغيد ، وظل كذلك حتى آخر أيامه .

تمثله بعض المنحوتات والتماثيل التي عثر عليها في طيبة ، والتي يحتمل ان تكون قد صنعت له عندما ناهز الخمسين من العمر ، اقول ، تمثله رجلاً مفرطاً في السمنة ، مخنثاً يرتدي ثوباً متقن الصنع مزركشاً بالثنايا والاهداب والحواشي ، وقد شبك يديه تحت كرشه المنتفخ في حركة هي من الصفات الشرقية المميزة . تلك التماثيل هي أبعد مـــا يكون عن صفة الرجولة الجليلة التي تميزت بها صور الملوك السابقين وتماثيلهم ، ولكن الحياة في مصر كانت قد تغيرت كثيراً عما كانت عليه في غابر الأيام . فالمزيد من أهل القصر والحاشية والطبقات الراقية كان قد أفسدهم تدريجياً تعاظم الترف والرفاهية وتكاثر الاتصال والالفة مع

مجتمعات أقل تحفظاً ورصانة وعبوساً . ويبدأ الناس يدركون ان ثمة عالماً آخر خارج حدود مصر . فقد سافر كثير من المصريين الى الخارج كجنود او موظفين رسميين او تجار، وعادوا بحكايات غريبة يروونها بمنتهى التشويق عن بلدان وشعوب تبدو اساليبها وسبل حياتها ، لمجرد غرابتها بالذات ، اكثر تحرراً وتلوناً من الاساليب وسبل الحياة المصرية . هذا بالاضافة الى ان العبيد في البيوت الكبيرة كانوا وقد تملكهم الحنين الى الاوطان يروون لنساء اسيادهم واطفالهم اخبار الغنى والجمال في بلاد اخرى يحكمها ملوك وآلهة آخرون .

تكشف رسوم الاضرحة في أواخر عهد السلالة الثامنة عشرة بوضوح عن ان الحياة المصرية عرفت آنذاك تراخياً في تطبيق الآداب وحسن السلوك، ومغالاة في مظاهر الترف ورغد العيش، مما كان غريباً عليها من قبل. فمشاهد الرسوم السابقة تبين كيف كان الرجال يشتركون في تناول وجبة الطعام الجنائزية بوقار يكاد يكون كهنوتياً، وحدهم احياناً، واحياناً بصحبة زوجاتهم الرصينات ، بينما الاولاد والخدم يقفون على خدمتهم باحترام . اما الآن ، فقد غدت تلك المأدبة المهيبة عبارة عن مقصف طرب ومجون وعربدة يشترك فيه ضيوف كثيرون بالتهام الاطعمة المقدمة الى الميت ، ويفرطون في الشراب حتى يتعتعهم السكر. وفي اثناء ذلك كانت تطوف على الندماء خادمات صبايا مشيقات القدود عاريات يسكبن فوق رؤوسهم المنتشية مقادير كثيرة من

المراهم والدهونات المعطرة . وكان الرجال والنساء المتأنقون بألبستهم ومجوهراتهم وشعورهم المستعارة يستنشقون ازهـــار اللوتس باسترخاء ، ويتفرجون على فتيات نصف مؤزرات وهن يتلوين في رقصات مثيرة للاحاسيس والشهوات ، ويستمعون الى المغنين ينشدون اغنيات جريئة طائشة على انغام آلات موسيقية جلبت من الشرق .

« المطور والزيوت تقدم اليك لتشمها
أكاليل من ازهار اللوتس لمحبوبتك
الجالسة الى جانبك والساكنة في قلبك . . .
دعونا نستمع للغناء والموسيقى !
اقبلي ايتها البهجة — وليذهب الهم والغم !
فسوف يأتي اليوم الذي نقترب فيه
من الارض التي تحب السكوت» .

يوحي اسم قصر امنحوتب ، « بيت الافراح » ، الى الاسماع في عصرنا ، بما يشبه تلك العربدات مع انه ، على النقيض من هذا ، اسم ديني مقدس اطلقه الملك على قصره لمناسبة الاحتفال بيوبيله تدليلاً على الفرحة والبهجة بتجديد ملكيته . ولكن الفرعون كان مع ذلك يأخذ قسطه من المباهج والمسرات بطرق لا تختلف عن تلك التي رسمت مشاهد عنها في اضرحة رجـال

حاشيته . فالولائم ، وضروب اللهو التي كان يقدمها الموسيقيون والراقصات التابعون لمحيطه كانت ولا ريب من اسباب تسليته، على الرغم من ان المجون الملكي كان خاضعاً لكبت الرسميات والتحفظ .

نادراً ما كان الملوك يجيزون لانفسهم صحبة الندماء . وفي حين ان قلة ضئيلة من الرجال الذين كانوا يفخرون بحمل لقب « صفي الملك » ربما كان لهم بعض الحق في ادعاء ذلك الشرف الخطير ، أي شرف منادمة الملك ، ورغم ان الفرعون كان يمكن ان يسمح لنفسه بالانطلاق قليلاً في حضورهم او في خلوة الحريم ، فان الحرية والانطلاق كانا متاحين لجهة واحدة فقط . وانه ليُشَكُّ فيما اذا كان امنحوتب قد نعم ابداً بأية رفقة حميمة حقيقية، فيما عدا رفقة زوجته منذ الصغر، تيي، التي ظلت امينة سره وصديقته . ولنا مزيد من الكلام عنها فيما بعد .

غير ان الفرعون ، وقد كان فوق مستوى البشر بكثير ، وهذا مما يحتم عليه الوحدة، كان يجد الكفاية والرضا في سلطانه وسطوته وما يحيط بهما من أبهة وجلال ، وفي الصروح الفخمة التي كان يهدر ثروته من اجل تشييدها ، ثم في ما كان يتلقى من طاعة وولاء واكرام . ومن وقت الى وقت، كان يظهر بعظمته وجلاله أمام مبعوثي الامراء الاجانب الذين كانوا يأتونه متذللين فينبطحون ساجدين أمام عرشه . وفي بعض المناسبات كان يستقبل بصورة رسمية عظماء مملكته الذين كانوا يأتون خاضعين

و هاماتهم منحنية ، ليقدموا له الهدايا الفــــاخرة بمناسبة السنة الجديدة او في عيد تتويجه او في الاحتفال بيوبيله – من تماثيل تشبهه بالضبـــــط ، واثاث ومجوهرات ، ومنسوجات نفيسة ، وأوعية وآنية ثمينة صنعت تحت اشرافهم ، او مؤن وخمور معتقة من محصول العقـــــارات التي كانوا يشرفون عليها بفضل جوده وانعامه . ومن « نافذة الظهور » المطلة على باحة كبيرة في قصره ، كان يوزع أوسمة من السلاسل والسوارات الذهبية على الذين كان يرغب في تكريمهم . وفي مناسبات الاعياد الكبيرة كان يذهب في مواكب فخمة متألقة ليتشاور مع الآلهة وليكون بصحبتها في معابدها . واثناء مروره في الشوارع كانت الرهبة تخيم على الجماهير فتسجد معفرة الجباه بالتراب .

ولكنه ليس من السهل على الدوام ان يكون المرء ملكاً مطلق الصلاحية ، وقد كان على امنحوتب أن يؤدي واجبات اخرى اكثر ارهاقاً وازعاجاً . فبصفته ملكاً على مصر ، لم يكن فقط يرئس الدولة ، بل كان هو الدولة . كانت أوامره السنية قانونها ، وكان هو بنفسه يعين موظفي الحكومة الرئيسيين الذين يتولون الامور بالنيابة عنه ، ورؤساء الكهنة الذين يؤدون الواجبات كوكلاء له . وكان ، نظرياً ، وفي بعض الاحيان فعلياً ، هو الذي يعين كذلك صغار الموظفين ورجال الدين . وبما انه لم يكن فقط يصنع هؤلاء الرجال بل كان يستطيع ايضاً ان يحطمهم (وكان يفعل احياناً) ، فلم يكن هناك موظف يتمتع

بقواه العقلية الكاملة يجرؤ على القيام بأي عمل مهم او المباشرة بأي مشروع قبل ان يحظى بموافقته .

وكان يمكن ان تمنح الموافقة تبعاً لهوى الفرعون وتقلبات مزاجـــه او تحجب بشكل تعسفي قطعي ، ولكنها كانت ضرورية . ولذلك كان على الملك ، في فترات متقطعة ، ان يستقبل وزيره وسواه من الموظفين ذوي الشأن في مجلس رسمي ليستمع الى بياناتهم ، ويبلغهم تعلياته ورغباته ، ويمهر نشاطاتهم باستحسانه ومصادقته . ومن المرجح ان تلك الاجتماعات الرسمية لم تكن تعقد يومياً ، على نحو ما يقال من انها كانت تحدث في الايام الغابرة ، ولكنها كانت حتماً تتكرر باستمرار . ومع انه امنحوتب كان في الغالب يجدها متعبة مملة ، فانها لم تكن الا لتزيد من شعوره بالقوة والسلطان .

يرجح ان الملك لم يعرف كثيراً عن تفاصيل جهاز الحـــكم الذي كان يشرف عليه ، ولا اهتم بذلك مطلقاً ، كما انه لم يأبه البتة لكد الملايين الذين كانت ثمرات جهودهم تملأ المستودعات ومخازن المؤن والحبوب . ونحن ، في تطلعنا الى الوراء من المركز المتاز الذي اتاحه لنا الزمن ، رغم ان الغموض والابهام يكتنفان كل ما نستطيع تخيله عن حياة اولئك العامة من الناس الأميين الذين لا كلمة لهم ولا صوت ، فان لدينا مزيداً من المعرفة عن النظام الاداري المعقد الذي كانوا يعيشون تحت حكمه . كان ذلك النظام ، بالنسبة لزمنه ، في غاية الابداع والتطور ، حتى

انه بقي واستدام على الرغم من محن الثورات والحروب والاحتلال الاجنبي ليصل الى عهـــد البطالسة دون ان يطرأ عليه ، ويا للدهشة ، تغيير اساسي يذكر . ونحن نعتمد بصورة رئيسية ، فيما نعرفه عن هذا النظام ، على مجموعة كبيرة ومتنوعة جداً من الوثائق خطتها الكتبة القدمـــــاء الذين كانوا يحفظون سجلات الحكومة ومحاضرها .

استخدمت الادارة ألوف الكتبة والمحررين . وتمثل المشاهد المصورة هؤلاء الكتبة على انهم موجودون في كل مــــكان على الدوام ، فهنا تراهم يراقبون الحقول ، ويسجلون كيل الحبوب وعد المواشي ، ويحصلون الضرائب المستحقة للملك . وهناك يرقمون الانفار المجندين للخدمة في الجيش او « السخرة » . وفي كل مكان يقفون بخضوع الى جانب من يفضلونهم رتبة ، واوراق البردى وريش القصب جاهزة في أيديهم . اما نتائج أعمالهم الباقية فمستفيضة عارمة . فمنذ اول ما اخترعت الكتابة تقريباً ، والسجلات الادارية تحرر في مصر وتحفظ بدقة واهتمام ، ولكن دوائر المحفوظات امتلأت في عهد الامبراطورية الى حد الانفجار ، بالنظر لتزايد التعقيد في جهاز الحكومة . وليس ثمة حضارة قديمة ، ولا حضارة حديثة ربما ، باستثناء حضارتنا نحن ، عرفت الطغيان الكتابي الذي عرفته الحضارة المصرية .

كثير من الوثائق التي وصلت الينا لا تزال قابعة في المتاحف لم تدرس بعد. والقدر الكبير الذي قام العلماء بترجمته من هذه الوثائق يتألف من مجموعة غير منسقة استؤصلت من أماكن متفرقة جداً وفي أوقات مختلفة . وهي غالباً مقطعة مجزأة ، وليس بالنادر ان يستحيل فهمها. قصاصات من أوراق محاسبة، قوائم بالاراضي والعبيد والمواشي ، سجلات ضرائب ، بيـــانات عن ممتلكات المعابد وموجوداتها ، محاضر القصر، وهي تعرض في أغلبيتها الى المنازعات التافهة ونادراً ما ظهرت فيها قضايا ذات أهميـــة ، صكوك وعقود اتفاقات ، بضعة اعمال أدبية ، وأكوام ضخمة من النصوص والمخطوطات الدينية – من خـــلال هذه الاشياء المدونة على أوراق البردى او قطع الفخار او شظايا الصوان ، استطاع علمـــاء الحضارة المصرية القديمة ان يكوّنوا فكرة عن حضارة المملكة الجديدة. وهم يضيفون الى المعلومات التي تجمعت بهذه الطريقة ما يستخلصونه من بعض الفرمانات الملكية القليلة ، ومن بيانات (ليست دائماً أمينة وجديرة بالثقة) منقوشة على الحجر تعدد فتوحات الملوك ومنجزاتهم ، ثم من بعض تراجم السير المكتوبة ، ومن دراسة نسبية دقيقة عن الالقاب التي حملها الموظفون الرسميون القدامى . وأخيراً ، ولكن ليس آخراً ، فان بامكانهم اعـــتماد التاريخ غير المكتوب الممثل في الانصاب والمقامات التذكارية ، والمشاهد المرسومة في الاضرحة ، وذخائر الحياة اليومية وآثارها المدفونة مع الاموات او الباقية بين انقاض المنازل للحصول على مزيد من المعلومات .

في حين ان عدداً من الوثائق الكتابية الموجودة لدينا محرر باسلوب جيد جداً ، فان بعضها جاء على أيدي كتبة يكادون يكونون أميين ، وكثير غيرها كان من عمل تلامذة مدارس بدا انهم اجهدوا انفسهم في كتابة لغـــة قديمة مهجورة بكثير من الاطناب والمبالغة ، مما كان بعيداً عن كلامهم الاعتيادي . فتعلم الكتابة الصحيحة لم يكن بالمهمة السهلة . والكتابة الهيروغليفية المقدسة التي استنبطها توث ، كاتب الآلهة ، كانت عبارة عن صور غالباً ما تتشابه وتثير الحيرة والارتباك . ورسمها بدقة كان يستدعي مهارة غير يسيرة . وفي الكتابة الكهنوتية العامية التي اشتقت منها ، كان يمكن ان يبدل اهمال طفيف او جرة قـــلم خاطئة معنى كلمة وجملة . كان عدد الرموز والشارات التي يجب تعلمها مذهلاً صاعقاً . فلم يكن هناك شيء مثل الحروف الابجدية التي لها ، نوعاً ما ، قيمة لفظية وسمعية محددة ، والتي يمكن ان تستعمل للتعبير بالكتابة عن افكار الناس وكلامهم . وفي زمن امنحوتب الثالث ، كان على الكاتب المتضلع ان يتملك ناصية زهاء ستمائة رمز . وفي العهود التالية ، بلغ عدد الرموز المستعملة في الكتابة اكثر من ذلك بكثير . وهكذا فان الطريق الى العلم والمعرفة لم يكن سهلاً ، ولكنه كان مفتوحاً للكثيرين ، وكان كل مصري طموح يتوق الى السير على الطريق .

هنالك قطعة بردى من طيبة يعود تاريخها الى ما بعد عهد امنحوتب الثالث بقليل ، تمتدح العلم لمجرد انه علم ومعرفة . فهي

تقول : « كن كاتباً لكي يحيا اسمك ويخلد . الكتاب خير من ضريح في الغرب . . . افضل من لوحة تذكارية في معبد» . وتروي هذه الوثيقة اخباراً عن رجال عظام من الماضي أهملت شعائرهم المدفنية منذ زمن بعيـد ، وتهدمت اضرحتهم واستحالت الى غبار ، حتى ان مواقعها قد طواها النسيان ، « ولكن اسماءهم ما تزال تذكر وتتردد بسبب الكتب التي وضعوها » وسوف « تبقى حية الى حدود الازل » .

هذه وثيقة نادرة . فمعظم الكتبة لم يكن يهمهم الخـــلود الأدبي بقدر ما كانوا يهتمون بالتقدم والارتقاء على الفور . ذلك ان مهنة الكتابة كانت بعيدة الاهداف . كان هناك رجال عظماء يفخرون بأن يدرجوا لقب كاتب في قـــائمة ألقابهم المشرفة ، وكثيرون منهم ارتقوا من منصب الكاتب المتواضع المغمور الى مراكز رفيعة مجيدة . حتى ان الكاتب الذي لم يستطع ابداً ان يرتقي الى أبعد من العمل في مكتب اقليمي او في دائرة أملاك صغيرة كان « افندياً » يرتدي ملابس بيضاء . وهكذا فان اكثر الوثائق التي تمجد مهنة الكاتب كانت تشدد على فضائلها من حيث المنفعة المادية . وهي تصور حياة المزارعين والصناع والتجار والجنود بأقتم الالوان ، وتصف حياة الكاتب بمقابـــل مشرق باهر . «كن كاتباً» ، هي تحث في جوهرها « كن مجتهداً مثابراً . تصرف بحصافة وكياسة وتواضع حيال رؤسائك . لا تعارض أمراً او تجادل فيه ، ولا تتكلم في غير دورك . عندئذ لن تفتقر

الى الطعام من (أملاك بيت الملك) » . هذه وما شابهها من الحكم والاقوال المأثورة ، كانت القواعد التي تخصص لتلامذة المدارس كي يستنسخوها على دفاتر الخط في المملكة الجديدة .

نحن نقول تلامذة مدارس . ولكن الواقع ان الكاتب كان يتلقى الشطر الاكبر من تعليمه عن طريق الممارسة والمران الشاقين . فبعد أن يكون قد لقن « مبادىء القراءة والكتابة والحساب » في البيت، او في مدرسة ابتدائية حيث يمارس التعليم على ضربات العصي ، — لان « اذني الصبي على ظهره » — كان المرشح لان يصبح كاتباً ينتقل لاكمال دراسته كموظف متمرن في مكتب حكومي او عقاري أو في دائرة كتابة احد المعابد .

كان العلم اذن بالممارسة والاختبار . وكان يشتمل على ما لا نهاية له من اعمال النسخ والنقل ، وعلى استظهار الرموز المفردة ، والكلمات ومجموعات الكلمات ، والحروف النموذجية ، وحفظ مقتطفات من العلوم العالية . حتى ان علم الحساب كان يقتضي شحن الذاكرة بامثلة نموذجية ، ذلك انه ما من احد مطلقاً على ما يظهر استطاع ان يدرك او يعلل المبادىء الاساسية للعلوم الرياضية . ومع ذلك، فان الكتبة تعلموا مسك الحسابات الدقيقة وقياس الاحجام المكعبة، والمهندسون المعماريون والفنيون شيدوا الهياكل الطيبيّة العظيمة التي ظلت قيد البقاء ثلاثة آلاف سنة او اكثر ، دون ان يكونوا مزودين على صعيد الرياضيات بأكثر من معلومات أولية في علم الهندسة ، وبعض الحساب البسيط

الذي لم يعرف الضرب ولا القسمة (وكلاهما تم التوصل اليهما بشقة وعنــاء عن طريق الجمع والطرح) ولا استخدم غير الكسور الأولية جداً . وعلاوة على كل هذا ، فان الانصاب والأبنية التي ما تزال تثير الدهشة والعجب في عصر ناطحات السحاب ، قد شيدت بمعدات آلية ضئيلة جداً وفي غاية البساطة . فـلم تكن هناك رافعات ضخمة ، حتى ولا بكرة بحبال . كانت هناك فقط مئات من الأيدي البشرية لا غير .

أنبتت الثقافة المصرية رجالاً عظاماً – اداريين حكماء ، وكهنة علماء ، ومعماريين وفنانين وكتّاباً وشعراء موهوبين ، وجيشاً من الكتبة القديرين – ولكنها كانت في جوهرها ساكنة جامدة لا تتحرك . فهي لم تسع الى تطوير التفكير والمدارك ، ولا الى بعث الفضول الذهني وحب الاستطلاع العقلي . لم يكن ثمة شيء يبعث على الفضول وحب الاستطلاع . فالعالم هو على ما كان عليه منذ البدء وسوف يظل كذلك ابداً . فان ظواهره واحداثه الطبيعية فُسّرت تفسيراً كافياً مرضياً منذ زمن بعيد . وكل تجديد او ابداع كان يجب ادخاله ومطابقته ضمن اطـار النظام القائم . من بين خريجي هذه الثقافة الملتزمة بالتقاليد ، كان يتم اختيار الرجال الذين حكموا مصر باسم الملك . وكان هؤلاء يقسمون الى ثلاث فئات رئيسية سائدة – سلك الخدمة المدنية ، والجيش ، والكهنوت . وفي حين ان السلالة الثانية عشرة شهدت بروز طبقة متوسطة وافرة ، فـــانه لم يكن في

المملكة الجديدة شيء يصح ان تطلق عليه تلك التسمية . كان هنالك مجرد طبقة حاكمة ، وبقية الناس . اما الفنانون والصناع وأهل الحرف والتجار وصغار المزارعين ، بـــل كل الذين كان يمكن ان يؤلفوا طبقة متوسطة قوية ، فقد كانوا بكل بساطة ملحقين بواحدة او بأخرى من تلك الفئات الرئيسية الثلاث . وكانت أجورهم ، شأن الفلاحين العبيد المملوكين مـع الارض الذين كانوا يحرثون حقولها ، تدفع عيناً لا نقداً ، ولكنهم كانوا يختلفون عن الفلاحين المملوكين فقط بأنهم في منزلة أرفع وأكرم ، وبأن مهنهم وواجباتهم تدر عليهم رواتب أكبر . وكانت الفئات الرئيسية الثلاث يتنازعها الحسد والغيرة والتنافس على السلطان . ولم يكن يكبح جماحها ويوقفها عند حدها سوى الايمان بالنظام القائم مجسداً في الملكية . غير ان الجيش ورجال الكهنوت ما لبثوا ان استولوا على زمام الامور تحت حكم الفراعنة الضعفاء الذين جاءوا فيما بعد .

مهد الطريق لهذا الحدث ليس فقط امنحوتب الثالث وحده ، بل اسلافه ايضاً . فملوك السلالة الثامنة عشرة ظلوا يغدقون الاراضي والكنوز على الإله الطيبي آمون حتى بلغت ثرواته حداً اصبحت معه تضارع ثروات العرش . ولذلك بات رؤساء كهنته الذين يقاسمونه النعيم المقدس يملكون المساكن الفخمة ، والعقارات والاطيان ، والعبيد الخصوصيين . وباقدام الفراعنة على جعل آمون إله الدولة وملك جميع الآلهة ، فقد وضعوا سائر الآلهة

المصرية الاخرى ، وكهانها ، وعبادها ، ومعابدها ، تحت ادارة طيبة واشرافها . وهكذا اصبح احد موظفي طيبة الرسميين ، وغالباً ما يكون الكاهن الأعلى لآمون ، « ناظر جميع الكهنة في القطرين » . فلا عجب اذن ان يعتبر كهنة الكرنك انفسهم حماة الايمان — والمحافظين ، بالمناسبة ، على الاوضاع الراهنة .

ومن الجهة الثانية ، كان الملوك المحاربون من حكام السلالة الثامنة عشرة يذهبون الى أبعد الحدود في مكافأة ضباط جيشهم البسلاء ، فيسندون اليهم مناصب رفيعة في الادارة. لقد أدخلوا رفاقهم السابقين في السلاح الى عائلاتهم ووضعوهم مواضع الثقة او المودة والصداقة الحميمة . بل انهم أنعموا على المحاربين القدماء برغد العيش الذي كان للكتاب والكهان. ومع ان هؤلاء الرجال العسكريين الذين وزعـــوا على مختلف الدوائر الحكومية كانوا يؤلفون زمرة خاصة فيما بينهم تكاد تكون قوية محصنة كسلك كهنوت آمون ، فقد ظل في استطاعة امنحوتب الثالث ان يحتفظ بزمام الامور ويضبط السلطة . فمجرد كون الجهـــاز الحكومي في عهده ادارةً متشابكة ، يحتل فيها ضباط الجيش المتقاعدون مناصب مدنية ودينية ، ويشغل الكهنة فيها مراكز في سلك الخدمة المدنية ، وبالعكس ، أي ان يتولى موظفون مدنيون مناصب ذات اعتبار اكليريكي ، أقول ، ان مجرد كون اوضاع الادارة على هذا الشكل أعطى مزيـــداً من القوة للعرش . فما دام لا يسمح لأية فئة ان تطغى وان يكون لها اليد

العليا ، فان الخلافة السلالية على العرش كانت تبدو مضمونة .

كان الوزير في عهد امنحوتب الثالث ، على ما كان مألوفاً منذ زمن بعيد ، الآمر الناهي بعد الملك مباشرة . وفي حين ان احد افراد الحاشية ، مثل امنحوتب ابن حبو الذي كان في وقت ما كاتب التجنيد ، كان يمكن ان يتفوق على الوزير من حيث الحظوة لدى الملك ومن حيث النفوذ الواسع ، فان مهام الوزير لم تتغير كثيراً على الاجمال منذ زمن تحتمس الثالث ، عندما سجل رخمير على جدران ضريحه بياناً بواجباته ومنجزاته مستعيراً لذلك نصاً من زمن المملكة الوسطى . كان الوزير يهيمن باسم الفرعون على كل دائرة من دوائر الحكومة . وكان يتبادل التقارير مع أمين الخزانة ، ويراقب الورش الصناعية والمخازن الملكية . وكان يشرف على الكهنة وعلى أملاك المعابد ، ويقوم مقام وزير الحربية والبحرية ، ويتولى شئون الدفاع الداخلي والتجنيد الاجباري (الى حد ما على الأقل) ، ويجري التعيينات الثانوية في كلا الحقلين المدني والكهنوتي . وكان منصبه مسئولاً عن أعمال المساحة التفصيلية للاراضي ، كما كان يضبط اعمال تقدير الضرائب وتحصيلها . وكان هو نفسه يرأس المحكمة العليا . وكان ايضاً قيماً على دوائر المحفوظات الحكومية والقانونية على السواء ، وأميناً على الصكوك والعقود . وبصفته وزيراً للجنوب ، فقد كان بحكم منصبه هذا عمدة طيبة ، وواحد على الأقل من وزراء امنحوتب الجنوبيين ، هو بتحوتمس ، كان ايضاً الكاهن الأعلى

لآمون . اما عن وزير الشمال فلسنا نعرف الا القليل ، ولكن المرجح ان مهامه لم تكن تختلف كثيراً عن مهـــام قرينه في مصر العليا .

كان ملوك السلالة الثامنة عشرة الأولون قد تخلصوا من الولاة ، اولئك النبلاء الوراثيين الذين كانوا حكاماً للاقاليم ، بعد ان أثاروا الكثير من المتاعب والمشاكل بسبب استقلالهم وتفردهم في حكم اقاليمهم . فاستبدلوا بعمد المدن الرئيسية في مصر العليا والسفلى على السواء . وكان قـــد قيل ان حضارة مصر كانت «حضارة بدون حواضر» . والواقع على كل حال انه كانت هناك مدن ذات اتساع ملحوظ ، يمكن مقارنتها مقارنة طفيفة بمدن الكاتدرائيات التي قامت في اوروبا في اوائل العصر الوسيط ، وقد نشأت حول المعابد الاكثر اهمية ، وقامت فيهـا مقرات الحكومات المحلية على اعتبار انها كانت عواصم اسمية . وكان بعض عمد الاقـــاليم الذين تعينهم طيبة يتحدرون من سلالات الاشراف العريقة ، ولكن اغلبهم كانوا يعينون في تلك المناصب لاعتبارات سياسية ويختارون من بين ضباط الجيش المتقاعدين او من اقرباء اعيان طيبة . وكان هؤلاء احيـــاناً غير اكفاء ، واحياناً ذوي قابلية للفساد ، ولكن مهامهم ونشاطاتهم كانت محدودة جداً ومقتصرة على الشئون المحلية ، وتخضع لاشراف الادارة المركزية . وكانت مسئولياتهم تنحصر في المحافظة على سير اعمال الري في مقاطعاتهم ، وربما في تجنيد العمال لصيانتها

بالسخرة ، وفي تحصيل الضرائب . وكانوا ايضاً يرأسون المحاكم المحلية .

كان النظام القانوني والقضائي المصري القديم منسقاً تنسيقاً جيداً وراقياً بشكل ملحوظ مدهش ، شأن الكثير من نواحي الجهاز الحكومي الاخرى . وبالرغم من انه لم يصل الينا أي تشريع منصوص ، فهناك ما يحملنا على الاعتقاد بأنه كان ثمة دستور قانوني متبع ، وبأن الملك الذي كان هو القانون في الواقع ، احترم وطبق السوابق التشريعية ، ونادراً ما كان يمارس سلطته المطلقة بصورة استبدادية قاطعة على اشخاص رعاياه واملاكهم . حتى ان المتآمرين على العرش لم يدانوا الا بعد المحاكمة . واحقر فلاح كان بامكانه الاستئناف الى المحكمة العليا، التي يرأسها الوزير، وعند الحاجة القصوى كان يستطيع ان يرفع ظلامته الى الفرعون بالذات . كان هذا على الأقل ، هو المبدأ . ولكن قلما سارت الامور على ذلك الشكل من الناحية العملية . فان الرجل المسكين الذي لا حول له ولا طول كان من الحكمة ان يتجنب المحاكم والقضاء . فهو محظوظ اذا استطاع ان ينال قراراً عادلاً من محكمة محلية ، وهو اكثر حظاً اذا تمكن من الوصول الى محكمة الوزير . ربما كان من الممكن في ازمنة نظم الابوة السابقة السحيقة ان يوصل مدّع متواضع شكواه الى مسمع الملك ، ولكن من المشكوك فيه ان يكون قد اتيح له ابداً الوصول الى امنحوتب الثالث العظيم .

ان « حكاية الفلاح الفصيح » التي كتبت في عهد السلالة الثانية عشرة ، والتي كانت ، ربما ، تنبيهاً وعظة للقضاة ، تدل على ان خادم أي موظف رسمي غني ، كان له من الحصانة والمناعة آنذاك ما يتيح له السطو على فلاح فقير ونهبه دون ان يلقى أي عقاب ، في حين ان شكوى الضحية كان يمكن ان تعود على صاحبها بفلقة على القدمين . ولذلك يطلق بطل الحكاية احتجاجه بجرأة وشجاعة فيقول : « لا تسلبوا الرجـــل الفقير الضعيف ممتلكاته — أي نسمة حياته بالذات . لقد عينتم لتحكموا بين رجلين ، ولكن انظروا ، فانكم تؤثرون السارق وتؤازرونه . ان المرء يضع ثقته فيكم ، ولكنكم اصبحتم الجناة المذنبين ... انكم تملكون كل ما تحتاجون اليه ، وبطونكم ملأى ... انتم الآخذون ، اللصوص ، المستبيحون — ايها القضاة ! وانتم الذين جعلتم لتعاقبوا الاثم والشر ! » .

وعلى طريقة كتب الحكايات ، استطاع الفلاح ان يسترعي بكلامه التفات الملك اليه ، فاذا به يكافأ بما يساوي عشرة اضعاف الخسارة التي لحقت به . اما في الحياة الواقعية ، فان نتيجة مثل تلك الفصاحة قد تكون مختلفة جداً . ففي حين ان محاكم المملكة الجديدة عرفت ولا ريب قضاة عادلين واحكاماً عادلة ، الا ان الرشوة كانت متفشية بصورة عامة ، واللجوء الى الفلقة والجلد مألوفاً كثيرَ الوقوع . حتى ان الشهود كانوا يتعرضون للضرب . والعقوبات كانت صارمة . فمائة جلدة ، مقرونة احياناً بتسبيب

الجروح ، لم تكن من القصاصات النادرة . وكان يمكن ان يحكم على كبار المسيئين بقطع آذانهم او انوفهم ، او بنفيهم الى المناجم او المقالع النـــائية او الى مراكز الحدود الصحراوية البعيدة المكشوفة للرياح والزمهرير القارس . وان يكون التشويه والخبل والنفي من نصيب المسيئين ، فذلك يـــدل عليه اسم معسكر موحش اقيم على الطريق الى آسيا ، اذ اطلق عليه الاغريق لقب « ذوي الانوف المقطوعة » . غير ان الحكم بالموت كان نادراً نسبياً ، ولا احد يستطيع ان يلفظه الا الملك . وفي حالة صدوره ضد مذنبين من ذوي المراكز العالية ، كان العاهل ، اذا رأف وأراد الاحسان ، يخفف الحكم احياناً بأن يمنح المحكوم بالاعدام الخيار بين ان ينفذ الحكم فيه ، او ان يقدم على الانتحار .

ومع ان العدالة لم تكن في بعض المناسبات عمياء فحسب بل صماء ايضاً ، فان المصريين ظلوا مشاكسين محبين المنازعات بشكل لا يمكن اصلاحه . فالوثائق القانونية التي خطها الكتبة القدامى تبين ما لا حد له من الخلافات الطفيفة حول حقوق الاراضي والميـــاه والميراث ، ومن دعاوى الابتزاز والسرقة والتهجم العدواني . وانصافاً للقضاة ، يجب القول ان مهمتهم لم تكن سهلة البتة . فالمدعي والمدعى عليه كانا يؤديان شهادات متضاربة وقد حلف كل منهما اليمين القانونية ، وكان على المحكمة ان تقرر أياً منهما هو الذي اقسم يميناً كاذبة . وعلى الرغم من الضرب ، كان الشهود يحلفون زوراً وبهتاناً . اما خاسر الدعوى فكان يقتضي

تقييده ، تحت طائلة التأديب البدني ، لكي ينصاع لقرار القضاة. فمن العجب اذن ان تكون العدالة، ولو خاماً، قد تحققت ابداً. ولكنها كانت تتحقق فعلاً ، وفي بعض الاحيان حتى اذا كان المتقاضون اشخاصاً بارزين واصحاب مقامات رفيعة .

كثير من المستندات القانونيـــة، بالاضافة الى عدد لا يحصى من الوثائق الادارية ، يتعلق بشئون الضرائب ، وانه ليصعب على المرء في الحقيقة ، ان يتجنّب الفكرة بأن فرض الضرائب وتحصيلها كان المهمة الرئيسية للحكومة . فكل شيء في مصر كان خاضعاً للضريبة ، ولكن ثروة البلاد ، وبالتـــالي مصدر الدخل الرئيسي للدولة كان ينتـــج عن الاراضي . وليس من الضرورة ترديد القول كثيراً بأن جميع الاراضي كانت تخص الملك بالمعنى الحرفي المطلق .

ان نظرية ملكية العاهل كانت معروفة في بلدان كثيرة ، بما في ذلك بلدان الغرب ، ولكن هذه النظرية ظلت في مصر موضع الممارسة الفعلية حتى عصر ليس ببعيد . فمنذ مائة عـــام كتبت الليدي لوسي دوف — غوردون ، وهي على فراش الموت في منزلها الذي كان يقوم بين اطلال هيكل امنحوتب في الاقصر ، وهو المكان الذي عاشت فيه وسط القرويين الفلاحين الذين احبوها واجلوها كحبهم واجلالهم للاولياء القديسين ، كتبت ساخطة حانقة تقول: «ان الارض بكاملها تخص سلطان تركيا، والباشا بصفته وكيلا (ممثلا) له . . . وهكذا فليس هناك ملاكون

او اصحاب ارض ، وانما فقط مؤاجرون يدفعون ما يراوح بين مائة قرش وثلاثين قرشاً عن كل فدان في السنة ، بحسب نوعية الارض او بحسب الحظوة والكرامة لدى الباشا عندما يمنحهم ايجارها . وهذا الايجار يؤول بالوراثة الى الابناء — ولكن ليس الى الاقرباء من الحواشي او الاسلاف — ويمكن كذلك بيعه شرط تقديم طلب بذلك الى الحكومة . واذا مات مستأجر الارض وليس له اولاد ، فان الارض تعود الى السلطان ، أي الى الباشا، واذا شاء الباشا ان يمتلك ارض اي انسان، فبامكانه ان يأخذها منه عند دفع ثمنها — او عدمه . ولا تصدق احداً اذا قال لك اني ابالغ، فأنا اعلم ان ذلك قد حدث : اعني عدم دفع ثمن الارض، والرجل الذي كانت له الارض نال فداناً في الصحراء القاحلة بدلاً عن كل فدان من ارضه الطيبة التي حرثها وزرعها وسقاها » .
(كتاب « رسائل من مصر » ، لندن ١٩٠٢ ، ص ٢٠٢) .

في زمن امنحوتب الثالث ، كان ثلث الاراضي المنتجة على الاقل ، وربما اكثر من ذلك ، يقع مباشرة تحت ملكية التاج . وكان قدر مماثل تقريباً من الاراضي يخص المعابد ، والغالب بينها على الاخص معبد آمون في الكرنك . امـــا البقية الباقية فكانت مقسمة الى عقارات كبيرة وصغيرة يتولاهـــا التزاماً واقطاعاً اشخاص يتمتعون بحظوة لدى العرش . قطع قليلة جداً من الاراضي كان يستثمرها مزارعون صغار ، ويستقلون في حراثتها واستغلالها بمساعدة عائلاتهم . اما ممتلكات التاج والمعابد

والاقتلكات الضخمة ، فكان يحرثها ويعمل فيها الفلاحون المملوكون معها او العبيد الارقاء تحت ادارة الوكلاء والنظار ، او كانت مقسمة حصصاً تؤجر لمزارعين مستقلين يستثمرونها بالشراكة .

كانت اراضي التاج (او الدولة) تضم المساحات الواسعة المخصصة للملكة وغيرها من افراد العائلة المالكة لاستعمالهم الخاص ، والاراضي المعينة للحريم الملكي ، وتلك التي كانت نتاجها ، بالاضافة الى الهدايا والعائدات الاخرى ، يذهب مباشرة الى كيس الملك الحاكم . ومع تعاقب الاجيال ، افردت قطع شاسعة من الاراضي وخصصت اوقافاً للمحافظة على معابد الحكام الراحلين ودعم عباداتهم وطقوسهم الدينية . وكانت تلك الاوقاف تخضع لاشراف الملك الحاكم وادارته ، ففي حين ان معظم الملوك ترددوا في التعدي على ممتلكات الآلهة العظام ، الا انهم لم ينظروا في الغالب تلك النظرة المقدسة العجيبة الى ممتلكات الجدود . وكان الاستخفاف والاهمال ينصبان ، بصورة خاصة ، على الهياكل المدفنية التابعة للحكام الذين فقدوا اعتبارهم او الذين لم يكن لهم شأن كبير ، فتترك لتتهدم وتستحيل انقاضاً ، ويعرض عن طقوسها وشعائرها ، وتحول عائداتها — بل وغالباً حجارتها بالذات — في سبيل منافع الفرعون الحاكم .

ومع ان الهبات والاوقاف الملكية من الاراضي التي كانت تمنح لبعض الافراد من اجل اقامة اضرحتهم وطقوسهم الجنائزية ،

وهي « النعم من الملك » التي غالباً ما اغدقت على اهل الحاشية في الماضي ، مع انها قد تضاءلت بصورة حتمية (كنتيجة لتزايد عدد السكان وتناقص الاراضي الصالحة للزراعة) حتى كادت تصبح قاعدة فارغة ، فان حالة من الركود والموات ظلت جاثمة بثقل ملحوظ على الوضع الاقتصادي . فقد انفقت مبالغ ضخمة من الاموال على بنـاء وتجهيز الاضرحة الخاصة ، واوقفت على امدادها وصيانتها املاك خصوصية كثيرة . وكأن الهبات والاوقاف الملكية لهياكل الآلهة والملوك المؤلهين لم تكن كافية ، فقد راح الرجال الرسميون يضيفون اليها ويزيدون عليها بهبات وتبرعات منهم ايضاً ، تزلفاً وطمعاً بنيل الحظوة والرعاية ليس فقط من لدن الآلهة ، بل ومن لدن الفرعون ايضاً . فقد اوقف احد الموظفين في عهد امنحوتب الثالث هبة خاصة على تمثال من تماثيل الملك في الهيكل المدفني لهذا الاخير في ممفيس لانه اثرى واغتنى ، كما ذكر هو نفسه بصراحة في ضريحـه ، بفضل كرم العاهل وجوده وانعامه . كان ذلك الموظف ، بالمناسبة ، هو الآخر يحمل اسم امنحوتب ، وكان من مواليد ممفيس ، وقد روى سيرة تدرجه في الحياة فكانت معادلة في الروعة لسيرة حيـاة امنحوتب ابن حبو . والظاهر ان نسبه في الاصل كان اكثر تواضعاً من نسب ابن حبو ، ولكنه هو ايضاً تقدم وارتقى حتى اصبح مسجل المجندين ، فمهندساً ملكياً ، وبلغ اخيراً منصب « وكيل الخرج الاعلى » لاملاك الفرعون في ممفيس (مما حدا به الى القول : « ان عصاي كانت دائماً فوق رؤوس الشعب ! ») .

وقد بلغت ثروته حداً اتاح له ان يهب ثلاثمائة فدان من الارض كوقف لتمثال ملكه ، او « صورته الحية » .

بالرغم من ان جميع الاملاك كانت تخص الملك ، فان الملكية الفردية (كما ألمحنا سابقاً) كانت قائمة نسبياً . وكان في استطاعة اصحاب الاملاك الخاصة ان يبيعوها او يوصوا بها اذا شاءوا ، بعد اجراء المعاملات الرسمية اللازمة . حتى الاراضي المستأجرة كانت تنتقل بالوراثة ، كما ان منصب وكالة الخرج ، شأن سواه من الوظائف ، كان في بعض الاحيان يبقى في العائلات ذاتها عدة اجيال . صحيح انه اذا سقط امرؤ من الاعتبار الملكي ، فان اراضيه واملاكه تصادر . وتبدل عهد بعهد ، خاصة تغير السلالة الحاكمة ، كان يؤدي بصورة محتومة تقريباً الى اعادة النظر في توزيع الاملاك مما كان مؤلماً لبعض الناس . ولكن على الاجمال ، كان الملوك والاشراف يفخرون ويتباهون بأنهم « لم يسلبوا رجلاً قط ميراثه » ، وظل الاستقرار يهيمن على وضع البلاد الاقتصادي ، الا في اوقات الازمات الكبرى .

كانت الضرائب تجبى عن جميع الاراضي ، والبهائم والمواشي ، والفلاحين المملوكين والعبيد . ومع ان بعض الاعفاءات المعينة كانت تمنح بالنسبة لممتلكات المعابد ، فان الحقول والمزارع الخاصة بالآلهة كانت تؤدي العشور للملك . والمزارعون المستأجرون ، لا فرق أكانوا يستغلون املاكاً خاصة او اراضي عائدة للمعابد او التـــــاج ، كانوا يدفعون الضرائب عن الحصص التي ينالونها من

محصول الارض لقاء عملهم . وبما ان الضرائب كانت فيما يظهر تقرر على اساس التقدير والتخمين عوضاً عن المحصول الفعلي ، فقد كان هناك محاولة لتوزيع العبء بانصاف . وكان القانون يميّز بين الاراضي الزراعية وبين المراعي ، بين الحقول الفقيرة المجدبة وبين الحقول الغنية الخصبة ، بين البقاع التي يشملها الفيضان وبين الاملاك المروية اصطناعياً ، واخيراً بـــين الاراضي التي استصلحت منذ زمن طويل وبين الاراضي المستصلحة حديثاً . وكانت الكوارث الطبيعية ، مثل عدم فيضان النهر ، تؤدي الى خفض الضرائب وتخفيفها . وفي حالات الحاجة الضرورية القصوى ، كانت الحبوب تعطى للمزارعين من اجل بذار الموسم التالي ، كما كانت الاطعمة والمؤن توزع على الناس من مستودعات المعابد والمخازن الملكية .

من الواضح ان نظاماً معقداً كهذا لتحديد ملكيات الاراضي ووضع نظام الضرائب ، كان يجب ان يستند الى احصاء السكان ، وعد المواشي والقطعان ، واجراء عمليـــات المساحة التفصيلية بصورة متكررة لضبط المناطق المزروعة ولاعادة تقرير الحدود التي يطمس الفيضان السنوي معالمها . وكانت عملية التسجيل تتعقد وتتعرقل بسبب ان اراضي الملاكين الكبار لم تكن بقعة واحدة الا في حالات نادرة . فالاطيان الملكية وعقارات المعابد والاعيان كانت تتألف من حصص متفرقة متباعدة جداً من اراضٍ زراعية ومراعٍ وجنائن وكروم . والكثير من اراضي

التاج ، وجزء كبير من اراضي إله الكرنك آمون كانت تتوزع في منطقة الدلتا الخصيبة التي تتوفر فيها، فيما يتوفر من الخصائص المرغوبة ، المراعي المناسبة الماشية التي يحتاج الى اعداد كبيرة منها لاغراض التضحية وحدها . وكان لكثير من اهل طيبة الاثرياء املاك هنا وهناك في مصر السفلى ، وبالمقابل ، كان اهل مصر السفلى يملكون بقاعاً في وادي النيل بالجنوب. هذا التوزيع للاملاك في حصص صغيرة ، ربما كان يعود جزئياً الى طبيعة البلاد الجغرافية ، الا ان مزيته كانت في عدم استطاعة أي ملاك فرد قوي ان يتحكم في منطقة كبيرة من الارض، بكاملها ، وفي سكانها .

وكان ضبط الحسابات فيما يتعلق بشئون الضرائب اكثر تعقيداً بسبب ان جميع الضرائب كانت تدفع عيناً ، بالاصناف وليس نقداً. وهذا يعني ان كميات ضخمة من الحبوب والحاصيل، والابقار وسواها من المواشي ، والمنتوجات الصناعية من جميع الاشكال والالوان ، كان يجب جمعها محلياً ، وخزنها تمهيداً لشحنها ، واخيراً تسليمها الى المخازن والمستودعات الملكية ، من حيث يجري توزيعها في سبيل احتياجات الجيش ، وموظفي الحكومة ، وأسرة الملك الكبيرة، وفي سبيل الصفقات التجارية الملكية . وكان امين الخزانة الملكية موظفاً مهماً عظيم الشأن ، ذلك انه وعماله ومعتمديه كانوا مسئولين عن تسلم تلك المدفوعات المربكة المرهقة وتوزيعها . وكان الكتبة التابعون للخزينة

ينتشرون حشوداً في انحاء البلاد لضبط الايرادات والتحصيلات في كل مرحلة من مراحل رحلاتهم .

« لا تعبث بالموازين والمكاييل » ، يقول احد حكماء المملكة الجديدة . « لا تتآمر وتتواطأ مع كيّال الغلال » . ذلك ان جميع الناس ، من أعلى الى اسفل ، كانوا ميالين الى غش الحكومة واختلاسها . كانت توضع البيانات الملفقة ، والارقـــام تزور ، والمكاييل يعبث بها . وكان المراكبيون الذين ينقلون الحبوب الى المخازن ينشلون منها حصة لهم . وجباة الضرائب كان يمكن « تدبيرهم » . اما المزارع المستأجر للارض ، « وحسابه يدوم الى الابد » ، فلا احد مطلقاً كان يتوقع منه سوى الغش والخداع .

يتضح من الادب الشعبي والمشاهد المرسومة ان العشر المفروض على الفلاح كان على الغـالب ينتزع منه بوحشية وظلم . « ألا تذكرون حالة الفلاح الذي واجه مسألة تسجيل ضريبة الغلة ، بعد ان كانت الافعى قد ذهبت بنصف الحبوب والتهمت فرس الماء البـــاقي ؟ ان الفئران وفيرة في الحقول . والجراد يهجم . والابقار تلتهم . وعصافير الدوري تحمل النكبات ... والذي يتبقى على البيدر ... يقع في ايدي اللصوص . وفدان الثيران (ويرجح أن المزارع كان يستأجر الفدان ، كما جرت العادة) مات وهو يدرس ويحرث . والآن ، يحط الكاتب على ضفة النهر ليسجل ضريبة الغـــلة ، ومعه حراس يحملون الهراوات ورجال شرطة نوبيون يحملون قضبان النخيل ، ويقولون له :

«سلّم الينا الحبوب» ، على الرغم من انه ليس هناك أية حبوب. ويُضرَب الفلاح ، ويوثق ، ثم يرمى به في بئر ، ورأسه الى اسفل. في حين ان زوجته تكون قد قيدت بالاغلال امام عينيه ، واولاده مكبلون بالاصفاد . ويتخلى عنه جيرانه ويلوذون بالفرار . وحتى مع هذا ، تختفي الحبوب ». (مقتبس عن السير آلان ه. غاردنر من كتابه « اخبار علم الآثار المصرية » ، المجلد ٢٧ ، (١٩٤١) ، ص ١٩ — ٢٠) .

هذا الوصف الحزن المقتبس عن واحدة من الوثائق الكثيرة في مدح مهنة الكاتب ، قد يكون مبالغاً فيه ، ولكن له دون ريب اساساً من الحقيقة المرة . وتنتهي الفقرة المقتبسة بالقول ان « الكاتب يفوق جميع الناس — فهو لا يخضع للضرائب ، وليس عليه ان يدفع اية رسوم » . ولكن الآخرين كانوا جميعاً مكلفين بدفع الضرائب مباشرة او غير مباشرة ، وكان البعض يدفعون ضرائب مضاعفة . فصيادو الاسماك والطيور والحيوان يؤدون العشر عما اصطادوه . وصاحب الاملاك يدفع ضريبة عن فلاحيه المملوكين وعن عبيده وعن محاصيل اعمالهم ايضاً . والمنسوجات واوراق البردي والجلود — وجميع الاصناف المصنوعة على يد الافراد — كانت تعود بالرسوم العينية على مخازن الملك . والصناعة كانت عادة على نطاق ضيق . وفي حين ان الورش الصناعية الكبيرة نسبياً التي تنتج فائضاً من المواد كانت ملحقة بالقصور والمعابد والاملاك الكبيرة ، فان هنالك ما يثبت ان الكثير من المصنوعات كان يقتصر على سد الاحتياجات الفردية.

كان الحياكون يحتلون الطبقات الارضية من الابنية الكبيرة ، وكان القرويون في الغالب يملكون أنوالهم الخاصة ، وكثير من المصنوعات التي حملت صفة الاستعمال الشعبي كانت من انتاج الصناعة في الاكواخ لمنفعة اصحابها وجيرانهم فقط . اما التجارة في معظمها ، باستثناء الصفقات الطفيفة ، فكانت محصورة في يد الملك والإله آمون، وكلاهما كانت له قوافله واساطيله التجارية. وكانت جميع السلع الاخرى تدفع رسوم استيراد وتصدير ، والبضائع والمنتجات التي كانت تنقل عبر النيل الى الشمال او الجنوب ، كانت تخضع لضريبة المكس او الدخولية .

ان تحديد قيمة الضرائب المباشرة مسألة تعتمد على مجرد الظن والتخمين ، ولو ان هناك اعتقاداً بأن نسبة العشرين بالمائة التي ورد ذكرها في سفر التكوين بالتوراة (٤٧ : ٢٤، ٢٦) يمكن ان تكون صحيحة على وجه التقريب . وقد يكون تم تحصيل اكثر من هذه النسبة عن طريق الضرائب غير المباشرة. وأحد اشكال الضريبة غير المباشرة، كان تجنيد الرجال اجبارياً للعمل في المقالع وفي مشاريع البناء الملكية . وعلاوة على هذا ، كان من الممكن مصادرة المراكب الخاصة لتوضع قيد الاستعمال العام ، وليستقلها الموظفون الرسميون في اسفارهم من اجل مشاريع الملك واعماله . وكان هؤلاء الموظفون يتوقعون ان يقدم لهم الطعام والمأوى مجاناً اثناء رحلاتهم . بل انهم كانوا يتجاوزون القانون احياناً ، كما تبين الوثائق ، فيطالبون الناس

بنقلهم واستضافتهم حتى في اثناء سفرهم لمصالحهم الشخصية او للهو والنزهة . وكانت قوات الجيش الداخلي وقوات الشرطة تتلقى مؤنها واحتياجاتها من المجتمعات التي ترابط فيها وتقيم بين اهلها ، مع العلم بأن الاطعمة والمؤن التي تقدم لتلك القوات كانت تحسم من الضرائب المستحقة للتاج . ولكن الجنود ايضاً كانوا في بعض الاحيان يسخرون الناس ببعض الاعمال ويستولون على بعض المؤن دونما ترخيص او تفويض . واخيراً ، فان « الهدايا » من المحاصيل الزراعية والادوات المصنوعة التي كان يقدمها افراد الحاشية للملك يمكن ادخالها ايضاً في حساب الضريبة غير المباشرة ، ذلك لانها كانت هدايا متوقعة مرتقبة تـؤدّى في مقابل الرعاية والرضى الملكيين .

الظاهر ان احداً لم يسلم من الضريبة الا الكاتب (اذا كان يمكن تصديقه) . وقد يكون شاركه في هذه الحصانة المغبوطة اولئك الذين لم يكن عندهم اراض واملاك ، ولكنه كان يعتبر نفسه ارفع منهم وافضل ، على اعتبار ان في استطاعته المفاخرة بأن ثيابه نظيفة ، ويديه سالمتان من الكد والعناء . اما علاواته فلم تكن في الغالب تزيد كثيراً عن علاوات معظم العمال اليدويين الذين كان يلقن على بغضهم والكيد بهم . ولكن كان بامكانه في كثير من الاحيان ان يجني بعض الربح الاضافي ، وباستطاعته ، اذا كان ذكياً حاذقاً ، ان يستعجل ترقيته عن طريق المداهنة والمحاباة ، او بواسطة الهدايا الصغيرة ، شرط ان تبذل بحكمة وفطنة في المواضع المناسبة .

كان في زمن امنحوتب الثالث موظفون نزهاء مستقيمون ، ولكن هناك ما يحملنا على الاعتقاد بأن الجهاز الحكومي كان يعمه الفساد . فلم يكن يفوت المقربين من الملك ان يستغلوا الناحية الانسانية من طبيعته المزدوجة ، ولا ريب في انه كان بينهم مَن عملوا من اجل منافعهم الخاصة مطمئنين الى انهماك حاكمهم في مباهجه وملذاته . وما داموا لا يغالون في توسيع سلطاتهم واستغلالها بحيث يثيرون الغيرة والحسد في نفوس زملائهم ، فقد كان يتاح لهم التنعم بالفوائد غير المشروعة من وراء وظائفهم دون ان ينكشف أمرهم . وفي الدرجات السفلى من السلم ، كان المئات من الموظفين من ذوي الاجور الزهيدة ينغمسون في عـــادة الارتشاء القديمة العهد ، معرضين انفسهم للضرب او لما هو اسوأ من ذلك في سبيل زيادة مدخولهم . اما الملك فقد ظل لا يبالي ولا يكترث ، ما دامت ايرادات التاج وعائداته كافية للمحافظة على مظاهر ابهته وزهوه .

بالاضافة الى الثروات التي كانت تدرها بــــلاد القطرين والمستعمرة النوبية ، كانت الخزانة الملكية تزداد غنى بمــــا يرد عليها من الشرق . فان آسيا كانت تقدم اشياء كثيرة مما تشتهيه مصر – النحاس والفضــــة ، والاخشاب الثمينة ، والخيول ، والزيوت والخمور النادرة ، والبضائع المترفة المصنوعة بمهارة في ورش اجنبية . ومن الدول التابعة والموالية ، اتى العبيد لسد الحاجة الى الايدي في الاعمال الزراعية والعمرانية ، والفتيات

الغريبات الجمال لبيوت حريم الملك وافراد حاشيته (كتب امنحوتب في رسالة الى حاكم جازر [وهي مدينة كنعانية قديمة ورد ذكرها في العهد القديم مراراً] مطالباً : « ارسل لي اربعين امرأة جميلة ، شرط الّا يكون بينهن مشاغبات ! ») وكان بعض هذه الثروات يصل الى الفرعون على سبيل الجزية ، اما الباقي فكان يتم الحصول عليه عن طريق التجارة والمقايضة بالجلود المدبوغة والمنسوجات وورق البردي والحبوب والمصنوعات اليدوية وسبائك الذهب . لقد كان من المهم لمصر ان تحافظ على العلاقات الطيبة مع آسيا . ولذلك فان الملك بنفسه ، كما هو متوقع ، كان يملي سياسة مصر الخارجية ويقررها . وفي معاملاته مع الشرق ، كان امنحوتب الثالث بعكس اسلافه يعتمد عـــلى الدبلوماسية اكثر من اعتماده على السلاح . وربما كان ذلك نتيجة جمود الملك وخموده ، ولكنه قد يكون ايضاً دليلاً على حكمة وفطنة عظيمتين . ذلك ان قوى مقتدرة شديدة البأس قامت في آسيا ، وكان يمكن لصراع مكشوف معها ان يؤدي بمصر ، رغم كل ثرواتها وامكاناتها ، الى حد الخراب والانهيار .

تكشف مراسلات امنحوتب الثالث مع « اشقائه » الملكيين في آسيا البعيدة ، وهي مراسلات كتبت وحفظت على رقاع مسمارية وعثر عليها بين محفوظات الدولة في تل العمرنة ، تكشف عن ان الدبلوماسية كانت منذ ثلاثة آلاف سنة ، كما هي اليوم في الغالب ، تعبيراً مهذباً للمساومة . وكان استتباب الامن والسلام

يعـــود جزئياً الى بعض مظاهر القوة (فقد ظل في النقاط الستراتيجية في فلسطين وسوريا ولاة مصريون وحاميـــات عسكرية مصرية) ، ولكن بصورة رئيسية الى اثر الذهب ، في نفوس الحكام كما كانت العلاقات الطيبة توطد وترسخ عن طريق التزاوج والمصاهرة . فالحكام الشرقيون كانوا طماعين نهمين . « ان الذهب مثل التراب في بلاد اخي » ، هذا ما كتبه ملك المثانيين الى امنحوتب الرابع . وقد انهمر الذهب في الواقع على البلدان الاجنبية ، وكأنه شيء اعتيادي لا قيمة له ، يستخدم علانية لابتياع الولاء ، وبصورة غير مباشرة ولكن للغرض ذاته كمهور تدفع للعرائس من بنات الامراء الاجانب .

اتخذ امنحوتب في مطلع عهده احدى بنات ملك المثانيين زوجة له ، واسمها « كرجيبا » ، واعلن اقترانه بها على احد جعرانات التذكارية الشهيرة ، واصفاً اياها بأنها « اعجوبة جيء بها الى جلالته ، ابنة امـــير بلاد ما بين النهرين (العراق القديم) المثاني . . . ومعها افراد حريمها، ٣١٧ امرأة» . وقبل وفاته بوقت قصير ، ارسلت الى الفرعون اميرة مثانية ثانية على أمل ان يجعل منها زوجته الملكية الكبيرة و « سيدة مصر » ، ولكن الزواج لم ينجز ، وظل شرط اتمامه الاساسي غير مقضي . ولكن امنحوتب استقبل في هذه الاثناء ، على كل حال ، احدى بنات ملك ارزوا في حريمه المضياف ، واحدى بنات ملك بابل ، كاداشمان — انليل الاول .

ان الرسائل المتبادلة بشأن هذه الزوجة الاخيرة ، تحمل التسلية والمغزى في وقت معاً . فعندما طلب امنحوتب الاميرة للزواج ، تجرأ كاداشمان – انليل على طلب احدى بنات الفرعون بالمقابل . ولكن طلبه رفض بعنجهية وازدراء : « منذ اقدم الازمان لم تمط ابنة ملك من ملوك مصر لاي كان » . فأجاب الملك البابلي بوقاحة : « انت ملك ، وانك تقدر ان تقضي بحسب ما يشتهي قلبك . فاذا اعطيت ، فمن الذي يستطيع ان يقول شيئاً ؟ » وأضاف بذكاء ان أية امرأة جميلة كان يمكن ان تفي بالغرض ، لانه « من سوف يقول انها ليست ابنة ملك ؟ » ومع ان كاداشمان – انليل وافق في النهاية على ان يبيع ابنته لامنحوتب بثمن معين ، فان المرء ليتساءل ما اذا لم يكن البابلي الماكر قد قلب الخدعة على امنحوتب فأرسل له امرأة جميلة غير معروفة بدلاً عن ابنته التي من لحمه ودمه .

كثير من المراسلات الاجنبية ينم عن قدر من الدالة وعدم التكلف حيال الفرعون من قبل الامراء الشرقيين . على ان بعض الحكام الموالين ظلوا يخاطبونه بعبارات مسرفة في التبجيل : فكان هو ربهم وشمسهم ، وكانوا هم الارض تحت قدميه . ولكن المبادلات الدبلوماسية تبين ان حكام الدول الاكثر اهمية وشأناً كانوا يعتبرون انفسهم انداداً متساوين مع الملك المصري – اخوة له . فالطريق كان مفتوحاً اذن امام قوة جديدة عظيمة ، الحثيين ، للاستيلاء على آسيا . وقبل وفاة امنحوتب الثالث ،

كان هؤلاء المحاربون الاناضوليون قد اخضعوا لسلطانهم الملحقات المصرية سابقاً في سوريا الشمالية .

بدأت الامبراطورية تترنح ، بل لقد كان هناك تيار من القلق والاضطراب في مصر بالذات . وليس يعرف ما اذا كان الملك قد وعى هذه الحقيقة ، أم انه ظل منعزلاً عنها بعنجهيته وعجرفته . وفي حين ان معظم المؤرخين المعاصرين ينظرون الى امنحوتب الثالث على انه رجل كسول خامل لا مبال ، عشق الترف والرفاهية والنساء ، وانه بمجرد قصوره الذاتي ، سمح للبلاد والامبراطورية بالانزلاق نحو الكارثة ، فان قلة من هؤلاء المؤرخين تعتبره وابنه من بعده تجسيداً لروح تقدمية متطورة سعت الى تحطيم النزعة التقليدية المخدرة التي كانت مسيطرة في الماضي . بل ان بعض العلماء يذهبون الى حـــد شطر مصر في أواخر عهد السلالة الثامنة عشرة الى حزبين ، حزب محافظ يتألف من الكهنة والرجال الرسميين ، وحزب تقدمي يتألف من الجيش والمأمورين العسكريين المخلصين للملك الذي يتزعمهم . ومن المؤرخين من يزعم بأن رفع امنحوتب لزوجته تيي الوضيعة الاصل الى مركز الزوجة الملكية الكبيرة كان هجوماً واعياً مباشراً ضد الرجعيين وضد الديانة القائمة التي كانت تفرض ان يتزوج الحاكم اخته الشقيقة ، لانها وحدها تليق بأن تصبح زوجة الإله ، وبأن تحمل ابناً لآمون يرث العرش .

من المقبول بصورة عامة ان الملكية المصرية كانت تنتقل

تقليدياً بواسطة الخط" النسائي . فالحاكم اذن كان مقيداً بأن يتخذ اميرة يجري في عروقها الدم الملكي كزوجته الكبيرة (ملكته) ، وغالباً ما كانت تلك الاميرة ، حسب المجرى الطبيعي للامور آنذاك ، اخته الشقيقة او اخته لاحد والديه . ولكن اذا تفحص المرء خط تعاقب السلالة الثامنة عشرة ، يتضح له على كل حال ان زيجات قرابة العصب او الدم الواحد لم تكن في الغالب تثمر عن وريث للعرش ، وفي هذه الحـــال كانت الوراثة تنتقل الى ولد زوجة ثانوية (أكانت تنتسب للاسرة المالكة ام لم تكن) او حتى الى ابن احدى المحظيات . وكان مثل هذا الابن يدعم عادة حقه في الوراثة الملكية بالزواج من احدى اخواته النصفيات او من سيدة اخرى لا مجال للشك في نسبها الملكي ، فيسميها ملكته ويترسخ هكذا الوهم الخالد ويستمر .

ولايضاح هذه القضية بصورة أسهل وأوضح ، نقول ان عدداً من ملوك السلالة الثامنة عشرة كانوا يتحدرون من الاصل الملكي لجهة الوالد فقط ، ولذلك فان تيي كانت اهـــلاً لحمل وريث العرش بقدر ما كان كثير سواها من العامة اهلاً لذلك . لقد تحدى امنحوتب الثالث التقاليد فقط بجعلها زوجته الملكية الكبيرة ، وهذا لقب جرت العادة على ان يكون وقفاً على اخوات الملك او بناته . ومن الممكن ان يكون تحديه هذا انتحالاً ملطفاً لصفته الالهية السامية اكثر مما هو تحد للسلطة

الدينية السائدة والحزب الحافظ . ولذلك ، فقد اقـــدم فعلاً حوالي اواخر عهده على الزواج من اميرة من الدم الملكي — هي ابلته هو بالذات ، سيتامون ، التي جعلها مساوية لتيي اي اعتبارها ملكته الكبيرة ، والتي (او هكذا يعتقد البعض) وضعت له ولدين هما سمنخقر وتوت عنخ آمون ، اللذين كان مقدراً لها أن يخلفا ابن تيي ، اخناتون ، في حكم القطرين حكماً قصيراً عديم الاثر .

على كل حال ، قليلة هي الدلائل على ان امنحوتب كان معادياً للديانة القائمة ، او انه شارك ابنه في نظرته الى أتون على انـــه الإله الاوحد . فهو لم يكتف ، كما رأينا من قبل ، بالتأكيد علناً على تمسكه بأبوته المقدسة ، بل انه لم يقصر ابداً في ولائه واخلاصه لابيه آمون ، فظل يشيد المعابد الرائعة تكريماً له ، ويغدق عليه الهدايا والعطايا الثمينة ، ويحيي اعياده باحتفالات غنية بهية لم يعرف لها مثيل من قبل . اما أتون ، او قرص الشمس ، فقد كان معروفاً منذ زمن بعيد لدى اللاهوت المصري . ولعل امنحوتب الثالث لم يبغ الا ابراز رع (او آمون رع) واظهاره للعيان عندما أقدم على بناء محراب صغير لقرص الشمس في معبد الكرنك ، وعلى تكريم أتون فقط باطلاق اسمه على قصره ومركبه الملكي وكتيبة من كتائب الجيش .

ان يكون الملك قد ادرك ، ولو ببعض الغموض والابهام على الاقل ، ان ثمة تهديداً يحيق بالعرش في طيبة الطموحة المضطربة ،

فذلك ربما يدل عليه اختياره للرجال الذين اولاهم المناصب المهمة في الحكومة . فمنذ عهد تحتمس الثالث ، اخذ مركز الثقل في البلاد يتحول تدريجياً من طيبة الى ممفيس . فكان ممثلون عن عائلات مصر السفلى يدعون اكثر فأكثر لتولي المناصب الرفيعة في العاصمة . اما في عهد امنحوتب الثالث ، فقد كانت المراكز الرئيسية الحساسة ، العلمانية منها والدينية على السواء ، توضع بصورة مطلقة تقريباً في ايدي رجال من الشمال . ورغم ان هذه السياسة لم تكن لترضي الاسر الطيبية التي كان قسم كبير منها يعتبر ان الامر مستتب له ، فان اقدام الملك عليها كتعبير عن روح تقدمية ونفسية متجددة يبقى امراً مشكوكاً فيه . ومن الممكن ان تلك السياسة كانت نتيجة للنفوذ الذي كان يمارسه على الملك اللامبالي صفيه المفضل ابن حبو ، وهو من مواليد مصر السفلى .

ويبدو ان امنحوتب ابن حبو كان ، مثل سننموت في الماضي البعيد ، قوة كامنة وراء العرش . وتبجحه بأنه كان « فم » سيده — الناطق بلسانه — لم يكن على الارجح مجرد تعبير اصطلاحي . لقد كان ابن حبو اكثر فطنة ودهاء من سننموت ، اذ استطاع كبح جماح مطامحه والتحكم فيها ، فما « تاق ابداً الى المناصب العليا » وانما رضي بالعمل بهدوء وصمت في مناصب قليلة الشأن نسبياً . كان ابن عائلة ريفية ، وقد بدأ حياته ككاتب . ولكن كان من جراء براعته الفائقة في كتابة « الكلمات المقدسة » ،

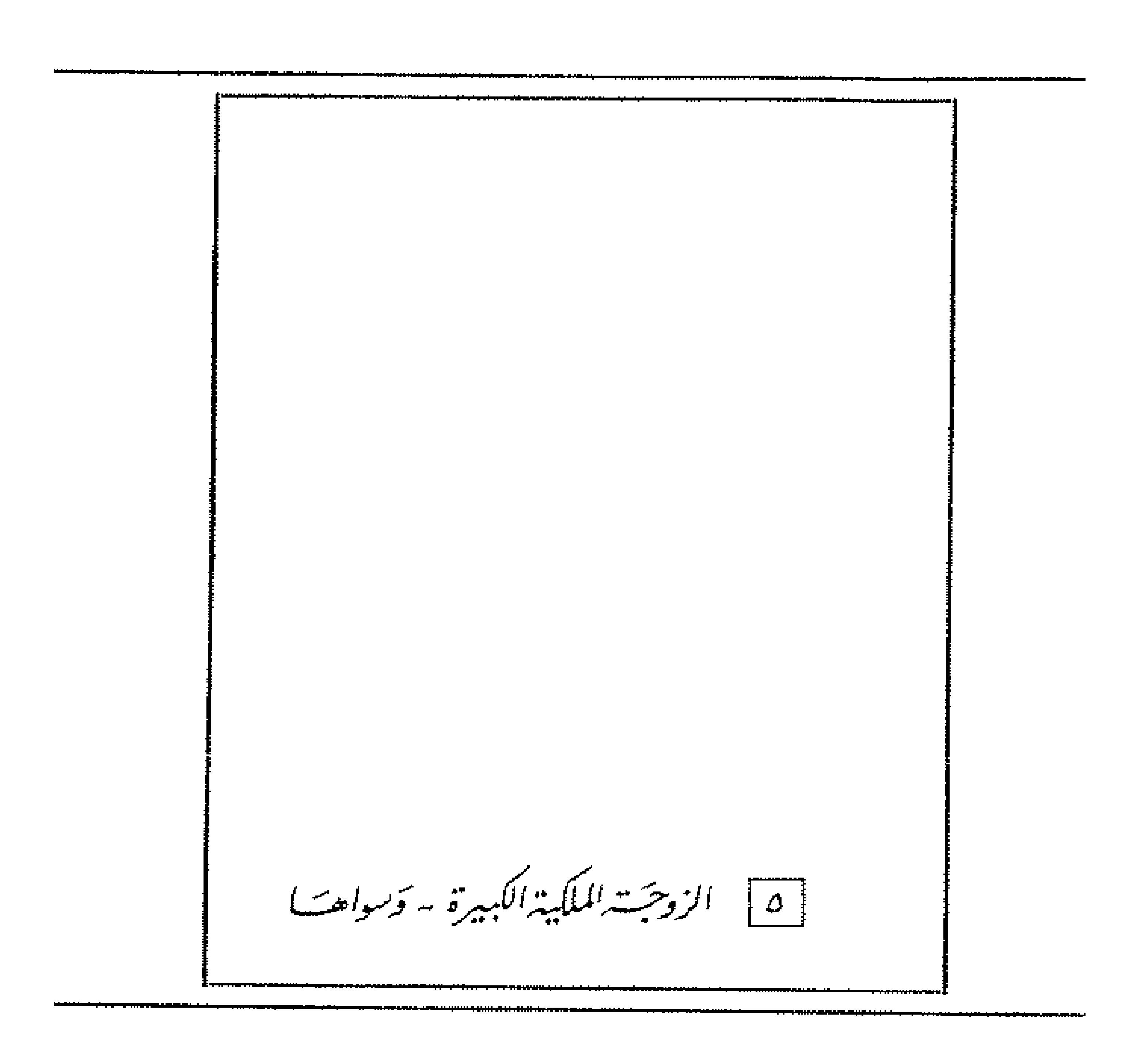
حسبما جاء في روايته هو عن نفسه ، انه استلفت انتباه الملك اليه ، فرفعه اولاً الى رتبة كاتب ملكي ثم جعله مسجل التجنيد الاعلى في مصر السفلى . وبحكم منصبه هذا ، كما يروي هو نفسه ، تولى ليس فقط اختيار أصلح الشبان واقواهم لتجنيدهم في خدمة الملك، وانما تولى ايضاً تنظيم الدفاع عن حدود الدلتا . والارجح انه كان مديناً بشهرته الواسعة ، وربمـــا بصداقته الحكيمة للفرعون ، الى منصبه كمهندس ملكي – الناظر الاعلى لجميع اشغال الملك – وهو منصب كان يتولاه ارفع الرسميين شأناً ، كالوزراء وامناء الخزينة الملكية . (ولعل كلمة « مهندس » تعبير مطلق عن هذا اللقب الخطير ، ذلك ان الوظيفة كانت ادارية بحتة، وليس هناك ما يثبت ان اياً من الرجال الذين شغلوها كان مهندساً ممارساً بالفعل) . وكشاهد آخر على ثقة الملك بأمنحوتب ابن حبو ، فقد أوكل اليه مهمة الاشراف على ممتلكات الاميرة (الملكة فيما بعد) سيتامون ، ولم يُكتَفَ من تكريمه ، عدا سائر الرجال ، بمنحه نعمة تشييد هيكل مدفني خاص به ضمن نطاق الدائرة المقدسة لهياكل الملوك المدفنية ، بل سُمِح له ايضاً باقامة تماثيله الى جانب تماثيل سيده العظيم في القاعـــة الامامية من معبد آمون في الكرنك . ونحن مدينون في معظم ما نعرف من سيرته الى الكتابات التكريسية المنقوشة على تماثيله، رغم انها لا تكشف شيئاً عن خلقه . وهناك نص مدهش على احد تلك التماثيل يشير الى ما بلغه من شهرة ونفوذ ، اذ يعرض

ان ابن حبو سوف يقدم شفاعته المقدسة لدى آمون من اجل كل من يتوقف ويقرأ النص .

ابدى امنحوتب الثالث خلال السنوات العشر الاخيرة من حكمه قـــدراً عظيماً من الهوائية والتقلب في منح حظوته ورضاه . فانه اذا كان قد ارتاب في امر الموظفين الطيبيين الطموحين وفي كهنة آمون ، واصبح لا يثق بهم ، كذلك اساء الظن ايضاً على ما يبدو في جميع الناس . لقد عانى الموظفون ، الواحد تلو الآخر ، ارتفاعاً وسقوطاً نيزكيين . والدليل على سقوطهم وخزيهم يتبين مما حل بأضرحتهم من تشويه وتخريب وتمثيل . اما اسباب السقوط فلم تعرف ابداً . ومن الممكن ان الدسائس والمكائد التي كانوا يحيكونها هي التي وفرت البواعث والدواعي الراسخة لثورة الشكوك الملكية . ويمكن من جهة ثانية ان يكونوا قد ذهبوا ضحايا نزوات ملك عليل تسيطر عليه الخيالات والاوهام .

كان ابن حبو واحداً من القلائل بين افراد حاشية أمنحوتب الذين احتفظوا بثقته حتى النهاية . وقد وافاه الاجل قبل الملك ببضع سنوات ، ولكنه خلف وراءه في منصب الوزير نسيباً له يدعى راموس لم يسقط ابداً من رضى الفرعون وحظوته ؛ ونسيباً آخر هو ذلك السميّ له ، أمنحوتب الذي كان وكيل الخرج الملكي في ممفيس . ولعل ابن هذا الاخير ، ايبي ، كان

واحداً من اوائل ممثـــلي العائلات الرسمية المترسخة ، طيبية كانت ام ممفيسية ، الذين عُرف انهم تبعوا اخناتون الى عاصمته الجديدة . وبحـــلول ثورة تل العمرنة ، اختفت معظم الأسر الكبيرة التي كانت سائدة في عهد السلالة الثامنة عشرة وطواها النسيان . ولكن العهد الرعمسيسي الذي تلا ، شهد ظهور طبقة محدثة من الكهان والموظفين ، بعضهم من أصل اجنبي ، افقوا لأنفسهم تآريخ تسلسل انساب مزورة مدعين أنهم يتحدرون من أصلاب الرجال الذين خدموا الملوك والإله آمون في طيبة عندما كانت في أوج مجدها وعظمتها .



٥ الزوجة الملكية الكبيرة - وسواها

لم ينقض طويل وقت على اعتلاء امنحوتب الثالث العرش ، حتى أذاع اعلاناً حفر على مـــا عرفته الاجيال المتعاقبة بـ « جعرانات الزواج » ، يقول فيه بكل بساطة :

فليحيا الملك امنحوتب ... وزوجته الملكية الكبيرة تيي . اسم والدها يويا ، واسم والدتها تويا . انها زوجة ملك عظيم تبلغ حدود مملكته الجنوبية كاروي وحدودها الشمالية بلاد ما بين النهرين .

بما ان هناك ما يحمل على الاعتقاد بأن زواج تيي وأمنحوتب قد انجز واكتملت شروطه الفعلية فيما كان امنحوتب بعد ولياً للعهد ، فان تلك الجعرانات ليست اذن اعلانات زواج بقدر ما هي بلاغات بأن تيي الوضيعة الاصل التي اثبت نسبها الابوي المغمور ، قد اصبحت الآن امبراطورة على معظم العالم المعروف آنذاك . وباستطاعة المرء ان يستشف لوناً من التيه والكبرياء في الجملة الاخيرة من النص ، وهو افتراض بأن الملك الذي يمتد سلطانه الى اعماق بلاد النوبة جنوباً والتخوم الشمالية الشرقية من

سوريا في الشمال ، يستطيع ان يفعل ما يشاء وما يحلو له ، دون مراعاة لشأن السوابق .

لا يحمل جعران الزواج هذا أي تاريخ ، ولكن اسم تيي ولقبها الملكي يظهران على جعران تذكاري آخر أصدر في السنة الثانية من حكم امنحوتب . ومنذ ذلك الحين والجعران التذكاري الخاص بتيي ، يحتويه أنبوب ملكي ، يرافق الجعران الخاص بالملك على الدوام ، حتى في مناسبات الاعلان الرسمي عن السنوات الملكية . بل انه قد رافق جعران الملك عند اعلان تلك « العجيبة » ، أي زواج الفرعون من احدى الاميرات الميتانيات . ويظهر كذلك جنباً الى جنب مع ختم الملكة سيتامون ، ابنة تيي ، التي نشأت وكبرت لتشارك امها فيما بعد لقب الزوجة الملكية الكبيرة . والمنحوتات والرسوم النافرة الرسمية تظهر الملكة تيي مرة تلو المرة وهي جالسة على العرش بجانب الملك .

رغم ان تيي كانت ابنة كاهن ريفي من اخميم ، وبالرغم من انها كانت من سيدات الحريم اللواتي خدمن والدة الملك ، فقد أعطيت امتيازات وامجاداً لم تمنح ابداً لاية ملكة سابقة من قبل . لقد اضاءت هالة عظمتها وجلالها على حيـــاة والديها المغمورين . فقد أغدقت على والدها القاب الشرف والفخار الكثيرة ، ومنها لقب « أب الإله » ، وهي التسمية الممتازة التي

كان يشار بها غالباً الى آباء زوجات الملوك ، واصبحت أمها كبيرة سيدات حريم الإله آمون . وعين أحد أعمامها كاهناً أعلى في هليوبوليس . اما آي ، ذلك الرجل الذي خدم اخناتون ، ابن امنحوتب ، كناظر أعلى لجميع خيول جلالة الملك ، ثم اصبح معلماً لتوت عنخ آمون فوصياً مشتركاً عليه ، ثم تولى الحكم لفترة قصيرة كآخر ملوك السلالة الثامنة عشرة ، نقول ان آي هذا ، كان أخا تيي على ما يُظن .

جرى دفن يويا وتويا في وادي الملوك بما يشبه المواكب والمراسم الملكية . وقد اكتشفت ضريحهما الفخم بعثة آثار امريكية منذ نصف قرن ، وكانت كل محتوياته الثمينة كاملة سليمة تقريباً . ومن بين تلك المحتويات عربة يويا (اذ كان — او انه أصبح فيما بعد — الناظر الاعلى لخيول الملك) ، بالاضافة الى هدايا كثيرة فاخرة حملت شارة امنحوتب الثالث ، وقطع اثاث نفيسة مطعمة ومغشاة بالذهب . وقد نقش على احد المقاعد رسم يبين سيتامون ، الحفيدة الملكية للزوجين المتواضعين ، وهي تتلقى « ذهب بلاد الجنوب » .

من الصعب تحديد الصفات والخلال التي رفعت تيي الى تلك المنزلة في قلب امنحوتب وعواطفه المتقلبة ، وأبقتها هناك . ومع انها لم تكن جميلة ، فان صورها الرسمية التي كان مصطلحاً عليها تكشف عن فتنة أخاذة . وتظهر آثار تلك الفتنة

في معالم رأس خشبي يظن بأنه لها رغم انه غير مسمى ولا يحمل أية كتابة تعرّف عن صاحبته ، مع ان ملامحه تشوبها مسحة غير مستحبة . كان هذا الرأس موجوداً في السابق في برلين ، ويعتقد البعض بأنه رأس سيتاموں ابنة تيي . فهو يمثل ملكة ذات عينين متباعدتين مائلتين تحوطهما جفون غليظة ، وجبهة عالية ، وخدين بارزي العظام ، وشفة سفلى ناتئة نوعاً ما ، وذقن حادة تنم عن قوة الارادة . ومع ان هذه القسمات واضحة ، بل مضخمة جداً ، في رسوم ابن تيي اخناتون المتعصب ، فليس في الامكان صرف النظر عن ان هذا الرأس انما هو مجرد انعكاس «لاسلوب تل العمرنة» : فهو مشابه لرسوم تيي وتماثيلها السابقة التي كان مصطلحاً عليها بحيث يوحي بأنه صورة صادقة لامرأة تتميز بالعزم والتصميم ولا ينقصها المكر والدهاء . أما الفصل فيما اذا كان هذا الرأس يمثل في الحقيقة تيي او ابنتها التي كانت تشبهها شبهاً دقيقاً ، فمسألة سوف تبقى غير مقررة .

ان الحقائق المعروفة عن سيرة حياة تيي ضئيلة نسبياً . فمن المرجح انها كانت قد تزوجت ، على ما جرت العادة في ذلك الزمن ، وهي بعد في الحادية او الثانية عشرة من عمرها ، وغدت ارملة وهي في الثامنة والاربعين تقريباً ، وتوفيت في منتصف عقدها السادس . وقد عرف انها أنجبت ثلاث بنات ، وانها لم تضع وريث العرش ، اخناتون ، الا بعد عدة سنوات من زواجها . اما نفوذها لدى زوجها والدور الذي لعبته في المشورة

عليه ، فيمكن استنتاجها من الامتيازات التي منحها اياها طوال حياتها معاً ، ومن بعض الادلة القليلة في المراسلات الدبلوماسية التي ظلت محفوظة في سجلات تل العمرنة الرسمية. فهي التي أرسل اليها ملك المثانيين ، بصفتها الملكة الام بعد ترملها ، ملتمساً ان تستخدم نفوذها مع ابنها الذي اصبح ملكاً من أجل استمرار العلاقات الطيبة التي كانت للملك المثاني مع مصر خلال عهد زوجها امنحوتب الثالث .

يظن بعض العلماء ان ذكاء تيي وعقليتها المتوقدين كانا الحافز الذي ألهم اخناتون ثورته الدينية . ولكن ليس هناك اي برهان على ذلك . فان اخناتون ، كمعظم الملوك ، احترم امه ويجلها ، وهي بدورها ظلت تحب ابنها وتدلله. وقد زارته في تل العمرنة حيث كان قد شيد لها قصراً خاصاً . ولكن ليس معروفاً ما اذا كانت قد أقامت هناك حتى وافاها الاجل . يبدو على كل حال انها توفيت قبل اخناتون سعيدة بأنها لم تع ولم تشهد انهيار حلمه في حياتها . وعلى الرغم من صلتها الوثيقة به ، فانها سلمت من حملة الطعن والقذف التي صبتها اجيال المستقبل على اسمه . وقد ظلت تذكر ليس كوالدة الملحد وانما كالزوجة الملكية الكبيرة لامنحوتب العظيم .

في حين ان تيي توصلت الى مركز ارفع واسمى مما بلغته اية ملكة سابقة ، فان المملكة الجديدة تميزت بسلسلة طويلة من

السيدات الملكيات البارزات . فعندما كانت هزيمة الهكسوس ما تزال مجرد حلم في اذهان الملوك الطيبيين الصغار من السلالة السابعة عشرة ، وصلت الى طيبة صبية تدعى تتيشيري – اي تتي الصغيرة – كزوجة لاحد الحكام العديمي الشأن الذين كانوا يتحدون الغزاة الفاتحين بالادعاء بأنهم هم ملوك مصر العليا والسفلى . ومعرفتنا بتتيشيري جاءت عن طريق رسم منحوت لها بلغ غاية في الروعة والجمال ، وبشكل رئيسي عن طريق الامجاد التي اغدقها عليها حفيدها احموس ، قاهر الهكسوس وأول ملوك السلالة الثامنة عشرة ، الذي عاشت الى عهده . كانت تتيشيري ، كما كانت من قبلها تيي ، من العامة الوضعاء ، ورغم ان الدور الذي لعبته في نهضة طيبــــة وارتفاعها الى مركز السيادة ليس واضحاً على وجه التحديد ، فانه لا مجال للشك في انه كان لها حصة في النضال المبكر ، وانها قدمت فيما بعد لحفيدها الجيد النصح الحكيم والمشورة الصائبة .

اشتركت ابنة تتي ، أحمُوتب ، والدة الملك احموس ، في الوصاية الفعلية عليه . وهناك لوحة تذكارية أقامها لها احموس وهي بعد على قيد الحياة تشترط ان من الواجب منحها التمجيد والتكريم اللذين يؤديان اليه هو بالتمام . وتعزو لها نصوص هذه اللوحة فضلَ حشد الجيوش وكبح الثورات وإبقاء جذوة الحياة في البلاد مشتعلة ابان انهماك احموس في الحملات والمعارك التي أدت الى طرد الهكسوس وانتصار السلالة الطيبية .

عاشت اححوتب لترى حفيدها ، امنحوتب الاول ، يعتلي العرش. ولكنها قبل ان تموت وتدفن في مدينة الاموات الطيبية بين اكداس الهدايا الملكية التي اغدقها عليها احموس ، كان مكانها في مضمار الشورى الملكية قد اغتصبته حفيدتها احموس — نفريتاري ، ابنة اخت احموس وزوجته الملكية الكبيرة . ويبدو ان هذه الملكة الاخيرة ، « العظيمة الحظوة والاكرام » و « العظيمة الانس والوداد » ، قد تقاسمت بالفعل عرش مصر مع زوجها المجيد الذي رفعها الى منزلة لم يسبق لها مثيل من قبل . وهناك لوحة تذكارية باقية من زمنها تحمل بياناً حميماً بالغ الروعة عن الزوجين الملكيين وهما يخططان معاً لاقامة نصب تذكاري لجدتهما المشتركة تتيشيري . وبعد وفاة احموس، عاشت احموس — نفريتاري لتبقى مستشارة لولدها ، امنحوتب الاول ، الذي خصص لها مكاناً في هيكله المدفني وربما في ضريحه ايضاً . وقد باتت فيما بعد، كما رأينا قبلاً، موضع التقديس والعبادة كإلهة وصية على مدينة الاموات الطيبية ، مقترنة بايزيس — هاتور ، النموذج الاصلي للأمومة الملكية .

انتهت سلسلة الزوجات الملكيات الكبيرات في العهد الطيبي المبكر بحتشبسوت ، حفيدة تتيشيري . ذلك ان حتشبسوت لم تكتف ، شأن سابقاتها ، بأن تلعب دور المرأة فحسب .

تمتعت النساء ، وخاصة كأمهات للرجال ، بالاحترام

والتكريم في مصر على الدوام . ولكنهن بلغن منزلة جديدة في عهد المملكة الجديدة ، وليس في الاوساط الملكية فقط . فمنذ الازمنة القديمة ، كانت « سيدة البيت » تشارك زوجها واولادها نصيب الحياة ، في حلقة عائلية وثيقـــة الارتباط كانت أساس المجتمع المصري . وفي حضارة لم تكن تعرف الكنى العائلية ، كان الرجل يعرف نفسه بأنه « ابن فلان وفلان » . واحياناً كان يستخدم لنفسه اسمي كلا والديه ، ولكن لم يكن نادراً ان يتناسى اسم والده ويعرف نفسه باسم امه فقط . كانت الحياة في المحيط العائلي تدور حول الام ، وكان ابناؤها لا ينسونها عندما يبلغون طور الرجولة . وقد ردد احد حكماء المملكة الجديدة صدى الشعور العام عندما لقن ابنه الذي تزوج واستقر في منزل خاص به ان يظل ذاكراً الام التي ولدته ، مبالياً بها ، مراعياً لها .

يقول : « ضاعف مقدار الطعام لوالدتك واحملها كما حملتك هي من قبل . كان لها حمل ثقيل فيك . وحتى بعد ان أتممت شهورك في احشائها، ظلت تحملك وانت متعلق بعنقها . وطوال ثلاث سنوات ، كان ثديها في فمك . لم تكن تشمئز من قذارتك وأوساخك ، ولا قالت مرة متأففة : «ماذا استطيع ان افعل؟» وعندما تعلمت الكتابة ، وضعتك في المدرسة وكانت كل يوم تحمل اليك الخبز والشراب من مؤونتها. فلا تدعها ابداً ترفع يديها الى الله مستجيرة به من اعمالك ! » .

ولما كانت الزوجة رفيقة زوجها في الحياة ، هكذا كانت ايضاً في الممات . فنادراً ما كانت تمنح ضريحاً خاصاً بها ، وانما كان لها مكان في ضريحه ، وكانت تقاسمه خلوده . وكانت تتمثل معه في الرسوم والمنحوتات المدفنية ، ولو انها لم تكن في عهود المملكة القديمة والمملكة الوسيطة متساوية معه كتساويها الآن . فقد كانت تصور آنذاك وذراعها تحوط زوجها معانقة اياه دون أن يبادلها بالمثل ، او تمثـــل على مقياس اصغر منه وهي خلفه ببضع خطوات ، او جاثمة بجانبه متعلقة بركبة رجله . ولكن يبدو ان منحوتات المملكة الجديدة ومشاهدها المصورة تدل على ان الزوجة أقل مذلة وخضوعاً مما كانت عليـــه في الازمنة السابقة . فالتماثيل – وهنالك « تماثيل زوجية » اكثر من اي وقت مضى – تظهر الرجل والمرأة في عناق متبادل ، كما تبينها الرسوم على جدران الاضرحة جنباً الى جنب كندين متساويين . ومن السلالة الثامنة عشرة فصاعداً ، اصبحت النساء بارزات ثابتات الوجود اكثر فأكثر . ولذلك ، فان الاغريق الذين كانوا يؤمنون بأن المكان اللائق للمرأة المحترمة هو الخدر النسائي ، وجدوا سلوك النساء المصريات وآدابهن مخجلة مفجعة .

يتضح من عودتنا الى ابعد ما نعرفه عن المجتمع المصري ان الملوك والاعيان كانت لهم حرائمهم ، وانه اثناء رخاء المملكة الجديدة وسعتها ، ازداد كثيراً عدد الرجال القادرين على تكبير عائلاتهم وتوسيعها بما يتخذون من المحظيات والإماء والعبيد .

حتى ان الكاهن او الموظف المتواضعين نسبياً كان في مقدور الواحد منهما ان يتباهى بأن لديه محظية واحدة على الاقل. ورغم اننا لا نعرف شيئاً عن العلاقات بين الرجال والنساء في الطبقات الوضيعة المغمورة ، فمن المحتمل ان بعض العائلات القروية كانت تضم محظية تكون في الوقت ذاته يداً عاملة اضافية : على نحو مـــا كان يقول مثل دارج في الشرق « المرأة ارخص من الحمار » . لم يكن هناك عار او شائبة في اقتناء المحظيات . ومع ان الأمة كان يمكن ان تقوم بدور المحظية ، فان المحظية لم تكن أمة . وكان ادخال ابنة الى حريم الملك او احد كبار الرجال يعني ارتفاع عائلة تلك الفتاة درجة الى الامام في السلم الاجتماعي. فاذا لاقت هوى في قلبه ، فقد يصبح ممكناً لها ان تفعل شيئاً لأسرتها . ومهما يكن الامر ، فبذهابها الى حريم رجـــل ما ، ينخفض في العائلة عدد الافواه التي يجب اطعامها . والفتاة التي تنشأ في منزل موسر ، لا فرق أكانت قد خدمت كمحظية أم لا ، غالباً ما يكون نصيبها في الزواج جيـــداً وتستفيد هي وزوجها معاً من علاقتها السابقة . وقد يبدو لنا تناقضاً في التعبير اذا قلنا ان المصريين كانوا ضد مبدأ تعدد الزوجات ومتشددين في مبدأ فردية الزواج . ولكن هذا هو الواقع على اي حال . فقلائل نسبياً هم الملوك الذين كانت لهم اكثر من زوجة ملكية كبيرة واحدة ، واقل هم العامة الذين عقدوا لأنفسهم اكثر من زواج واحد . وفي معظم العائلات كانت هناك امرأة واحدة ، وواحدة فقط ، تحمل لقب « سيدة البيت » المبجل . وكانت

هذه المرأة هي التي تعتبر الزوجة القانونية للرجل ، وأولادها هي هم الذين كانوا ورثته .

« اذا كنت رجلاً ذا اعتبار » ، ينصح حكيم قـــديم ، « فأسس عائلة ، وأحِبّ زوجتك كما هو لائق . املأ بطنها ، وأعطها الثياب لتغطي ظهرها والمراهم لتدلك جسدها ، لأنها حقل رابح » – حقل سوف يحمل البنين . ويحث مصلح اخلاقي لاحق على اللطف في المعاملة بقوله : « لا تتصرف وكأنك موظف رسمي فوق رأس زوجتك اذا كانت مجتهدة نشيطة . لا تقل لها « اين هذا ، وأحضري ذاك ! » ... راقب وكن صامتاً لكي يتسنى لك ان تميز أعمالها الطيبة . هكذا يمكن للمرء ان يتلافى نشوب الصراع في بيته » .

مع ان الزواج كان مؤسسة معترفاً بها ومحترمة ، فاننا لا نعرف الا القليل عن الشروط او التحـــديدات التي كان يعقد الزواج بموجبها . وكانت للنساء حقوق قانونية متساوية في الواقع مع حقوق الرجل . فقد كان لهن حق التملك او الميراث او التوصية بملك ، وحق اقامة الدعاوى ، ولكن معظمهن على الارجح لم يكن لهن كلمة في امر زواجهن ، ومتى يتم ، والى من . فالبنت كان يمكن ان تصبح زوجة وهي بعد في الحادية او الثانية عشرة ، والصبي زوجاً وهو في حوالي الرابعة عشرة ، ولذلك فان معظم الزيجات كانت مسألة اتفاق بين والد العروس وبين العريس المتوقع او والده . وكان العريس يدفع لوالد الفتاة

مبلغاً متفقاً عليه ، وكانت هي بدورها تجلب معها الى بيتها الجديد بائنة جرت العادة ان تكون في شكل سلع وأمتعـــة وأثاث .

هذه هي شروط الزواج التي يمكن تخمينها بالنسبة لعهد السلالة الثامنة عشرة ، مع انها جمعت بصورة رئيسية من مصادر متأخرة . وليس في هذه المصادر ، ولا في اية مصادر اخرى سواها ، تلميح الى ان الزواج كان يتم بمراسم دينية ، كما انه ليس هناك اي دليل على ان الاعراس كانت ترافقها احتفالات خاصة . ولكن من الصعب التصديق بأن هذا الشعب الاكثر تديناً بين الشعوب كان يمكن ان يقصر عن التماس البركة الإلهية المقدسة للزواج ، او ان يدع المصريون المحبون للولائم والافراح مناسبة مهمة تستوجب اقامة الاحتفالات والمهرجانات كمناسبة العرس .

لسنا نعرف مـــــا اذا كانت هناك قوانين تحريمية متعلقة بالزواج في ذلك العهد ، وان وجدت فلم يصلنا منها الا القليل . غير اننا نجزم بأنه على النقيض من تلك الشائعة الفاضحة التي أطلقها ديودورس على الارجح ، وظلت سارية حتى يومنا هذا ، فقد كشف العلم الحديث عن ان زيجات الاخ بالاخت في العهد الفرعوني لم تكن معروفة لدى عامة الناس ، بالرغم من ان صلة القرابة الوثيقة لم تكن حائلاً دون اقتران الخال او العم بابنة شقيقته او شقيقه ، او دون تزاوج ابناء العمومة المباشرين . وكان الناس يتزوجون عادة ضمن نطاق طبقتهم الاجتماعية .

وفي حين ان التزاوج مع الاجانب لم يكن ينظر اليه بعين الرضى دائماً ، فان مثل هذه الزيجات لم تكن نادرة ، كما انه لم يكن نادراً ان يقترن رجال احرار بإماء مستعبدات . ولقد ادعى البعض ، ولكن دون ان تكون لديهم مستندات كافية ، بأن الزواج الشرعي لم يكن له وجود في اوساط الطبقات المغمورة ، وان القاعدة المتبعة لدى هذه الطبقات كانت في التزاوج الحر . قد يكون هذا صحيحاً بالنسبة للزواج فيما بين العبيد الارقاء ، ولكنه من غير المحتمـــل ان يكون صحيحاً بالنسبة للرجال الاحرار ، وخاصة اذا كانت هنالك اية امـــلاك ، مهما تكن ضئيلة ، او اية حقوق وراثية متعلقة بالأمر .

كان الطلاق مسموحاً به للرجال والنساء على السواء دونما حاجة تذكر لأية معاملة قانونية رسمية في هذا الصدد ، ولكن يبدو ان الطلاق كان نادر الوقوع نسبياً . ولما كانت النساء اللواتي يتمتعن بكفاية واستقلال اقتصاديين قليلات جداً ، فقد كان الرجل عادة هو الذي يقدم على إلغاء الزواج . حتى ان حجة عدم التكافؤ كان يمكن ان تكون سبباً كافياً له الى الطلاق — بل لقد كان في استطاعته ان يرسل زوجته الى بيت ابيها في سَوْرة غضب . فهناك رسالة كتبها رجل الى زوجته المتوفاة التي كان يعتقد بأن روحها تلازمه ، يقول فيها معتذراً: « لقد اقدمت على عمل رجل متسرع متهور حين طلقتك » . وفي بعض الاحيان (رغم معارضة المصلحين الاخلاقيين) كان

يحلو لزوج ان يستبدل زوجته بامرأة اصغر واجمل ، او ان يعقد لنفسه زواجاً آخر قد يمهد له سبيل التقدم والترقية في وظيفته . واخيراً ، كان العقم سبباً للطلاق معترفاً ومسلماً به ، مع اننا في هذه الحالة نجد على الاقل رجلاً واحداً وزوجته يتفقان عـــلى البقاء معاً وعلى جعل اولاد احدى الإماء ورثة شرعيين لهما .

كان الزنى من جانب امرأة متزوجة « الخطيئة العظمى » التي تعاقب عليها احياناً بالموت . اما الرجل الذي كان يقدم على ارتكاب الزنى مع زوجة رجل آخر ، فكان ينظر اليه بعبوس وغضب . « حاذر ان تقارب امرأة بيت آخر » ينصح الحكيم بتاح — حوتب . « ولا تجعل من نفسك احمـــق ذا أوصال من خزف . لعبة تافهة — حلم عابر — ان تعرف امرأة غريبة معناه الموت » . ويحـــذر حكيم آخر ابنه من الزوجة البعيدة عن زوجها ، فهي « مياه عميقة ، دواماتها خفية مجهولة » .

في حين ان الصورة الاجمالية التي تبرز من خلال السجلات القديمة تنم عن قناعة بيتية رصينة مع تلبية الغرائز المزواجة لدى الذكور المتململين عن طريق النظام السائد في اتخاذ السراري والحظيات ، فان هناك ما يحمل على الاعتقاد بأن الاخـــلاق والآداب الجنسية لم تكن دائماً مطابقة للقاعدة . فالكاتب المتلمذ كان يُحَذَّر ليس فقط من السكر والعربدة ، وانما ايضاً من النساء الشاردات اللواتي كن يرتدن الحانات . وقد أجْمَلَ رجل في عهد أمنحوتب الثاني — وكان قد اصبح فيما بعد اذ توسط

به العمر كاهناً أعلى لآمون – سيرةً اكرامه واجلاله في الصغر لوالده بقوله بتقوى وورع انه كان دائماً مطيعاً ، لا يجادل او يناقش مطلقاً ، يُصغي الى والده مذعناً وعيناه في الارض ، وانه « لم يعرف ابداً وصيفة بيته ، ولا اقدم على مضاجعة خادمته » . هذه البينة السلبية ، بالاضافة الى تلميحات غير مباشرة لفعل اللواط ، تقدم بعض البرهان عن وجود رخاوة وتهاون مقلقين غير مستحسنين مما عرف دائماً في كل مكان وكل زمان .

برز في عهد المملكة الجديدة لأول مرة في التاريخ لون من الادب العاطفي الخيالي ، متمثلاً في سلسلة من الاشعار والاغاني والاناشيد التي سجلها الكتبة الطيبيون في عهد السلالتين التاسعة عشرة والعشرين ، ونقشوها احياناً على ظهور الوثائق الرسمية . وعلى الرغم من انه ليس بين هذه المخطوطات اية واحدة يعود تاريخها الى عهد امنحوتب الثالث ، فان هناك مـــا يدعو الى الاعتقاد بأن هذه الاغنيات والاناشيد او ما يماثلها كان يرددها المرحون البهجون من اهل قصره وحاشيته . ومن المحتمل انه كانت هناك دائماً اناشيد غرامية يتوارثها القوم ، ولكن اذا كان الامر كذلك فان تلك الاناشيد لم تدخل طور التدوين . ولعل اقرب مثَـلٍ عن الاناشيد الغرامية في الادب المكتوب خلال الازمنة الغابرة ، نجده في الترانيم الموجهة الى الإلهة هاتور بشكل مهيب وفي صيغة الغائب المجهول . اما الآن وفي ظل الموجة الجديدة من الترف والرخاء وتحرر الآداب والسلوك ،

فقد ازدهر لون جديد كامل من الشعر في تمجيد الحب، يضارع في الدقة والروعة اي شعر كتب في اي زمن ، ولو انه كان فيه بعض الصنعة والتكلف . وكان ذلك الشعر ينظم ليغنى بمصاحبة العزف على القيثارة او العود ، واذا كانت تفوتنا ألحان تلك الاناشيد والموسيقى المرافقة لها ، فليست تفوتنا فحاواها ومعاني مواضيعها، وهي عالمية شاملة — مسرات الحب ومباهجه ، ألم الفراق وعذابه ، فرحة اللقاء وبهجة التئام الشمل . كل هذا في تشبب وصبوة لطيفين بريئين . ولم تكن تلك الاناشيد تنطوي على اية اشارة تقريباً الى الدين او الروحانيات او على ما يثير دهشتنا ويبدو لنا غريباً مستهجناً في هذه الايام . بل على العكس ، فان لهذه الاقدم والاسبق من اناشيد الغرام والاغاني العاطفية رنة مألوفة وشائعة لدينا ، ومواضيعها ومعانيها باتت دارجة منذ زمن بعيد .

ولعل افضل ختام لفصل كتب عن اوضاع النساء ومركزهن في عهد السلالة الثامنة عشرة ، يمكن ان نجده في ترجمة حرة لبعض تلك الاشعار . ومع ان هذه الابيات الرشيقة الجميلة لا تحمل جواباً لأي من معضلات العلاقات بين الجنسين التي أثيرت في هذه الصفحات ، فانها لن تقصر بأية حال عن اضفاء بعض الحرارة والتلوين على صورة الحياة في طيبة إبان ازدهار المملكة الجديدة .

عندما اقبّل شفتيها المنفرجتين
اغدو سعيداً — بدون خمرة !
اتمنى لو انني كنت الزنجية ، خادمتها !
اتمنى لو انني كنت الغسّال الذي يغسل
الدهون الحلوة العطرة عن ملابسها !
اتمنى لو انني كنت الخاتم الذي تحمله في اصبعها !

يا لحلاوة الاستحمام في حضورك !
في الماء ، يبتل ثوبي الملوكي النسيج
ويلتصق بجسدي ، فيتسنى لك مشاهدة جمالي .
عندما اذهب معك الى البحيرة
أجلب لك سمكة حمراء تتمدد بجمال بين اصابعي .
تعال انظر الي !

اتمنى لو انني كنت امرأتك وربة بيتك —
اتمنى لو ان ذراعك ترتبط وتلتصق بذراعي !
اذا لم تأت الي هذه الليلة
فسوف اكون كواحدة ميتة ومطروحة في قبرها ،
أفلَستَ انت صحتي وعافيتي وحياتي ؟

أتيت تحت جنح الظلام ،
وقرعت فلم يجب احد . . .
افضل شرائح اللحم من ثورنا
سوف امنحها للصبي النجار

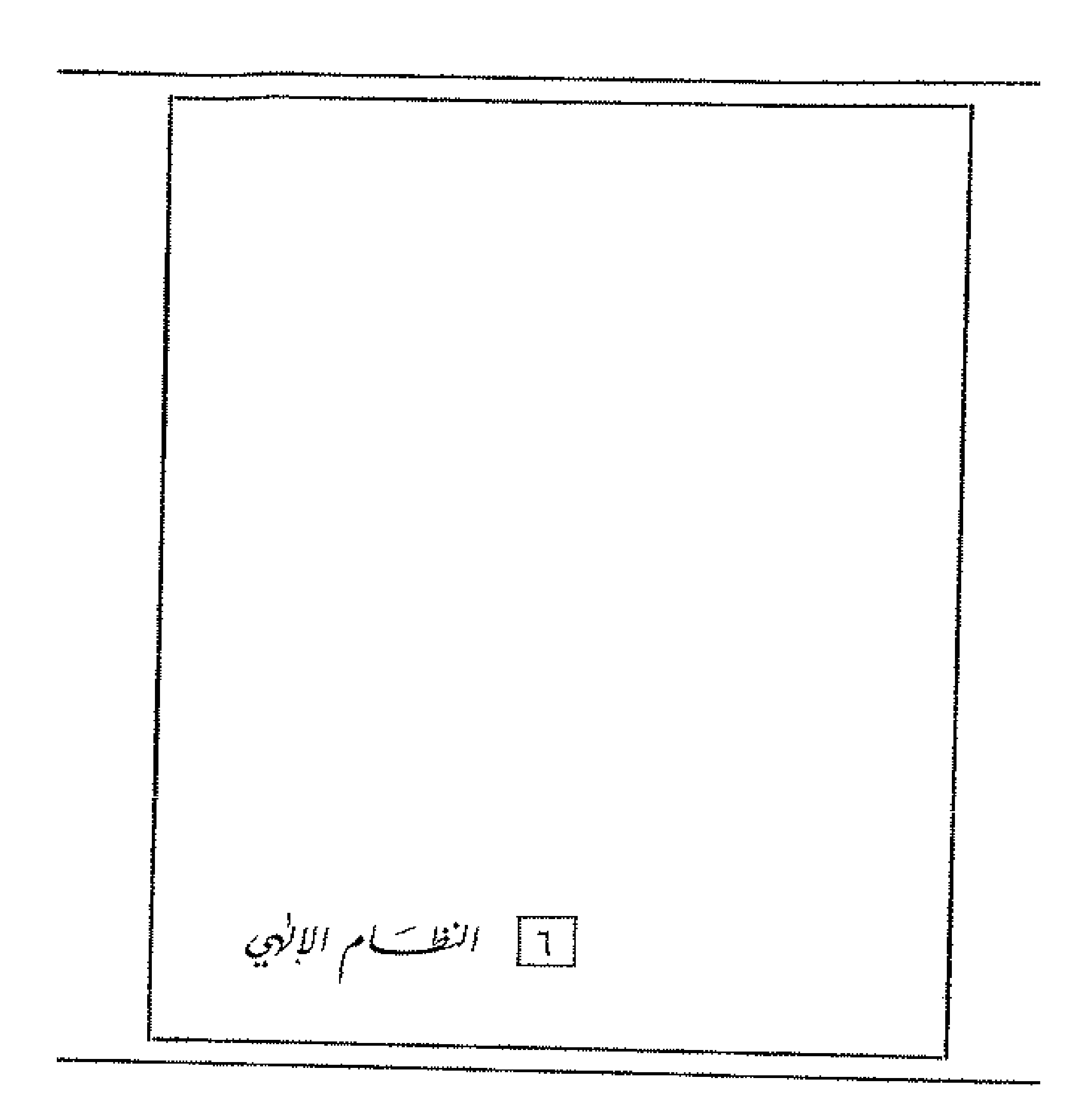
الذي سيصنع مزلاجاً من القصب ،
وباباً من القش ،
لكي استطيع ان آتي حسبما اشاء
فألقى البيت مفتوحاً ،
وأجد فراشاً مبسوطاً بأغطية فاخرة ،
وبجانبه غادة جميلة .

ان حبك ينتظرني عبر النهر .
هناك تمساح يقبع على الضفة الرملية ،
ولكنني انزل بجرأة وشجاعة الى الماء —
الامواج كاليابسة تحت قدمي .
ان حبك هو الذي يجعلني قوياً ،
انه ينسج لي تعويذة تصونني في الماء .
عندما اراك مقبلاً
يرقص قلبي طرباً ،
وتنفتح ذراعاي لاستقبالك وضمّك .

سبعة ايام انقضت امس
دون ان اراها !
المرض داهمني واستولى علي ...
الاطباء يأتون لعيادتي
ولكن قلبي لا يجد اية راحة في علاجاتهم .
والسحرة عادوا لا وسيلة لديهم حيالي .

لا احد يعرف سبب علتي .
هي وحدها تستطيع ان تشفيني ،
رسولها فقط يستطيع منح القوة لقلبي .
عندما اراها أغدو سليماً معافى .
حين تنظر الي ، تستعيد اوصالي الفتوة والشباب .
حين اضمها بين ذراعي يطير الشر وتنحسر العلة .
ولكنها بعدت عني في هذه الايام السبعة .

انني انا حبك الاول ،
حديقة مفروشة بالازاهير والاعشاب العطرة ...
يا لجمال المكان الذي نتنزه فيه ، يداً بيد !
كم انا سعيد لاننا نسير معاً .
رنة صوتك حلوة —
انني احيا عندما اسمعها .
رؤياك هي الطعام والشراب لي .


٦
النظام الآلي

قد يكون ان أمنحوتب الثالث آمن بعجائبية ولادته وروحانيتها ، لا سيما وانه امر بتسجيلها رسماً على جدران المعبد الذي بناه في الأقصر . ومن المحتمل ان تكون تلك الخرافة قد قُصَّت عليه في سن الطفولة عندما كان ما يزال ولياً للعهد ، ولا شك في ان احداً من الناس المحيطين به لم يجرؤ على مصارحته بزيف الاسطورة . ثم ان معظم الناس كانوا يعتقدون بصحتها . واذا كان امنحوتب، الى جانب كونه ابن إله، قد ادعى متباهياً بأنه يتحدر من سلالة طويلة من الملوك الآدميين ، وكان ككل ابن صالح يقدم الاحترام البنوي للملك المتوفى الذي كان والده الدنيوي ، فان مثل هذه المتناقضات التافهة لم تكن لتهمّ احداً على الاطلاق .

كانت فكرة الملك — الاله فكرة دينية ، والدين مسألة ايمان لا مسألة منطق . ولم يكن من العسير على مصري ان يؤمن بعجائبية ولادة ملكه ، ثم بقداسته ، واخيراً بألوهيته ، لم يكن ذلك أعسر عليه مما هو على مسيحي في هذا العصر ان يؤمن بالولادة من العذراء، وبتجسد الكلمة ، وبقيامة المسيح من الموت.

ومع أن بطانة الملك كانوا يغالون في تبجيله مدّعين انه القوي القدير العليم بكل شيء ، فانه كان واضحاً للجميع بما فيهم الملك نفسه ، انه ليس في الحقيقة عالماً بكل شيء ولا قادراً على كل شيء . فقد كان عليه ان يختار موظفيه وأعوانه بحيث يكونون ، على حد تبجيلهم هم ، « عيوناً وآذاناً » له . وبالرغم من انه كان مقدساً مؤلهاً ، فانه كان يجد من الضرورة اللجوء الى الآلهة والاستغاثة بهم في اوقات العسر ، ورفع الشكر والحمد اليهم في اوقات اليسر . كانت رسومه على جدران المعابد تمثله جنباً الى جنب مع الآلهة كنيدّ لهم ، ولكنها كانت ايضاً تظهره كمتعبّد ومتوسل اليهم . كان يحمل العطايا والهدايا ويسكب القرابين للآلهة . وكان يجثو ، بل يخر على وجهه امامهم بخشوع . كانت حدوده البشرية واضحة . فقد كان ينطلي عليه التملق والخداع ، وكان معرضاً للمرض والموت . ولكن هكذا كانت الحال ايضاً بالنسبة للآلهة الازليين . فانهم هم ايضاً كانوا معرضين لمداهنات البشر وخداعهم وغشهم ، وكان لهم اعداء يجب حمايتهم منهم بأداء الشعائر الواقية ، كما انهم كانوا احياناً يذوقون المرارة والألم ويعانون كسوف الموت موقتاً . وكان الناس على علم بكل هذا . ولذلك كانوا ينسجون الحكايات الجريئة الخالية من الاحترام عن الملوك ، ويحولون اساطير الآلهة الى قصص دنيوية ساخرة مضحكة ، ومع ذلك فقد ظلت قداسة الحكام والآلهة جوهرياً على حالها لم يطرأ عليها اي تغيير .

كان يتوقف على الملك ، حامل لواء ممات ، نظام الكون كما أسس منذ بدء الخليقة . وكان هو الشفيع الوحيد المعيّن والمعترف به وسيطاً بين الآلهة وشعبه . وكانت مسئوليته تقتضي التزاماً اخلاقياً ، اذ كان عليه ان يتصرف باستقامة وصدق (صدق « مُنَزّل ») وعدل . وقد ميز اللاهوت بحذق بين الفرعون الحاكم وبين منصبه المقدس ، وبين الملك كإنسان ، وبين كونه وعاء للآلهة ، ثم بين الحاكم البشري الحي وبين الملك المتوفى المؤلّه . وكانت هذه التفريقات الدقيقة فوق مستوى ادراك غالبية الناس . كان هناك ملوك صالحون وملوك سيئون — ذلك كان يدركه كل انسان . وقد نفّس القوم عما يضمرونه من ضغينة ضد ظلم بناة الاهرام ، مثلاً ، بنوادر وحكايات ظلت سارية متناقلة حتى ايام هيرودوتوس . ولكن العقلية المصرية الفطرية غير المنطقية (وهذا واضح لنا) أتاحت للجماهير ان تتقبّل صفة الحاكم البشرية وتعتبره في الوقت ذاته إلهاً . وصحيح ان المؤامرات كانت تحاك ضد الملوك ، وانهم في بعض الحالات النادرة خُلِعوا ، بل واغتيلوا ، ولكن ذلك لم يحدث ابداً (كما أبدى فرانكفورت) نتيجة لانتفاضة شعبية .

هنالك أمثلة كثيرة يمكن سردها عن ان امنحوتب الثالث ، كمعظم الملوك ، قد ادرك الحدود البشرية لسلطانه . فقد حدد منصبه على لوحة اقامها هو نفسه في ابيدوس بموجب نشيد مرفوع الى آمون ترتله جوقة مقدسة : « انت في السماء وانت

تضيء على الارض ، بينما هو (اي الملك) يمارس ملوكيتك على الارض » . ولكن ثمة أدلة اخرى على ان امنحوتب قد بلغت به الغطرسة حداً جعله يعتبر نفسه في مصاف الآلهة . والتاريخ لا يعطي اي دليل على انه كان يتمتع بذكاء خارق . اما أنانيته العمياء فتتجلى في كل كلمة من اقواله وكل عمل من اعماله . ومع ان الفراعنة المصريين، بدون استثناء ، لم يسكتوا ابداً عن التغني بمؤهلاتهم وفضائلهم ، الا ان امنحوتب قد بزّ جميع اسلافه في التبجّح والمباهاة ، وفي ما أقام لنفسه من تماثيل ، عــــدداً وضخامة ، في الهياكل المكرسة للآلهة . فان الملوك السابقين لم يتوقعوا ان تصبح ألوهيتهم مكتملة ناجزة الا بعد المات، وعندئذ فقط كانت الطقوس والشعائر المستحقة للآلهة تُؤدّى اليهم . اما أمنحوتب الثالث فقد اقام نظام عبادته وتقديسه وهو بعد على قيد الحياة ، فتقاسم التكريم والتمجيد مع آمون في الهيكل المدفني الذي شيده لنفسه على الضفة الغربية في طيبة ، ومع بتاح في المحراب الذي بناه في ممفيس . وفي صلب ، لم يكتف بمجرد رسم صوره متشاوراً مع الآلهة ، بل انه يظهر في المعبد المسمّى «المتألق في معات» وهو يعانق ذاته الالهية ويقدم لنفسه الهدايا . وكان قد بنى ذلك المعبد كأثر تذكاري لصورته الخاصة ، ولقّب نفسه فيه « سيد بلاد النوبة » و « الاله المعظم ، رب السماء » .

يرى بعض العلماء في تعظيم أمنحوتب لنفسه مجرد مجهود

دعائي بُذِلَ لمجابهة النفوذ المتعاظم لكهنوت آمون . صحيح ان بعض الحكام الذين برزوا فجأة في الماضي كانوا يجدون انه من الضروري لهم ان يدّعوا زوراً بأنهم يتحدّرون من سلالة ملوك دنيويين ، او ان يشددوا على نسبهم الالهي ، غير ان امنحوتب كان بالفعل متحدّراً من سلسلة طويلة من الملوك الذين أنزلتهم الآلهة ، وهنالك دلائل قليلة على انه كان يهاب كهنة طيبة او يشك في قدرته على السيطرة عليهم . ولعل اصراره على مسألة مولده العجائبي وعلى حقه كملك حي في التمجيد والتقديس كان تأكيداً واثباتاً لمعتقده هو بالذات . لقد كان رجلاً يعرف كيف يستغل ظروفه .

اذا اعتقد انسان (كما يحدث احياناً) في ايامنا هذه بأنه اداة الله المختارة ، فان الناس ينظرون اليه كمشعوذ ، وفي افضـــل الاحتمالات ، كمعتوه غير متزن . اما اذا ادّعى بأنه الله بالذات ، فعند ذاك يُعلَن جنونه . وانه لمن الصعب علينا ان نستجلي الماضي الا على ضوء ما تجمع لدينا من معلومات ، او على ضوء ايماننا او عدم الايمان . ومهما حاولنا ان نكون موضوعيين غير متحيزين ، فانه يكاد يكون من المستحيل علينا ان نلج عقلية شعب متخلف عنا في الزمن والخبرة . ورغم ان هناك معتقدات دينية شبيهة بمعتقدات المصريين القدماء استطاعت الصمود والبقاء حتى ايامنا هذه لدى بعض شعوب آسيا وافريقيا ، فانه يبقى عسيراً علينا ان نتفهم عقلية المصريين وندرك جوهرها السحيق ،

او ان نتخيلهم متأثرين بمعتقدات تختلف كثيراً عن معتقداتنا ، او نقف على مدى تغلغل اثر الدين في حياتهم وافكارهم . ذلك ان منجزاتهم العظيمة المتطورة في حقول التنظيم والادارة ، ومهارتهم ، وطاقتهم الخلاقة المبدعة ، تضللنا وتقودنا الى الخطل. وهكذا ، ومع ان الديانـــة المصرية موضوع لا يقبل التحليل الموجز — بل لا يقبل في الحقيقة التحليل على الاطلاق — فان من الواجب اعطاء فكرة ما عن المعتقدات التي كانت سارية في طيبة خلال الحديث عن مدينة يختلط تاريخها ويتشابك بشدة مع معتقدات حكامها وشعبها وايمانهم .

تلخيصاً للموضوع ، يمكن القول ان الطيبيين كانوا كسائر المصريين يتمسكون ، تحت ستار الاساطير المتراكمة وضروب السحر والشعوذة، بثلاثة اسس دينية هي في الجوهر عامة شاملة: ايمان غامض ولكنه شائع بإله اعظم ، هو خالق كل شيء . وايمان بنظام مقدس اسس منذ بدء الخليقة ، وبأن الملكية هي الوسيلة الدنيوية لذلك النظام . واخيراً وفوق كل شيء ، ايمان بالحياة بعد الموت .

في ارض تسطع عليها الشمس بصورة تكاد لا تتغير، ويبعث فيها الخصب فيضان يكاد يكون محتم الحدوث كل عام ، كان من السهل الاعتقاد بأن هناك قوة خلقت كوناً لا يتغير ولا يمكن تغييره ، ونظاماً خالداً لا يتبدل ابد الدهر . ومثل هذا المعتقد مألوف لدى اديان كثيرة بما فيها بعض اعظم الديانات اطلاقاً .

ورغم ان المصريين وسّعوا ذلك المعتقد واطلقوه من النطاق الروحي بحيث شمل الحقول الزمنية من جهاز حكم ونظم اقتصادية، الا انه لم يكن (كما اشار جون ويلسون) معتقداً يمهد للتقدم والنجاح، ولا كان يفسح المجال امام الانسان للتطور والتوافق بشكل متواصل مع كون دائم التغير والتبدل في الظاهر، ولو انه لا يتغير ولا يتبدل في الجوهر. ولعل ذلك المعتقد قد اراح الانسان القديم من مسئولية مصيره، ولكنه ابقاه عبداً لماضيه التافه الناقص النمو.

ان الاعتقاد بإله جامع شامل خالق كل شيء، يعود في الاصل وتمتد جذوره الى ابعد الازمان. وكان للخالق اشكال ومظاهر عديدة، كما ان هناك اماكن عديدة ادعت بأنها كانت الموقع الذي بدأت فيه الخليقة. ولكن ثمة فكرة عن البداية اخذت تعتمل وتنتشر في الارض منذ ما قبل التاريخ، وهي فكرة تلعب فيها الشمس التي تعطي الحياة الدور الرئيسي.

في العهود الغابرة المظلمة، عندما بدأ الناس يتجمعون ويأتلفون، أقدمت كل مجموعة او قبيلة منهم على رفع إله خاص بها، إله كان يتمثل عادة في حيوان، او نبتة، او حجر، أو رَمْز، ونادراً ما كان يُمَثَّل بالشكل الآدمي، حتى كانت الازمان التي دخلت التاريخ. وكانت السيادة في هذا المضمار للآلهة الحيوان التي كانت تعبد لخصبها وكثرة توالدها وحيويتها وقوتها وهولها. وبعض تلك الآلهة البدائية كانت تُمثّل، او

انها باتت تـُمَثـِّل الظواهر الطبيعية والكونية، والارض والهواء، والريح والمياه، والاجرام والكواكب السابحة ابداً جيئة وذهاباً في السماء . وكانت اسماء بعضها تشير الى عظمة الآلهة وروعتها التي تفوق الوصف ، كمثل « البعيد » و « الخفي » و « الكامل » .

ومع مرور الزمن تجمعت القبائل البدائية وتكاثفت اما بسبب الغزو او صوناً لمصالحها الخاصة في اتحادات متفرقة ، وغدت مصر تتقسم تدريجياً الى ما اصبح فيما بعد ولايات او (كما سماها الاغريق) دويلات إسمية . وفي البداية كانت هذه الولايات ممالك صغيرة مستقلة ، لكل منها حاكمها وإلهها ، الذي كان إله الفريق الاقوى في الاتحاد . وبما ان كل واحدة من القبائل التي كانت تؤلف دولة ، تمسكت بإلهها الخاص منذ عهد الجدود ، فقد اعطيت الألوهيات الاضافية مكاناً لها في نظام الاله الرئيسي كنسيبات او شريكات له . وهكذا فقد جرت العادة على ان يكتسب إله المقاطعة عائلة تتألف من زوجة (او زوج) وولد .

على الرغم من ان حدود تلك الممالك قد تغيرت خلال ازمنة التاريخ ، وان الوحدات الاساسية قد دمجت بعضها ببعض او قسمت ، فان هوية كثير من الاتحادات البدائية لم تفقد . فقد حافظت بعض الممالك على اسمائها وألويتها القديمة ، التي كانت ترفع عالياً صور الآلهة القدامى او رموزهم . وظل كثير من المصريين غير الملمين بعلم اللاهوت يحتفظون لإلههم الاقليمي بمكانته السامية . ولكن بعض الافكار الدينية المتحدّرة من مراكز

اكثر تقدماً واقوى سياسياً ، اخذت تتسرب الى البلاد منذ ما قبل التاريخ ، وغدت بعض الألوهيات التي تجسد قوى وظواهر كونية او فكرات معنوية مجردة تلاقي احتراماً وتمجيداً واسعين ، ان لم نقل عالميين .

ومع تعاقب الاجيال بدأت تبرز الى حيز الوجود اتحادات اكبر وأقوى متألفة من عدة دول صغيرة ذات وحدة مفككة مرتخية . وقبل بدء التاريخ بقليل ، بدا ان هذه الاتحادات الجديدة الكبيرة كانت تتألف احياناً من فريقين غير ملتحمين وممتزجين تماماً ، الواحد منهما في مصر السفلى والآخر في مصر العليا . بل ان هنالك احتمالاً في ان يكون القطران قـــد تمتعا بائتلاف قصير الامد تحت حكم ملك واحد قبل ان تم توحيدهما النهائي . ومهما تكن الحال ، فانه من المؤكد ان العبقرية الادارية المصرية قد ولدت في زمن تلك الاتحادات المبكرة . وليس من شك في ان ذلك الزمن شهد بداية نظام للري لم يكن ممكناً ان يتحقق لولا وجود تعاون مشترك واسع النطاق ، كما شهد قيام تجارة آمنة مهدت الطريق لحياة متجانسة متشابهة في كل البلاد ، لا سيما وان التجار كانوا يحملون معهم غالباً افكاراً دينيـــة استطاعت ان تلقى القبول العام .

كان موضع العجب في كثير من الاحيان ، كيف ان مصر استطاعت ان تظهر عبر التاريخ بمظهر البلد المالك ناصية الحكمة بكامل عدتها . وقد فُسّر تبرعمها حوالي بداية عهد السلالات في

ميدان الفنون والمهارات ، وفي القدرة على الحكم ، والنظريات اللاهوتية ، وفوق كل شيء في السرعة العجيبة التي تعلمت فيها كيف تعبر عن نفسها بالكتابة ، نقول ، لقد فُسّر هذا كله اجمالاً بأنه نتيجة ظهور « جيل جديد » ، او على الاقل نتيجة المعرفة التي انحدرت اليها من حضارات قديمة سابقة في الشرق الادنى . فأن يكون قد جاء بعض الوحي من الشرق ، فهذا شيء مؤكد ولو انه كان سطحياً بوجه عام . اما أن يكون قد استجلَبَ هذا الوحي « جيل جديد » فهذا أمر مشكوك فيه الآن . الواقع ان مصر كانت قد نضجت في نواح عديدة نضوجاً مدهشاً قبل ان تدخل التاريخ ، وكانت حضارتها بالمعنى الكامل أصيلة ، نابعة من ابناء ارضها الاصليين .

لم يمض وقت طويل على قيام اول الملوك الذين عرفهم التاريخ في القطرين وتثبيت أنفسهم في ممفيس ، حتى كانوا قد اعتمدوا الاله بتاح الذي وجدوه هناك على صورة بشرية ، كخالق للآلهة والبشر ومؤسس للنظام المقدس . ولعل اسطورة الخليقة التي نقشت على حجارة صلبة في « العهد التالي » تبدو من خلال بعض الشواهد الداخلية وكأنها قد صيغت جزئياً على الاقل في مستهل « عصر الاهرام » ، رغم ان الكثير من نواحي فكرتها قد تكون عائدة في الاصل الى ما قبل التاريخ . وينظر علم اللاهوت الممفيسي الى بتاح ليس فقط على انه خالق الآلهة والبشر ولكن على انه ايضاً الهضبة الفطرية الاصلية « تا - تينن » . وهو معطي

الحيـــاة والوجود الى اتوم ، المعتبر خالق هليوبوليس ، والى اوزيريس الملك المؤله الذي قام من الموت والذي غدا يمثل أمل المصريين في الخلود والدوام الابدي . وعلى الرغم من ان علم اللاهوت الممفيسي مشوش بالاساطير والتوريات الخيالية ، فانه لا يخلو من الروعة والعظمة . وفي حين ان معظم علوم اللاهوت المصرية تفسر الخلق على انه عمل مادي حسي قام به الخالق او صانع الخلق ، فان النظام المسجل على يد الكهنة الممفيسيين مستوحى من الفكرة المنطوية على وجود قدرة مقدسة . فهو يصور الكون على انه فكرة حبل بها قلب بتاح وانه ظهر الى الوجود بناء على كلمته ، تماماً كما جاء في انجيل يوحنا ١ : ١ — ٣ « في البدء كان الكلمة ، والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله . . . كل شيء به كان . . . » .

مع أن بتاح غدا يتمتع بالاحترام والتمجيد في مصر بأسرها كواحد من الآلهة العظام ، فقد ظل دائماً في الدرجة الاولى ممفيسياً ، وإلهاً للعاصمة القديمة والسلالات التي حكمت هناك . وكان مبجلاً في أماكن اخرى ولكن ليس بصفته خالق الكون بصورة رئيسية (الا في اوساط اللاهوتيين ربما) ، وانما بصفته صانعه . فهـــو ، كما يكشف اللاهوت الممفيسي ، الذي صنع « الاجسام » لجميع الآلهة «من كل خشب ، ومن كل حجر ، ومن كل طين » ، لكي يتسنى لهم ان يقطنوا عالم البشر . وهكذا أصبح بتاح المثل الاعلى والشفيع للفنانين والصناع .

كان لمدينة هليوبوليس ، وهي أقدم من ممفيس ، أثراً اكبر في الحيـــاة الدينية المصرية من أثر ممفيس ، اذ هناك نشأت وترعرعت عبادة الشمس التي ما لبثت ان طغت على البلاد بأسرها . ورغم ان هليوبوليس لم تسبق الى التفوق والسيادة من حيث السياسة في العصور التاريخية ، فانها كانت دائماً قلب مصر الروحي . فقد اعطت من آلهتها آلهـــة لملوك ممفيس واجتذبت آلهة ممفيس الى بوتقتها ومدارها ، وألهمت العقائد والمذاهب الطيبية ، ومهدت الطريق امام اخناتون في حربه من أجـــل تكريس قرص الشمس المرئي إلهاً أوحد . وقد ظلت هليوبوليس ، حتى دُثرت ولحقها الخراب ، مكاناً مقدساً ومستودعاً لحكمة الازمان الغابرة .

في تلك المدينة التي كللها المشيب ، كان أتوم هو الخالق ، « الكل » الذي انبثق منه كل شيء . وكانت تنسب اليه الصلة بالجعل (الجعران) الذي كان المصريون يعتقدون انه ، مثلما كان الاله نفسه ، يولـّد نفسه . اما الاسم الذي أعطي للجعران فهو يعني « ان يأتي الى الوجود » ، « ان يصبح ويصير » ، كما تحول عبر القرون ليس فقط الى تعويذة قادرة على تجديد الحياة ابداً ، بل ايضاً الى مظهر وتجسيد للخالق . ومع ان أتوم لم يلبث طويلاً حتى خلفه الاله الشمس رع ، فان هذا لم يستطع ان يكسفه . فقد ظل هو « الكل » ورع صانع خلقه . وكان نور كلا الالهين رع وأتوم — رع هو الذي يضيء العالم .

ليس يعرف بالضبط متى تبلور الدين الشمسي الهليوبوليسي وغدا علماً لاهوتياً . لقد امتدت جذوره الى ما قبل التاريخ . وهو لاهوت ينعكس لنـــا من خلال الكتابات والنصوص في الاهرام ، بل انه اوحى بالاهرام نفسها . ولكنه اصبح سائداً في عهد السلالة الخامسة . لقد شيد ملوك مصر المتحدة القدماء أضرحة فخمة لاقامتهم الخاصة بعد الموت، في حين أنهم لم يقيموا للآلهة سوى مساكن متواضعة ، ولكن ملوك السلالة الخامسة ، الذين كانوا غالباً ما يتسمون باسماء يختلط فيها اسم رع الذي كانوا يدّعون بأنهم ابناؤه ، شيدوا هياكل رائعة ، للاله الشمس وانتزعوا أراضي شاسعة وجعلوها اوقافاً لهـــذه الهياكل . وبالاضافة الى هذه الاراضي ، كانت هناك اراض مخصصة لبناء الاضرحة للملوك وأهـــل حاشيتهم وصيانتها ، واراض تم الاستيلاء عليها لاجل اعالة الاسرة المالكة والموظفين الذين كان يتزايد عددهم يوماً بعد يوم ، والذين كانوا يعيشون بصورة مباشرة او غير مباشرة على « مائدة الملك » ، ولذلك فقد كان طبيعياً ان تنعدم الملكية الفردية على وجه التقريب وان يتوقف مصير عامـــة الشعب على استئجار الاراضي وعلى الرق والعبودية .

في القاعات المفتوحة حيث كانت تقوم محاريب هيـــاكل الشمس التي شيدتها السلالة الخامسة ، كانت تقبع أنصاب تتوّجها اهرامات مطلية بالذهب تلتقط أشعة الشمس المشرقة .

وكانت هذه الانصاب محاولة لتقليد حجر «بنبن» في هليوبوليس القائم فوق الهضبة الفطرية ، وكان الاله رع يرسل اليها مع مطلع كل فجر شعاعاته كتمثيل لاعجوبة الخلق . ومن هذه الانصاب، وبصورة غير مباشرة من الحجر البدائي الذي كان يكرم منذ ابعد الازمان، ارتفعت المسلات العظيمة التي شمخت فوق طيبة .

استقـــدم ملوك مصر الاقدمون معهم الى ممفيس ، من هيراكونبوليس في اعلى النيل، الهاً شمسياً آخر هو الصقر هورس، الذي كانت عيناه هما الشمس والقمر ، وكان جناحاه ينتشران عبر الفلك . ربما كان هورس في الاصل واحداً من آلهة مصر السفلى ، ولكنه لم يلبث ان اصبح في وقت معاً مرادفاً للشمس الخـــالدة والملك ــ الاله الحاكم . وقد دعا ملوك مصر الاوائل انفسهم « هورس » ، كما احتفظ الفراعنة فيما بعد باسم هورس في ألقابهم الى الابد . لقد أدخل هورس في محيط رع الهليوبوليسي في عهد مبكر ، ومنذ السلالة الخامسة والحكام المتعاقبون لا يجـــدون غضاضة في تسمية انفسهم بالشمس (هورس) وبابناء الشمس (رع) .

في تلك الحقبة بالذات يبرز هورس بصفة جديدة على انه ابن أوزيريس، الإله الذي احبه المصريون وكرموه في العصور التالية اكثر من اي إله آخر ، لانه كان يمثل املهم في الحصول على الحياة الابدية . وكان من المعتقد ان أوزيريس الذي طالما تمتع بالاحترام في منطقة الدلتا قد عاش في وقت من الاوقات على

الارض كملك بشري . وهناك امكانية مبهمة في انه كان ملكاً او زعيم قبيلة في الماضي المنسي . وتخلص القصة الى انه كان ملكاً صالحاً وحكيماً حكم مصر بأسرها ، معلماً شعبه الفلاحة والزراعة ، وسانّاً الشرائع لهدايته ، وملقناً اياه احترام الآلهة والولاء لهم . ولكنه لم يلبث ان أقدم على قتله اخوه الحاسد الحاقد ، «ست» (وهو اله من مصر العليا قدم من القفار الغربية البعيدة متمثلاً في شكل حيوان غير معروف يشبه الكلب ، وطباعه شرسة مخيفة) ثم القى بجثته في النيل . وقد اخذ هورس على عاتقه ان يثأر لوالده ويثبت حقه في الخلافة ، وبعد صراع طويل مع عمه الشرير انتصر عليه وورث عرش القطرين .

ان ملحمة هذا الصراع البطولي بين هورس وست ، وهي مروية هنا بشكل سيىء ، تظهر في بقايا عدد من الوثائق الباقية ، ولكنها مخلدة بصورة كاملة في حكاية شعبية عنيفة اللهجة قليلة الوقار كتبت باللغة الدارجة للسلالة التاسعة عشرة . ويعتقد البعض ان الاسطورة ترمز الى الصراع بين النور والظلمة ، بين الخير والشر ، على نحو ما هو شائع في افكار واساطير كثير من الشعوب . ولكن هناك علماء معاصرين آخرين يرون فيها حلقة تكاد تكون منسية من الصراع الطويل على السلطة في مصر ، عندما تغلب الشمال (هورس) مؤقتاً على الجنوب (ست) الذي عاد في النهاية وتمكن من اسر هورس وحقق لنفسه الانتصار .

ان قصة أوزيريس لا تنتهي بموته . فالملك المقتول كان يقترن منـــذ وقت مبكر بإله قديم من آلهة النبات يقيم على الارجح في بوصيرس بمنطقة الدلتا . وكما ان النباتات تنمو وتموت ثم تولد من جديد ، هكذا رُوي عن أوزيريس انه مات ودفن وقام من الموت . وفي قصة قيامته تظهر الإلهة ايزيس ، التي كانت تـُمـَثـّل في الاصل العرش الملكي على ما يظهر ، كزوجته . وبمساعـــدة هورس آخر ولد بعد المات ، استطاعت ان تنقذ جسد زوجها الذي قطعه ست الفظيع اربا اربا وبعثره في امكنة متباعدة ، وتقدمه الى أتوم — رع ، الخالق ، الذي اعاد جمعه وتركيبه واحياءه بعد الموت بصورة سحرية . واعطي الملك الذي أعيد الى الحياة مكانا بين الآلهة كحاكم على «العالم السفلي» ، وأصبحت ايزيس النموذج المثالي للزوجية والأمومة ، كما اصبح هورس الوليد ، يجسد ليس فقط حق الملوك الموروث وانما ايضاً الطاعة البنوية على وجه العموم .

دام نظام عبادة ايزيس عبر الاجيال والعصور متعاظماً مدى وحمـــاسة مع اقتراب الحضارة القديمة الى نهايتها . وفي بعض الاحيان تمثل الرسوم القديمة المهجورة الإلهة ايزيس واقفـــة بجانب عرش ، وفي بعض الاحيان تظهر كامرأة متوجة بالعرش ، ولكنها تبدو في الغالب وهي تعتمر القرون والقرص اللذين كانا لهاتور ذات الاذنين البقريتين ، وهي الإلهة الام وإلهة الحب التي اندمجت بها ايزيس فيما بعد . وقد صنعت تماثيل لا تحصى

لايزيس وهي تحمل الولد المقدس بين ذراعيها لتقدم كنذور او لتصمد في مذابح البيوت للعبادة . اما اسرارها الغامضة فقد كان يحتفل بها وتحيى ذكراها في جميع انحاء العالم الروماني ، وقد ظهر كهنتها الحليقو الرءوس في ألبيون البعيدة .

وكما غدا هورس مجسداً في الملك الحي ، كذلك غدا اوزيريس ممثلاً للملك المتوفى الذي كان يتحد معه بعد الموت ليشاطره الخلود . وفي البدء ، كان الفرعون وحده يأمل في ان يتحقق له مثل هذا الاتحاد الروحاني ، ولكن هذا الامتياز لم يلبث ان شمل تدريجياً افراد العائلة المالكة ثم غيرهم من الناس المحيطين بالملك . واتسعت الدائرة رويداً رويداً مع مرور الزمن ، حتى اصبح اكثر الناس تواضعاً يطمحون لان يصبحـــوا اوزيريس ويقوموا من الموت لينعموا بحياة ابدية .

في اوقات « الفترة المتوسطة الاولى » المضطربة ، كانت قد نشأت فكرة سابقة تتركز في ان الحياة المقبلة قد تتوقف الى حد ما على استقامة الشخص وصلاحه في عالم الاحياء ، ولذلك اصبح يُنْظَـر الى اوزيريس ليس فقط كحاكم على الاموات بل كقاض لهم ايضاً . وتُظْهِـر الاعتبارات الاخلاقيــة المتوارثة عن المملكة القديمة انه كان في مصر دائماً قاعدة معينة للاخلاق ، ولكن هذه الاخلاقية كانت ترتكز في الدرجة الاولى على اللياقة والذوق وعلى التعايش السليم في العالم وحسن الجوار مع الآخرين . ونادراً ما كانت تعبر عن الفكرة بأن الاستقامة قد ترضي الإله .

ظلت العلاقة بين الديانة والاخلاق علاقة واهية . وتصور بعض ألواح البردى المدفنية التي عثر عليها في طيبة من عهـــد المملكة الجديدة ، تصور الانسان المتوفى واقفاً امام محكمة العالم السفلي المخيفة حيث يوضع قلبه في الميزان مقابل ريشة هي تعبير عن سجية الإلهة معات التي تمثل الحق والعدل والصلاح ، وفوق كل شيء النظام القائم . وألواح البردى هذه غالباً ما تحتوي على ما هو معروف للعلماء المعاصرين بـ « الاعتراف السلبي » الذي يدّعي فيه الشخص المتوفى بأنه لم يقترف اية خطيئة من قائمة طويلة متكررة من الخطايا . وتشمل هذه القائمة معظم الخطايا الدائمة التي حرمتها الوصايا العشر ، كما تشمل خطايا عديدة اخرى لم تذكر بوضوح في ذلك النظام الدائم للسلوك الحسن . فالمتهم امام محكمة اوزيريس يجاهر مثلاً بأنه لم يقدم على فعل اللواط ، ولم يتلاعب ويُزوّر في دفع الضرائب ، ولم يأخذ اكثر من حصته العادلة من مياه الري ، ولم يقصر في اداء الاحترام لمن هم اعلى منه مرتبة ولا في الولاء والاخلاص للمكه ، ولم يهمل واجب مراعاة طقوس الآلهة . حتى هنا اذن ، لم تكن الفكرة الدينية حقاً هي السائدة . ويتلقى المتوفى المساعدة عن طريق السحر ، في هذه المحاكمة وفي سواها من المحاكمات التي يتعرض لها في الطريق الى النعيم . وشأن الابالسة والشياطين البشعة التي تحدق به طوال الطريق ، فان الآلهة الازليين ايضاً ينخدعون بالتعاويذ وينطلي عليهم السحر . فالاعتراف السلبي بحد ذاته تعويذة او ضرب سحري اكثر منه اعتراف صادر عن شخص نادم . وهناك فصل

من « كتاب الاموات » له فعالية كبيرة اذ هو يرقي قلب الانسان ويسلط عليه السكوت لئلا يشهد القلب ضد صاحبه وهو على كرسي الدينونة .

على الرغم من ان الاعتبارات الدينية الاساسية ، كما حددت في مستهل هذا الفصل ، كانت مقبولة على وجـــه العموم في سائر انحاء مصر ، فان البلاد لم تعرف ابداً ديانة واحـــدة موحدة . لقد بقي الايمان مائعاً ولم يتبلور ابداً في مذهب معين . والسلالات المتعاقبة رفعت هذا الاله او ذاك الى أسمى المراتب على انه الشفيع السلالي ، ولكنه لم يكن هنالك ملك واحد سعى لان يفرض آلهته بالقوة على الشعب بصورة عامة . لقد عاشت النظريات اللاهوتية المختلفة جنباً الى جنب دون منافسة او نزاع ، وكانت تتبادل الآراء والافكار بحرية ، كما تتبادل الآلهة والطقوس والشعائر . لم تقم أية خـــلافات او منازعات بين اللاهوتيين المختلفين ، ولا اية حروب دموية بين الطوائف ، ولا اية ردات او محاولات هداية ، ولا اي تعصب في اي وقت من الاوقات ، باستثناء تلك الحقبة القصيرة التي حاول اخناتون خلالها ان يفرض اصلاحاً دينياً كانت الحاجة ماسة اليه ، والفترة التي أعقبت محاولته الفاشلة مباشرة .

ليس عجيباً ان يكون اللاهوت الطيبي حسبما تم وضع دستوره في سياق عهد السلالة الثامنة عشرة ، قد استعار من لاهوتيات ممفيس وهليوبوليس واقتبس عنها (وهي التي عرضنا

لها سابقاً بشكل سطحي ومبسط جداً دون ان ننوه بتعقيداتها التدريسية او بمغازيها السياسية) كما اقتبس من فلسفات لاهوتية لمراكز اقل شأناً وأهمية . نقول استمار واقتبس وجمع ، ولكنه لم يُضيفْ شيئاً جديداً على الاطلاق . فكما قال ارمان الشهير منذ مئة عـــام ، ان بليّة المصريين كانت في انهم لا يستطيعون ان ينسوا ابداً . وكان احد الحكماء القدامى قد جعل من هذه البلية نعمة اذ قال — «كل كلمة (من أقوال الجدود) تُحْفَظُ وتُتَنَاقل الى الابد في هذه البلاد ، دون ان تتلاشى او تضمحل» — وهو لم يقل الا الصواب . فالواقع ان قليلاً من المعتقدات المتضاربة التي نشأت خلال طفولة ذلـــك الشعب قـــد اهملت تماماً . وقليل ايضاً من الآلهة طواها النسيان . بل لقد أضيف آلهة جدد من وقت لآخر الى مجموعة الآلهة التي كان افرادها يتزاوجون ويتبادلون الخصائص والصفات والمهام والمراتب بشكل يثير الحيرة والبلبلة ، حيرة وقع فيها اللاهوتيون المصريون الذين حاولوا في بعض المناسبات استخلاص بعض التنظيم من الفوضى ففشلوا فشلاً ملحوظاً ، وبلبلة بالنسبة للعلماء المعاصرين الذين يحاولون استخراج بعض المعنى من النصوص الدينية التي جُمِعَ معظمها منذ القديم من مصادر متفرقة كانت هي نفسها في الغالب سحيقة القدم مبهمة الفهم (اذا فهمت على الاطلاق) على الكتبـــة الذين استخدموها ونسخوها .

من السهل علينا ان نفهم لماذا لم تستطع الديانة المصرية ، وهي

التي عاشت وظلت قيد البقاء أكثر من ثلاثة آلاف عام ، ان تصبح قوة روحية شاملة ابداً ، ولا ان تثمر فلسفة حياتية ملائمة متينة . الا انه كان هناك بعض المصريين الذين استطاعوا ان يستشفّوا لمحةَ سموٍّ عبر ذلك الحشد الهائل من الآلهـــة ، والطقوس المتجمدة ، والمحاولة اليائسة لاستجلاء القدر عن طريق ضروب السحر والشعوذة . فمنذ عهد المملكة القديمة المبكر ، استطاع نفر من الرجال تكوين فكرة عاقلة في كتاباتهم ، لا عن اي إله او آلهة بالجملة ، وانما عن « الاله » الواحد بالمعنى المجرد ، وعن حاجة الانسان الى العيش بسلام في هذا العالم عن طريق هذا الاله الواحد . « ليست نوايا الانسان ومقاصده هي التي تتحقق وتتم ، وانما مشيئة الله وتدبيره » (الانسان يسعى والله يدبر) ، هكذا كتب بتحوتب . ويقول أختوي لولده : « الله يعرف من الذي يعمل لاجله . انه يعرف كل انسان باسمه » . كثير من مثل هذه العبارات التي يستبق بعضها حكمة العهد القديم في الكتاب المقدس ، تتخلل العقلية الدنيوية المتحجرة في الادب الخلقي المصري : « الله يطلب منك احترام الوضعاء اكثر من تبجيل الكبراء » و « الله يبغض ذاك الذي ينطق بالباطل والكذب » ، و « السعيد هو الذي يسير في طريق الله » . ان ذلك التوفيق المحيّر بـــين المذاهب المتناقضة الذي مارسه المصريون ، هو بحد ذاته ادراك للاله الشامل — نزوع الى جعل الكثرة ، مظاهر تكشف عن الواحد . والحقيقة انه بالرغم من بعض الاختلافات الموضعية في الصفات والمهام ، فان مجموع

الآلهة المصريين كانوا يتبعون نهجاً قوي التشابه ويكشفون عن فردية وأوحدية في الجوهر .

تكشفت قصة الخلق في طيبة على النحو الذي تكشفت فيه في اي مكان آخر ، ولكن مع تغيير فقط في المكان وفي اشخاص القصة . فآمون أصبح هنا الخالق ، وطيبة موقع الهضبة الاصلية . ويعتقد البعض ان آمون كان في الاصل واحداً من آلهة هرموبوليس ، وهي المدينة التي كانت على ما يبدو منافسة لهليوبوليس في وقت من الاوقات . ففي هرموبوليس كان آمون ، « الواحد الخفي » ، إله الجو الذي مَثَّلَ او بات يمثل النسمة التي تحيي جميع الكائنات الحية . غير ان كثيراً من العلماء يعتقدون على كل حال بأن آمون الطيبي كان إلهاً محلياً مجهول الاصل ولو انه حمل اسماً مشابهاً ، وانه انتحـــل بعض صفات الاله الهرموبوليسي كما اتخـذ ايضاً صفات « مين » ، وهو من آلهة الخصب في كوبتوس القريبة . وعلاقة آمون بمين لا مجال للجدل فيها ، فهو كثيراً ما دُعِيَ « مين ـــ آمون » ، وتماثيله ورسومه المبكرة المعروفة تظهره على شكل جاره ، الاله الذي يمثل الخصب .

كان آمون ، على كل حال ، إلهاً متلوناً متغيراً ، اتخـــذ اشكالاً عديدة . فقد ظهر احياناً بشكل كبش خروف ، واحياناً بشكل إوزة . ونادراً ما كان يُظهر نفسه في المظهر الذي يرجح انه كان الصفة الاصلية التي يتصف بها ، اي ثعباناً فطرياً يعيش

في ديجيم ، وهي « اقدس موضع لآمون » (مدينة حابو حالياً) ، في كهف مخيف . ولكن آمون كان بصورة عامة يتخذ الشكل البشري ، متوجاً كملك ، وتاجه يتحلى تارة بالريشتين التوأمين اللتين كانتا من خصائص مين ، وتارة اخرى بقرني الخروف ، رمز الخصب ، وطوراً بقرص الشمس والافعى الخاصين برع ، واحياناً بالصفات الثلاث معاً .

لم يكن آمون معبوداً في وادي النيل فحسب ، بل كانت له محاريب ايضاً في بلاد النوبة وفي الشرق . ذلك ان اشعاعه كان يصل الى نهاية اطراف الارض . وعلى الرغم من ان ثروته ونفوذه قد تضاءلا في بلاده بالنهاية ، فان النسيان لم يطوه ابداً . اما في البلدان الآسيوية التابعة والموالية ، فقد زالت عبادته مع زوال سلطان مصر ، في حين ان ايزيس – هاتور والطفل هورس قد عاشا في مخيلة الشعوب هناك زمناً أطول من اي إله مصري آخر . غير انه بعد انقضاء قرون عديدة على زوال الامبراطورية ، وقد اصبحت مصر يحكمها ملوك غرباء ، واستحال معبد الكرنك اطلالاً خربة ، ظلت عبادة آمون معززة بقوة لدى الملوك الصغار نصف المتوحشين في بلاد النوبة .

سبق وأشرنا في هذا الكتاب الى بزوغ آمون في عهد السلالة الحادية عشرة ، ثم الى ارتفاعه للمرتبة السامية في عهد السلالة الثانية عشرة . وفي حين ان بعض حكام المملكة الوسيطة رفعوا شعار « آمون هو الاول والاسبق » في الاسماء التي اتخذوها ،

فانهم رغم ذلك لم يحضوه الا قدراً ضئيلاً من ولائهم واخلاصهم . اما بالنسبة للملوك السلالة الثامنة عشرة ، فقد كان في الحق هو الاول والاسبق . كان هو الذي ثبت دعائم السلالة ، ووهب النصر لملوكها ، وجلب الرخاء والرفاهية على البلاد . لم تكن الاعتبارات السياسية وحدها سبب اقدام الملوك على بناء الهياكل له ، ووقف الاراضي والعبيد والثروات والمغانم من اجل المحافظة عليها ، بل لقد كانوا يؤمنون به حقاً . وكانوا يأملون من وراء اغداق الثروات عليه أن يضمنوا استمرار مساندته ومعاضدته لهم ولشعبهم . واقدامهم على جعله ملك الآلهة ، ووضع جميع الآلهة ومعابدهم وكهانهم تحت سلطته واشرافه ، لم يكن فقط من اجل تدعيم سلطتهم واحكام قبضتهم على مصر . فمع ان من الممكن القول بأنه كان لديهم ، شعورياً او لاشعورياً ، مقصد باطني او باعث خفي ، فان الحقيقة الثابتة هي انهم كانوا يؤمنون به بالفعل ، هم ورعاياهم .

عرف الطيبيون الشيء القليل او انهم لم يعرفوا شيئاً البتة من تاريخ ديانتهم الغامضة ، التي حاول العلماء المعاصرون تقصي امرها . فقد تقبلوا الآلهة المتعددين ، والمعتقدات الدينية المشوشة التي تحدّرت اليهم ، بإيمان مطلق لا يرقى اليه الشك . كان طبيعياً ان يعتقدوا (اذا فكروا في ذلك على الاطلاق) بأن آمون القاهر الكل قد استوعب الاله القديم رع . وطبيعي ايضاً ان يعبدوا آمون — رع ، ويستمروا في تقديس الالهين ، كل

على حدة او في امتزاجات اخرى . ولم يكن هناك اية غرابة في ان يستقدم اللاهوتيون الاله بتاح الى المحيط الطيبي ليؤلف ثالوثاً سرياً مع آمون ورع ، او ان تنجذب آلهـــة اخرى اكبر واصغر الى بلاط ملك الآلهة في الكرنك .

احتفظت تلك الآلهـــة بهوياتها الخاصة رغم انها خضعت للإله الاعظم . واصبح كثير من هذه الآلهة ما يمكن تسميتها بالآلهة ذات الاختصاص . وكل واحد منهم يتلقى الالتماسات في ميدان اختصاصه . فقد اسلفنا ان مونتو الذي قاد اسلاف السلالة الحادية عشرة الملكيين الى النصر ، ظل محتفظاً باعتباره السامي كإله المعارك الحربية . وكان احياناً ، مونتو – رع ، يشاطر آمون شرف التشبه والتمثل بإله الشمس . ومع ان مقره الرئيسي كان في بلدة أرمنت المجاورة ، عاصمة الولاية الطيبية قبل ان تنشأ المدينة ، فقد كان له ايضاً محراب عتيق في مدعمود بضاحية طيبة ، كما شيد له امنحوتب الثالث هيكلاً فائق الروعة داخل محيط الكرنك .

اما خنوم ، الإله الخالق الذي كان على شكل خروف ، والخزّاف المقدس الذي جبل الجنس البشري وصاغه على دولابه الدوّار ، فقد رسم على جدران معبد الاقصر وهو يقوم بصنع امنحوتب الثالث المقبل . ومن المحتمل ان يكون قد احضره الى طيبة اولئك المغامرون الاشداء الذين عاشوا في مدينة الفيلة (ألفنتين) على الحدود البعيدة ، والذين قدموا للفراعنة خدمات

طيبة كقادة للحملات الصحراوية وكرواد وبحارة مقدامين. وقد أُدمِجَ الإله الخروف بسيد طيبة تحت اسم خنوم — آمون .

كان من الطبيعي في مدينـــة معظم ساكنيها من الكتبة والكُهّان كمدينة طيبة ، ان يكون توث موضع الاحترام والتبجيل . فقد كان «عظيماً في السحر» ، ومخترع اللغـــة والكتابة ، وقيماً على كل العلوم . كان لسان بتاح الذي نطق فأوجد الكون ، ولكنه كان ايضاً خالقاً بصفته الخاصة ، على شكل طير «ابو منجل» الذي كان معتقداً انه وَضَعَ على الهضبة الفطرية في مدينته هرموبوليس البيضة الكونية التي خلقت منها الشمس . ومن المرجح انه في وقت مبكر من حياته العملية الطويلة أصبح الإله القمر ، او «رع الذي يسطع في الليل» . وبصفته هذه ، غالباً ما كان يتمثل في شكل قرد ذي رأس كلب، او في شكل انسان متوج بقمر. ولما كان التقويم المصري الاول تقويماً قمرياً ، فان توث كان يحظى بالتكريم والتوقير كمحاسب للزمن ، وكمقرر للمدة التي يحكم فيها الملوك ، وكمحدّد لأعمار الناس . وكان شفيع الاطباء الذين كانوا يخلطون السحر في عقاقيرهم ، كما انه كان شفيع الكتبة . وكثير من المكاتب الطبية كان يتصدرها رسم قـــرد ، كما ان كثيراً من الكتبة صوّروا انفسهم متعبدين بخشوع امام الإله إما في شكل طائر او في شكل حيوان . وكان توث ، بصفته كاتب الآلهة ، هو الذي يحمل الميزان ساعة الدينونة ومحاكمة الاموات .

وبالرغم من انه لم يكن لأوزيريس اي محراب في طيبة في عهد المملكة الجديدة حيث كان آمون صاحب الصولة ايضاً على مدينة الاموات ، الا ان ملك الاموات أوزيريس كان مع ذلك دائم الوجود في الطقوس والشعائر الجنائزية لدى الملوك والافراد على السواء . وكانت الام المقدسة ايزيس والطفل هورس يتمتعان باحترام الكبار والصغار . وبما ان كل ملك هو « هورس حي » ، فقد كان الاله على صلة وثيقة بنظام عبادة الملكية . وبصفته المنتقم لأبيه أوزيريس وخلفاً له ، فانه لم يكن فقط النموذج المثالي للاحترام والطاعة البنويين ، بل كان ايضاً يجسد الحق الملكي في الخلافة ووراثة العرش . ولقد ازداد هورس شأناً وأهمية مع تزايد نفوذ نظام العبادة الشمسية الهليوبوليسي ، اذ انه كان يمجد في هذا النظام على انه رع – هرخت ، اي الشمس عند شروقها .

لم يسمع عن الاله ست الا القليل في موطنه مصر العليـــا خلال الحقبة الاخيرة من عهد السلالة الثامنة عشرة . كان الملوك احياناً يدعون أنفسهم باسمي هورس وست معاً ، وذلك كدليل على حكمهم لكلا القطرين ، كما كان يرد في الاساطير ذكر ذلك الاله المشاغب على انه برّر نفسه وحظي بالتزكية بحمايته للاله الشمس من الهجمات اليومية التي كان يشنها عليه الثعبان المفترس ابو فيس . ولكن عبادة ست باتت مقتصرة الآن على منطقة الدلتا . فهناك ، على ما يذكر ، تبناه الهكسوس ، ومع ان هذا الامر لم يكن

من شأنه ان يضيف الكثير الى رصيده لدى الطيبيين ، فانه لم يصبح موضع الكراهية والبغض باعتباره ممثلا للشر الا قبيل نهاية العهد الفرعوني . وبعد ان تخلى الرمسيسيون عن طيبة واستبدلوها بعاصمة لهم في منطقة الدلتا ، اقدموا على تبني ست كإله سلالي لهم ، بالرغم من انهم ظـــلوا ينذرون ولاءهم — وثرواتهم — لآمون .

عرفت طيبة كثيراً من الآلهة باسم هاتور . فالواقع ان هاتور تظهر في اشكال وألوان كثيرة متعددة بحيث يبدو اسمها احياناً وكأنه عاد لا يمثل اكثر من مجرد تعبير جامع لكلمة « إلهة » . وقد تناقل الناس الاسطورة التي تروي كيف ان هاتور أرسلت كعين الاله رع لتدمر الجنس البشري الذي غدت شروره وآثامه امنة لدى الاله الشمس . وفي وسط المذبحة ندم رع على غضبه وعاد عن سخطه ، ولكنه لم يستطع ان يكبح جماح الإلهة العائثة دماراً وخراباً الا بعد ان أسكرها بجعة حمراء اللون قدمها اليها عوضاً عن الدم . غير ان معظم الطيبيين نظروا الى هاتور على كل حال كإلهة لطيفة للحب والمرح والموسيقى — إلهة بلدة دندرة القريبة ، وكان الاحتفال بعيدها يتم وسط الغناء والرقص والثمل في شوارع طيبة وفي سائر انحاء مصر . وكانت هاتور تتمثل عادة في شكل امرأة برأس بقرة او برأس بشري له اذنا بقرة وقرناها ، وهي قد جمعت في شخصها ولا ريب عدداً من الابقار المقدسة التي كانت تُعبَد في اماكن متفرقة منذ أبعد

الازمان . وهنالك محراب في مدينة الاموات بالقرب من دير البحري (ربما في موقع قدّسته إلهة بقرة سابقة طواها النسيان) تظهر فيـــه هاتور وهي تغذّي الحاكم ، « الهورس الحي » ، وبصفتها حارسة مدينة الاموات وشفيعتها ، تشمله هو وشعبه بحمايتها ورعايتها في الممات كما في الحياة . وقد ظهرت في القبور الطيبية احياناً كروح شجرية ، « إلهة الجميز » ، لتصب من مقامها المورق الماء الذي يعطي الحياة للاموات . واخيراً ، هنالك رسوم تبين سبع هاتورات كجنيات يشرفن على ولادة طفل مصري ، ويغدقن عليه الهدايا والهبات التي قررها له القدر .

كان ملوك طيبة وشعبهم يوزعون هباتهم وولاءهم على جميع هؤلاء الآلهة وعلى كثيرين غيرهم . حتى ان الآلهة الغرباء كانوا يلقون الترحيب وحسن الضيافة . وكان هذا متوقعاً في عصر عالمي كعصر المملكة الجديدة ، والتعرف الى افكار ومُثُل عالم اوسع يمكن ان يكون قد ساعد في غليان الثورة الدينية التي كانت قد بدأت تختمر في عهد أمنحوتب الثالث . الا ان الاجانب ظلوا حتى في ايامه ، رغم اختلاطهم وتآلفهم مع المصريين ، مـــوضع الزراية والاحتقار — فالمصريون وحدهم كانوا يعتبرون رجالاً .

قلّ ما كان المصري رجلاً مغامراً . فان أسفارهم الى البلاد الاخرى كانوا يقومون بها عادة بخوف وتردد . والاقامة الموقتة

في بلاد غريبة كانت بالنسبة اليهم نوعاً من النفي ، أما ان يموتوا ويدفنوا هناك ، فذلك افجع مصير . ولكنهم داخل بلادهم ، كانوا رحالين لا يهدأون ولا تتعبهم الاسفار . كان الرجال الذين يملكون او يديرون أطياناً في امكنة متباعدة يسافرون بكثرة في رحلات بعيدة لتفقد مصالحهم او مصالح الملك او الملاك الاقطاعي . وكان كبار الموظفين وصغارهم في الجهاز الحكومي الشديد المركزية يقومون بجولات متكررة للاشراف على أعمال السلطات المحلية او يتنقلون هنـــا وهناك في مهمات ملكية . وكانت العائلة المالكة تنتقل من قصر الى قصر تبعاً للنزوات والاهـــواء او لِتَغَيُّرِ الفصول ، ترافقها حاشية ضخمة . وفوق كل شيء ، كان يذهب الى الحج كل من استطاع الى ذلك سبيلاً .

كانت الاماكن المقدسة كثيرة بحيث يتاح العذر للطيبين كي يقوموا برحلات يشتركون فيها بالاحتفالات والاعياد الدينية المتعددة التي يتوفر فيها الطعام والشراب واسباب اللهو . وكان من بين الامكنة الرئيسية للحج ، بلدة أبيدوس حيث كان أوزيريس مدفوناً . وعلى الرغم من ان عدداً كبيراً من الاحرام والمقامات ، وبينها واحد في ممفيس ، قد ادعت بأن جسد الاله ، او جزءاً منه على الاقل موجود فيها ، فان أبيدوس ظلت المحجة الرئيسية بينها ، وربما أقدمها . ولعل من الطبيعي ان يعتقد المصريون بأن أوزيريس الذي يمثل الملك المتوفى ، انما يرقد في

المقبرة التي دفن فيها اوائل حكام مصر الموحدة . وفي مدينة الاموات بأبيدوس ، يقبض ملك الاموات على زمام الامور كخالق فوق هضبته الفطرية الخاصة ، تحيط به حاشية من الآلهة الكلاب . ذلـــك انه استوعب إلهاً — كلباً محلياً هو « خنتامنتي » الذي كان قد سبقه الى المكان وأصبح « سيد الغرب (اي المقبرة) » ، ثم اجتذب الى دائرته الاله « وابواوت » وهو كلب حراسة قديم من أسيوط ، بالاضافة الى الاله الثعلب انوبيس الذي جاء من مدينة الدلتا ، قرب بوزيريس ، التي سماها اليونانيون « مدينة الكلاب » ، ليصبح شفيع المحنّطين ووصياً قيماً على المقابر في جميع انحاء البلاد .

لما كان ملوك عصر الاهرام والحكام الذين جاؤوا من بعدهم يدفنون في ممفيس ، فانهم كانوا يجهزون انفسهم بقوارب نيلية ليستخدموها في رحلات وهمية الى ابيدوس ، كما شيدوا انصاباً ومزارات بالقرب من ضريح الاله الذي كانوا يتوقعون ان يتحدوا معه بعد الموت . غير ان المدافن والنصب التي أقيمت في تلك البقعة المقدسة لم تلبث ان تعرضت للنهب والدمار خـــلال الازمنة المضطربة التي عقبت نهاية المملكة القديمة ، وخاصة اثناء الصراع المرير الذي نشب بين الهرقليوبوليين والطيبيين من اجل الارض المقدسة . ولم يفعل ملوك السلالة الحادية عشرة شيئاً يذكر في سبيل استصلاح المقبرة واعادتها الى سابق عهدها ، ولكن فراعنة السلالة الثانيـــة عشرة اخذوا على عاتقهم أمر

إحيائها، وكان في اثناء عهدهم ان جرى لأول مرة تقديم المسرحية العاطفية ذات الحلقات المسلسلة من اسطورة أوزيريس ، والتي كانت تُمَثَّلُ في ابيدوس كل عام قبيل الوقت الذي ينبت فيه البذار من الارض السوداء .

كان من حق ابيدوس في عهد المملكة الجديدة ان تدعي لنفسها لقب « هليوبوليس الثانية » (وهو بالمناسبة لقب شاركت فيه عدداً من الاماكن الاخرى ومنها طيبة) ، ذلك انها كسفت هليوبوليس التي في الشمال كلياً كمكان للحج . وفي مستهل تلك الفترة ، كان يشار الى رابية طبيعية في مدينة الاموات على انها قبر الاله . الا انه في عهد امنحوتب الثالث ، وفيه جرى ما يمكن ان يكون اول عمليات التنقيب الاثرية التي سجلها التاريخ، تمّ الكشف عن قبر الملك دجر ، احد حكام السلالة الاولى ، وجرى تعريفه بالقبر المقدس. وأقدم ملوك السلالة الثامنة عشرة، منذ الايام العصيبة الاولى لارتقائهم سدة الحكم ، على تشييد مدافن ومزارات لهم في المقبرة المقدسة . فالمصريون جميعاً ، ابتداء من عهد السلالة الثانية عشرة ، كانوا يطمحون أن يُدفنوا في جوار ضريح أوزيريس . ومع مرور الزمن ، اخذ يتزايد عدد الذين كانوا يضعون الترتيبات لدفنهم في ابيدوس ، او يقيمون لانفسهم مدافن صورية او لوحات تذكارية لتدفن بالنيابة عنهم هناك . وكثيرون نقشوا على جدران مدافنهم في طيبة وغيرها رسوماً عن الرحلة الى أبيدوس كبديل سحري عن

الحجة الاخيرة التي كانوا يأملون ان تنتهي بهم الى مشاركة الاله في الخلود ، ومشاطرته الهدايا التي تقدم اليه كي يبقي على الحياة الابدية ويديمها .

اما ما هو بالضبط الشكل الذي ستتخذه تلك الحياة، فذلك كان أمراً مبهماً . كان للمصريين آراء ووجهات نظر مختلفة متضاربة حول الموضوع ، ورثوها عن ماضيهم الطويل . فالمرء كان يمكن ان يصبح رع المتهادي في مركبه متجولاً عبر السماوات في النهار ومنيراً ظلمة العالم السفلي في الليل . وفي الوقت ذاته كان يمكن ان يصبح المرء أوزيريس او واحداً من رعاياه . وقد يكون ممكناً كذلك ان يلتحق بمجرة ملكية كنجمة في السماء . ولكنه كان من الممكن جداً ، بعد كل هذا، ان يستمر الانسان في العيش داخل قبره ، متمتعاً بأطايب هذه الدنيا التي زُوِّدَ بها هناك ، وان يخرج من قبره بشكل او بآخر من الاشكال ، ليستنشق الهواء ويمتع النظر بأرض مصر الجميلة . وكان معظم المصريين يميلون الى الاخذ بهذه النظرية الاخيرة ، نظرية الوجود المستمر داخل الاضرحة .

أخذ رجل طيبي من اهل المملكة الجديدة ، يدعى آني ، معه في رحلته الى العالم المجهول نسخة من كتاب الاموات مزينة ببالغ الروعة . وتظهر في هذه النسخة رسوم لآني مع زوجته وهما يعملان بسعادة في الحقول المباركة بدنيا الآخرة ، ويحصدان قمحاً عجيباً يبلغ طول ساق سنابله ستة أقدام ، وطول سنابله

السمينة الممتلئة بالذات عشرين بوصة . ولما كان آني وزوجته من طبقة لم تمتد العمل والكدح ، فان هذا المشهد المصور يمثل مجرد وهم جميل . ولا ريب في ان الزوجين كانا قد تزودا بعدد لا بأس به من التماثيل المومياثية التي تشبههما لتحل محلهما بصورة سحرية فيما اذا دعيا الى الاهتمام بأقنية الري او لحراثة الارض في الابدية .

وفي الكتاب ذاته يسأل آني الاله آتوم بلهفة ان يخبره عن « الارض الصامتة » التي يتوجه اليها ، فيجيبه آتوم « انها ارض لا ماء فيها ، ولا هواء . عميقة ، عميقة – مظلمة ، مظلمة – غير محدودة ، غير محدودة ... والحب الجنسي لا يُمارَس هناك . ولكنك تعطى كياناً آخر متغير الشكل عوضاً عن الماء والهواء والحب ، وسلاماً في النفس والقلب بدلاً عن الخبز والجعة » . وربما تكون هذه النعم السامية قـــد بدت لمعظم المصريين الواقعيين ، وعلى الارجح لآني بالذات ، بديلاً تافهاً حقيراً عن المباهج الارضية . فتماثيل الكثيرين من معاصري آني لا تتلهف الى مثل هذه الغبطة والسعادة ، بل تحمل التماساً الى الاحياء ليزودوا اصحابها بعد المات « بالماء ، والنسمة العليلة ، والفواكه وكل انواع الاطايب » من أجل حياتهم التي ستدوم « ملايين السنوات » . نزعة مادية ربما ، ولكن من ذا الذي اعطي ان يفهم الابدية ؟

رغم ان المصريين ، بخلاف كثير من الشعوب التي تؤمن

بالارواح والاشباح ، نادراً ما أظهروا فزعاً من الاموات ، الا انهم كانوا يخافون الموت بمــا يحمل من الفناء للنفس . فالنفس كانت شيئاً مركباً متعدد الاجزاء يكاد لا يمكن تصوره منفصلا عن الجسد . وبما ان الجسد يصبح حتماً مجرد هيكل في الممات ، فقد كان يُعْتَقَد بأن حياته تتوقف على قوة سحرية حيوية تصدر عن الاله الذي أطلقها ساعة الخلق لتهب الحياة الى جميع الاشياء ، حية وغير حية . هذه القوة ، وتدعى « كا » ، كانت عالمية شاملة لا تعرف الفناء ، ولكنها كان يجب ان يكون لها مكان تقيم فيه . فكما انها كانت تسكن في صور الآلهة بمعابدهم ، كذلك كانت تقطن في الهياكل البشرية الفانية . ومن هنا كانت رغبة المصريين الملحة في المحافظة على الجسد ، والطقوس السحرية التي كانت تقام فوق المومياءات قبل الدفن لكي تعيد اليها القوة المعطية للحياة التي هجرتها عند الموت . وكانت « كا » تشارك مسكنها المادي مع « با » ، وهي روح دنيوية نوعاً ما ، كانت تستطيع الانطلاق من الجسد الحي في الاحلام والرؤى ، ومن المومياءات ، لتزور مآوي الحياة من جديد . كانت « با » تصور عادة على شكل طائر ذي رأس بشري . وثمة مظهر آخر من مظاهر النفس هو « آخ » ، وكان يترك الجسد فقط عند الموت ليصبح روحاً بغير جسد وبشكل آخر ، فلا يقطن في المومياء او في الضريح وانما في مكان مبارك في اللانهاية الغامضة ، كمثل ذلك المكان الذي صوره آتوم لآني —

لا نهاية أدْرِكَت على نفس منوال الذي أدْرِكَت فيه الحالة المائية الهيولية التي كانت موجودة قبل الخليقة .

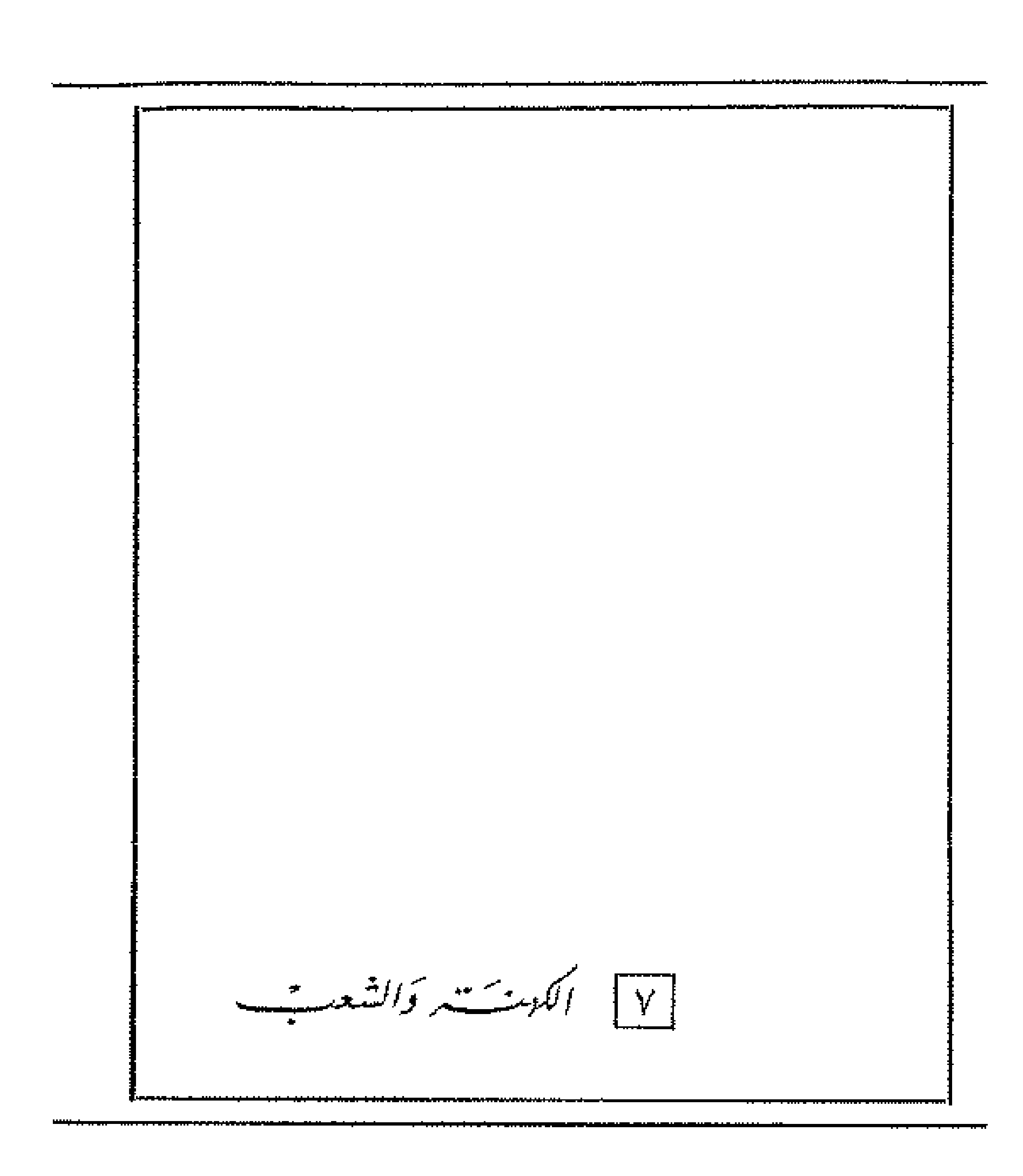
ولما كانت الحياة الابدية غير مفهومة لدى المصريين الا بحسب شروط الحياة الدنيوية واعتباراتها ، فان استمرار البقاء والوجود بدا مستحيلاً بدون غذاء يومي كالذي يتطلبه الاحياء . « نخب كا التي لك ؟ » كان يقول الضيوف في الولائم الجنائزية وهم يرفعون كؤوسهم ، مرددين « نخب كا التي لك ؟ » وهم يتناولون الاطعمة المُمَدَّة للاموات . حتى ان الآلهة كانت تتطلب الطعام والشراب لكي تعيش ، وكالبشر تماماً كانت تشتهي وسائل اللهو والزينة والدهون العطرة والزهور الفواحة العبير . وتكشف نصوص المملكة الجديدة عن وجود صراع بين الشك والايمان عند كثير من المصريين ، ولكن يبدو ان النصر كان دائماً في النهاية لأمل يائس. فان جميع اولئك المقتدرين كانوا يجهزون أضرحتهم بالاشياء النفيسة مما تمتعوا به في الحياة الدنيا او أملوا ان ينعموا به في الحياة الاخرى، كما كانوا يخلفون اوقافاً لتؤمن تزويدهم بضروريات الحياة الى الابد ، ولتوفر أجور الكهنة الذين سيؤدون عند مدافنهم المراسم والطقوس الكفيلة بتجديد حيويتهم .

لما كان المصري يتمتع بذكاء وأدراك سليمين ، فانه كان يعي بأن اموراً كالخبث او الطوارىء او طول الزمن قد تؤثر على مهارة المحنّط وتحبط مساعيه ، وان الاضرحة تنهب احياناً ،

والاوقاف تحول الى سبيل اخرى، وتنقطع الهبات والعطايا عندما يغيب الانسان عن الذاكرة . ولذلك فقد كان يزين ضريحه بتماثيل ورسوم نافرة تشبهه ، على أمل ان تتخذ الروح « كا » مسكناً لها فيها ، كما كان يصور على الجدران الاشياء الضرورية لاستمرار تغذيته ومسراته متوقعاً ان تتحول الرسوم الى حقيقة حية بصورة سحرية . وكان للكلمات سحرها . فقد يقوم اسم الشخص مقام ذاته (والعبارة المترددة « ليعش اسمه الى الابد » هي استدعاء لقوة الحياة ، كما انها فعل استذكار) ، وصلاة او أمنية مكتوبة او ملفوظة قد ترقي وتستحضر الطعام والشراب اللازمين للعيش والبقاء . وفي عهد المملكة الجديدة تزايد عدد التماثيل المقامـــة للافراد في المعابد تزايداً كبيراً ، ليس فقط كأنصاب تذكارية عن صلاحهم او عظمتهم ، بل طمعاً في ان يحظى اصحابها الى الابد ، بعد الموافقة والرضى الملكيين ، بالمشاركة في ما يقدم للآلهة والملوك المؤلهين من عطايا وهبات .

كانت قـــلة ضئيلة من الناس المحظوظين ومن اصحاب الامتيازات ، تطمح الى الخلود تحت الحماية والرعاية المباشرتين من لدن احد الآلهة . اما الوُضعاء فقد كانوا يأملون بأن يكون اسيادهم بحاجة اليهم في الآخرة ، كما كانت الحال في الحيـــاة الدنيا . فاذا ما قدر لهم ان يُرسَموا في مدافن العظماء ، او حتى ان يُذْكَروا هناك بالاسم ، فقد يتسنى لهم ان يقوموا على خدمـــة اسيادهم الى الابد . وفيما عدا ذلك ، فان صلواتهم

والمطاءات التي يمكن ان يستخرجوها من فقرهم، قد تساعدهم على ضمان مستقبلهم . ونادراً ما كان احد يدفن ، مهما بلغ من الضعة ، دون ان يُزَوَّد ببعض المؤن للحياة الابدية . حتى ان الاشخاص الذين كانوا يوارون الثرى دون احتفال او مراسم ، ودون اجراء عمليــــات التحنيط الطويلة الباهظة لهم ، ويدفنون في حفر قليلة العمق عند طرف الصحراء ، حتى هؤلاء كانوا يزودون بجرار وأوعية تحتوي على طعام وشراب ، وبحلى وأدوات زينة متواضعة ، وبتعاويذ وأحجبة لحمايتهم المستمرة . هكذا كانت الحال منذ اقدم الازمان التي سبقت التاريخ ، وهكذا هي اليوم، اذ ان كثيراً من المصريين، مسيحيين ومسلمين على السواء ، ما زالوا يحملون الاطعمة الى المدافن في أيام الاعياد لتكون عزاء وسلوانا لموتاهم .



٧ الكهنة والشعب

لم تكن عبادة آمون لتنقطع منذ اللحظة التي كان فيها الكهنوتي المتنبّيء يعلن الفجر من على سطوح الهيكل الكبير في الكرنك ، حتى موعد عودة صورة الإله الى الموت الموقت في حرمه الذهبي عند هبوط الظلام . ساعة بعد ساعة ، كانت الشعائر الدينية تقام للإله وفق نظام مقرر . وساعة بعد ساعة كانت شعائر آمون والآلهة الذين يحكمهم تقام في مختلف هياكل مصر ، والكهنة وخدام المعابد في تعبّد دائم للقوى الغامضة الخارقة التي تقرر مصير البلاد . لم تكن أية مدينة أصغر من ان يكون فيها معبد تقطنه «صورة حية» لإله ما . وآلهة قليلون من مجمع آلهة الأمة الضخم لم تكن لهم احرام تأويهم وكهنة يقومون على خدمتهم .

يميل عدد قليل من الكتاب المعاصرين الى اعتبار مصر دولة واقعة تحت سلطة رجال الدين، وخصوصاً الى اعتبار رجال الدين التابعين لآمون قوة مشئومة شريرة معادية للدولة وظالمة للشعب . ان هذا لبعيد عن الحقيقة . نعم ، ان رجال الدين ، عندما تقوى شوكتهم ويسمح لهم بالسيطرة على ثروات الآلهة الكبيرة ، قد

يصبحون خطراً على الدولة ، وقد تستنكر الجماهير الشعبية استرقاقهم اياها للآلهة ، الا انه في زمن امنحوتب الثالث كانت السيطرة ما تزال موطدة للعرش . وكان الشعب على وجه العموم غير مبالٍ فيما يتعلق بمن يخدم: فقد كانت حياته على نفس المنوال في ظل أي حاكم من الحكام . وانه لمن الخطل الظن بأن كهنة آمون كانوا مشككين غير مؤمنين او لا يعرفون حدوداً اخلاقية . كانوا متمسكين بالتقاليد ، يدعمون الدين القائم الذي كانت الملكية — الدولة — جزءاً متمماً له. وكان اغلب الكهنة مؤمنين ايماناً مخلصاً متطرفاً أعمى بالحقيقة المنزلة ، وبكل مضامينها المنطوية على العدالة والصلاح . لقد كان بينهم مشتغلون بالامور الدنيوية ، ومناورون سياسيون ، وكان منهم كثيرون ينظرون الى منصبهم المقدس كوسيلة لكسب العيش بصورة رئيسية . ولكن كان ثمة كهنة كثيرون في منتهى الورع والتقى ، وكان البعض منهم يمارس الاتحاد الروحي مع الإله عندما يسمح لهم « بمشاهدة الإله في محرابه » .

أمران يجب اعادة التأكيد عليهما من جديد في البحث بأمر الدين والكهنوت المصريين . الأمر الأول، هو انه لم يكن هنالك انفصال بين الكنيسة والدولة . وهذا لا يعني ان مصر كانت دولة لاهوتية يحكمها الكهنة ، بل يعني ببساطة كما قال « كيز » (« مصر القديمة » ، ص ٢٦٦) ان : « المصريين ... لم ينظروا الى النشاطات الدنيوية والدينية على انهما متماكسة متضاربة

بالضرورة. بل على العكس، فقد كانوا ينظرون الى كلا الناحيتين على انهما نتيجة وحي مقدس، وتؤديان لخدمة الآلهة. فهما في الواقع متممتان احداهما للاخرى». وبما ان الملك كان الدولة، فقد كان ايضاً الكنيسة. وكان بحكم منصبه بمثابة كاهن في كل معبد، هو وحده المسئول عن المحافظة على التوازن الدقيق بين الفرد والقوى غير المنظورة التي تحكم الكون.

اما الأمر الثاني الذي يجب ألا ينسى، فهو ان المعبد لم يكن مكاناً للعبـــادة العامة، وكهانه (الذين كانوا وكلاء الملك) لم يكونوا رعاة قطعان. كان المعبد بكل بساطة القلعة التي يقطنها الإله. هكذا كان يسمى، والكهنة الذين كانوا يخدمونه كانوا يدعون خدام الاله. كانوا لا يلقون أية مواعظ، بل انهم لم تكن لهم رعية ومصلون. فالمصريون بأغلبيتهم الساحقة لم يلجوا قط فناء المعبد الخارجي، وقليلون جداً هم الذين كانوا يشتركون في المراسم التي تجري داخل المحراب، وهؤلاء كانوا يحذرون من إفشاء أي من الاسرار التي تتكشف لهم هناك. وليس هناك ما يدل على انه سمح لغير المحظوظين من المصريين بدخول محيـط المعبد قبل قيام العهد الرمسيسي. في هذا العهد فقط، صار يسمح للناس بالوصول الى اطراف الدائرة المقدسة، لكي يتسنى لهم تقديم الصلوات والالتماسات الى الآلهة والملوك المؤلهين الممثلين برسوم نافرة فوق الابراج وعلى الجدران الخارجية، وبتماثيل في القاعات الرئيسية. ففي الكرنك، كان ثمة تمثال لرمسيس الثاني يعرف

باسم « سامع الصلوات »، كما كانت هنالك بوابات ضخمة متعددة تحمل تسمية « منافذ تعبد الشعب » .

على الرغم من ان الطيبيين لم يشتركوا بأي قسط من الشعائر الدينية الحيمة في المعابد، الا انهم كانوا يعتبرون انفسهم محظوظين بأن يكون ملك الآلهة ساكناً بين ظهرانيهم . فان صورته الحية كانت تحميهم من داخل حرمها السري . ولقد استطاعوا ان يلمحوا الحرم وهو يمر في موكب احتفالي ، ولكنهم لم يعرفوا اكثر مما نعرف نحن ، ما الذي كان مخبأ في داخله . اننا لم نحصل على أية صورة عن تماثيل انظمة العبادات المختلفة ، وفيما عدا تمثال « مين » الذي كان يحمل مكشوفاً في المواكب ، لم تظهر أية رسوم تمثل صور الآلهة المعبودة على جدران المعابد او الاضرحة. اما التماثيل القليلة الباقية من تماثيل الآلهة المنحوتة من الحجر ، فانها لم تأت من أي قدس اقداس ، وانما من باحات الهياكل الخارجية، والصور الصغيرة العديدة المصنوعة من البرونز والخشب المذهب والخزف والتي تعجّ بها متاحفنا ، انما هي اشياء كانت تستخدم في العبادة الخصوصية ، أي انها كانت تصنع لتصمد في مذابح البيوت ، او لتقدم وفاء للنذور ، او لتُحمَل كتعاويذ وأحجبة .

اما الصور او التماثيل التي كانت تعبد ، وهي ليست كبيرة الاحجام، فربما كانت تصنع من معدن ثمين — من الذهب ، جسم الآلهة — وقد وقعت منذ زمن بعيد في أيد عابثة كافرة . وعلى

أية حال ، فهي لم تكن مقدسة بحدّ ذاتها ، بل انها كانت تصبح مقدسة عندما كان الاله يسكنها . واذا دخلت الروح المقدسة كا « جسد » الاله ، فعند ذاك يسير كل شيء على ما يرام بالنسبة للقطرين . واذا اهملت عبادته ، فان الاله قد يهجر صورته ، وعندئذ تحل الكوارث بالشعب ، كباره وصغاره .

لذلك ، فقد اصبحت الطقوس الدينية اليومية تقام بقصد اغراء الاله وحمله على دخول جسده واحيائه ، وبالتالي نحو ارضائه وابهاجه بعد ان يكون قد حضر . ونحن لا نعرف سوى شطر من هذه الشعائر التي كانت تقام في هيكل آمون في الكرنك . غير انه بامكاننا ان نتخيل بشيء من الرهبة مثل هذه الطقوس تقام يوماً بعد يوم ، وساعة بعد ساعة ، في مئات المعابد ابتهالاً وتضرعاً الى الآلهة كي تحضر وتسكن بين الناس .

عند الفجر ، وبكل اجلال ، يدخل الكاهن المكلف بالخدمة على مهل الى المحراب الداخلي ، ساجداً مطأطىء الجبين عدة مرات اذ يقترب من الإله ، فيفض الختم عن باب الحرم ، وينظر الى الصورة التي ما تزال بدون حياة . وبعد اداء الرقيات المناسبة بمراسم مشابهة للمراسم التي تقام عند القبور لاحياء المومياء ، تدب الحياة في صورة الاله بطريقة سحرية . ووسط غيوم من البخور العطر ، وبمصاحبة عبارات معينة ، يُغسَل الاله ويُمَسَّح بالزيت والطيب ، ويُلبَس ثيابه ، ويُزيَّن بالجوهرات ، ويُكلَّل بضفائر الزهور النضرة . وبعد ان يُعـادَ الاله الى عرشه من

جديد ، تُقَدّم اليه الهدايا من طعام وشراب . ويستمر اداء الطقوس والشعائر طوال النهار . وفي اثنائها يُرَفّه عن الاله بالموسيقى والرقص ، ويُمْتَدح بأناشيد المديح والتسبيح . انه باختصار ، يلاقي الاكرام ذاته الذي يؤدّى الى ملك دنيوي ، اذ يُعْتَقد ان الاله يشاطر الملك شهواته وأهواءه البشرية . وعندما يخيم الظلام ، اذ تبدأ الشمس رحلتها الليلية عبر ظلمة العالم السفلي ، يقفل الكاهن بخشوع باب الحرم ويختمه ، ثم يتقهقر من المكان الذي باركه الاله بحضوره ، ماسحاً آثار قدميه وهو يخرج .

اسلفنا القول تكراراً في هذه الصفحات ، بأن الملك الحاكم وحده هو الذي كان يستطيع ، نظرياً ، ان يقومَ بالخدمة الدينية في هيكل الاله . وقد يكون انّ الملوك ، في الازمنة المبكرة ، عندما كانت الحياة لا تزال على بساطتها ، مارسوا شخصياً المهام الكهنوتية وأدّوا الخدمات الدينية . ولكن مع تعقد أمور الحياة ، اتضح انه من المستحيل على الفرعون ان يخدم كل إله في كل معبد ، فصار الكهنة يُعَيّنون ليؤدوا العمل نيابة عن الملك . واصبح الكاهن يعلن للإله عن نفسه اثنـــاء المراسم اليومية بهذه العبارات : «أنا الخادم الالهي ، والملك هو الذي أرسلني لاشاهدك» . ومع ان الملك هو الذي كان ، نظرياً ، يعين جميع الكهنة ، فانه في الواقع لم يكن يختار سوى حفنة فقط من مجموع حشد الكهنة المصريين . ولكنه ولا ريب ، كان ينتقي بحرص كبير الكاهن الأعلى لآمون في الكرنك ، الذي

كان يقوم بسيامته شخصياً في احتفال مهيب ، كما كان ينتخب ايضاً رؤساء كهنة بتاح المفيسي ورع الهليوبوليسي . وقد يكون الملك عين ايضاً رؤساء كهنة معابد اخرى رئيسية ، كما انعم ببعض مداخيل المعابد او معاشات الكهان على اشخاص لاقوا الرضى والحظوة لديه . اما اغلبية رجال الاكليروس فلم تكن تسترعي اهتمامه . فقد كان يعيّن بعضهم الوزير، وبعضهم الآخر الكاهن الأعلى للكرنك . وكان الكثيرون منهم يشترك في اختيارهم كهنة الهياكل التي يتقرر ان يخدموا فيها . وكانت الكهنوتية أمراً يمكن توارثه ، ولكن ليس بمقتضى القانون ، بل بحسب العرف والعادة ، لان الكهان ، شأن الموظفين العلمانيين ، كانوا يدربون ابناءهم (او ازواج بناتهم او ابناء اخوتهم) على اقتفاء آثارهم ، فكان المنصب المقدس غالباً ما يتوارث طوال عدة اجيال في عائلة واحدة . وكان في الامكان ايضاً شراء المناصب الاكليريكية ، فتنازل امرىء عن ميراثه مقابل حصوله مدى الحياة على حصة من العطايا والهبات التي تقدم لواحد من الآلهة ، كان شيئاً مفيداً جداً لا يستهان به .

مهما تكن الطريقة التي كانت بواسطتها يتمّ الحصول على درجة الكهنوت ، فإنّ المنصب كان يعتبر دائماً هدية من الملك لا يمكن الاحتفاظ به الا اذا ظل الملك راضياً عن صاحبه . اما ما هي المؤهلات ، ثقافية كانت او سواها ، التي كانت متطلبة من المرشح للكهنوت ، ان طلبت ، فهذا شيء غير معروف ، الا

انه كان محرماً ان يدخل سلك الخدمة المقدسة شخص ملحد وعديم التقوى، او اذا ثبت عليه انه انتهك حرمة معبد او سرق ممتلكات هيكل . وقد عرف ان بعض رجال الدين قد رقوا بالتدريج من كهنة صغار الى مراتب كهنوتية سامية ، ولكن ليس ثمة ما يثبت وجود ثقافة دينية سابقة لدى الكثيرين من كبار الكهان الذين كانوا يقومون بالخدمات السرية المقدسة . ومع ان شيئاً من التعليم الديني كان يعطى للكهنة بالتأكيد، فانه لم تكن هناك مدارس لاهوت . والظاهر ان «بيت الحياة» الذي كان ملحقاً بكل معبد رئيسي ، كان في الدرجة الاولى دائرة كتابة تُنتسخ فيها الكتب المقدسة ، وتُجمع النصوص الدينية الجديدة من المصادر القديمة . وكان كتبتها متضلعين في العلوم الدينية وفنون السحر ، وبما ان الدين والحياة كانا متصلين غير منفصمين ، فقد كانوا ايضاً خبيرين على الغالب بما نعتبره نحن من الموضوعات العلمانية ، كالتاريخ والطب والرياضيات . وكما فعل الرهبان الذين عاشوا في أديرة العصور الوسطى ، كذلك كانوا احياناً يكتبون الحكايات والاغاني الغرامية تنويعاً وتلويناً لحياتهم اليومية الرتيبة . ومع ان « بيت الحياة » لم يكن مدرسة بالمعنى الصحيح ، الا انه اخرج دون ريب مرشحين كثيرين للكهنوت ولسلك الوظائف المدنية عموماً . وكثيرون من الرجال العلمانيين تلقوا العلم والتدريب في مثل دوائر الكتابة هذه ، او في احد المكاتب الادارية العديدة الملحقة بالهياكل . فان تحتمس الثالث نفسه تلقى علومه في معبد آمون في الكرنك. وقد يكون ممكناً

ان أباه تحتمس الثاني الذي ظل يراوده الامل في ان يرزق ولداً من زوجته الملكية الكبيرة حتشبسوت ، كان قد قـدّر لهذا الابن من احدى جواريه ان يتولى منصب الكهنوت الأعلى. ومهما يكن من أمر ، فان التدريب المبكر الذي حصل عليه «الفاتح» جعله في مركز ممتاز ، اذ مكنه من الفوز بمساندة الإله والكهنة وتأييدهم بعد ان ثبت حقه في اعتلاء العرش (او هكذا ادعى هو فيما بعد) بتنبؤ إلهي من آمون .

لعل نظام السلك الكهنوتي لهيكل آمون يصح ان يتّخذ مثالاً لنظام السلك في أي هيكل رئيسي آخر ، ولو ان عدد كهنته كان يفوق عدد كهنة أي معبد آخر في البلاد . كان على رأس الكهنة مجمع من اربعة « انبياء » يرئسهم النبي الاول ، وهو الكاهن الأعلى . (وكلمة « نبي » أتت من العصر الاغريقي ، وربما اشتقت من اللقب الكهنوتي الهليوبوليسي « كبير الحازين »[1] ، وكلمة « حازٍ » كانت في الاصل تستعمل بمعنى « الواحد الذي يرى » ، دون ان يكون لهذه التسمية علاقة بمعرفة المستقبل) . وكانت مهام النبي الاول لآمون متعددة . فهو لم يكن فقـــط المسئول عن المحافظة على نظـــام الدين والعبادة ، بل ايضاً عن الشئون الادارية للمعبد العظيم المتشعب الاركان ، وعن أملاك الإله الشاسعة . وفي عهد السلالة الثامنة عشرة فيما بعد ، اصبح

---

١ ــ الحازي لفظة تطلق ايضاً على النبيّ . (المترجم)

هو في الغالب يتولى الاشراف على جميع معابد مصر وكهانها .
اما باقي الانبياء فكانوا يعملون كمساعدين له في المهام الروحية
والادارية ، يعاونهم في هذه الاخيرة عدد كبير من المدنيين كانوا
يعملون كمراقبين ومناظرين على الاراضي والمخازن والمشاغل .
وقد ابدى الدكتور هيز (مجلة دروس الشرق الادنى ، المجلد
العاشر ، ١٩٥١ ، ص ٢٣٧ — ٢٣٨) امكان وجود « نوع
من الفصل الرمزي في المسئولية بين انبياء الإله الاربعة ،
فالكاهن الأعلى كان الرأس في الكرنك ، وكان ينتدب الانبياء
الثاني والثالث والرابع على التوالي للاشراف المباشر على معبد
الاقصر وهيكل الملك المدفني ومعبد ملقطه » .

كان الانبياء وحدهم هم الذين تتم سيامتهم وتكريسهم
ويسمح لهم « بمشاهدة تجلّيات الإله » . وكان الاكليروس يضم
عدداً من صغار الكهنة ، غالبيتهم الكهان الذين كان يطلق عليهم
لقب « وب » ، أي « الطاهرين » او « المطهّرين » الذين
لم يكن مسموحاً لهم « فتح ابواب السماء » بل يعملون
كشمامسة للكهنة الأعلى رتبة ، فيقومون بخدمات مثل تقديم
البخور للصورة الالهية وتطييبها ، والاهتمام بأدوات العبادة ،
ومواكبة المحمل الذي يحتوي الاله في حرمه ، او حمله . كان
بين هؤلاء الكهنة كهنة «وب» ، او كان يلتحق بهم ، كهنة
يمارسون اعمالاً خاصة ، كالكهنة القارئين ، والقائمين على حراسة
او تلاوة المخطوطات المقدسة ، والنحويين الهيروغليفيين الذين

كانوا متفوقين في الاجراءات الشعائرية ، والمؤقتين (الساعاتيين) الذين كانوا يحددون ساعات اقامة طقوس العبادة اليومية وتواريخ الاعياد ، بحسب النظر الى السماء . وكانت الهياكل المدفنية على الضفة الغربية في طيبة منظمة تنظيماً مشابهاً ، ولكنها كانت تضم سلكاً من الكهنة الذين كان يطلق عليهم لقب « سم » المختصين بطقوس عبادة الاموات ، وكانوا يشتركون في اقامة الشعائر المتوجبة للملوك الراحلين ، كما كانوا يرئسون، لقاء أجر ، مراسم الدفن واقامة الاحتفالات الدورية التي تجدد الحياة للموتى الاقل شأناً في مدينة الاموات .

كان كبار رجال الكهنوت فقط يكرسون كل وقتهم للإله . اما كهنة الدرجات الصغيرة ، فكانوا يقسمون الى اربع فرق او شعبات تعمل بالتناوب . ولما كانت الشعبة الواحدة تعمل لمدة شهر واحد فقـــط في فترة واحدة ، فان معظم الكهنة كانوا يقومون بواجباتهم الدينية مدة ثلاثة اشهر فقط في السنة . وهذه الاشهر الثلاثة كانت بمثابة رياضة روحية ، او خلوة تنسكية يُفرَض على الكهان خلالها معدل صارم من الطهارة الجسدية . وكانت تُحلق رؤوسهم واجسادهم ، كما كان عليهم ان يتوضأوا في فترات معينة ليلاً ونهاراً ، ولم يكن يُسمح لهم الا بارتداء ملابس النسيج الناصعة البياض من الكتان فقط ، فـلا اصواف ، ولا اشياء جلدية — فحتى نعالهم كانت مصنوعة من رقائق البردى . وكان الختان اجبارياً بالنسبة لهم ، كما كان

محظراً عليهم تماماً اثناء فترة الخدمة ان يقربوا النساء او تكون لهم أية علاقة معهن .

وفيا عدا فترات الثلاثة الاشهر التي ينقطع الكاهن خلالها الى ملازمة الاله ، فانه كان يعيش عيشة دنيوية بكامل معانيها . ومع انه في هذه الحالة ، كان من المألوف ان يميز الكاهن المجاز من العمل نفسه برأسه الحليق وملابسه البالغة البساطة ، فانه فيا عدا ذلك كان يتبع في حياته النهج الذي يتبعه أي رجل مدني . وكان يمكن للكاهن المتواضع ان يتناوب العمل بين الهيكل والحقل او المشغل ، اما الكاهن الارفع منزلة فكان يجمع بين مهام الكهنوت والمنصب الاداري الرفيع . انظروا الى الكاهن باعتبار ، يقول كاتب زاه بنفسه : « ان مـــنزلة النبي كمنزلة المزارع المؤاجر . ان الكاهن يقوم بالخدمة ويقضي وقت فراغه مستلقياً في النهر . انه لا يميز ولا يفرق بين الشتاء والصيف ، ولا يهمه ما اذا كان الجو عاصفاً او ملبداً بالغيوم » . وكان الناس يحترمون الكهنة ، في الدرجة الاولى ، بسبب مركزهم الرفيع والدخل المادي الجيد الذي ينطوي عليه . وقد جرت العادة على اختيار الكهنة « من بين الوجهاء » في بيئاتهم ، وكانوا يعملون غالباً في المجالس الادارية والمحاكم . وكان بعضهم يمينون بالنظر لاتساع معارفهم وعلومهم . فقد كان بينهم مثـــلا الاطباء ، والفلكيون الذين يحددون للناس أيام السعد وأيام الشؤم . وهؤلاء وسواهم من الكهنة الواقفين على علوم الكتابات القديمة ، كانوا

يزودون الناس بالتعاويذ السحرية التي تقي من الاعداء المنظورين وغير المنظورين ، وبالحجب التي تمنـــع المرض والاذى والعقم المرعب، او التي تؤمن الحظ والعمر الطويل . ولعل اولئك الذين « شاهدوا الاله » قد تمتعوا بالاحترام والتبجيل لمجرد هذا السبب وحده ، ولكن الكاهن ، بوجه عام ، كان بكل بساطة رجلاً كباقي الرجال .

كان هنالك ايضاً كاهنات في خدمة آمون . وهن كذلك كن يتقسمن الى شعب وفرق ، ويخضعن لقوانين صارمة . ولم يكن لهن حق المشاركة في الاسرار ، بل كن يخدمن الاله فقط كموسيقيات ومغنيات . وكانت جماعة منهن ، تترأسها « زوجة الاله » ، وهي الملكة او ولية العهد (او بديلة منتدبة) ، اقول، كانت هذه الجماعة تعرف باسم « محظيات الاله » لان آمون ، كمثيله الملك الزمني ، كان يجب ان يكون له حريم . وفي حين ان رواية « بلاكان » (مجلة علم الآثار المصرية ، المجلد السابع ، ص ٩) بأن « جميع النساء تقريباً في طيبة وجوارها كن يؤدين مهام الكاهنات الموسيقيات » هي رواية مبالغ فيها ، فان ما من شك في ان عدد النساء اللواتي خدمن الاله كان كبيراً . وكان بينهن سيدات عظيمات، وزوجات كهنة من جميع الرتب وبناتهم، وكذلك بعض نساء من اصل متواضع .

والى جانب الكهنة والكاهنات — الموسيقيات ، كان عدد لا يستهان به من المدنيين في المعبد يستخدم كحاملي هـــدايا ،

وبوابين وجزارين وخبازين وفنانين وصناع ، الى جانب الجهاز التكميلي المعتـــاد من الكتبة . ولو أخذنا بعين الاعتبار الناس الذين يعيشون على املاك الاله ، والمستخدمين في جمع ايراداته والاهتمام بشئون مخـــازنه من تسلم وتسليم ، والاشخاص الذين يسيّرون مراكبه ويعملون في تجارته ، نجد ان آمون كان اكبر رب عمل بمفرده من حيث استخدام العمال في مصر بعد الملك مباشرة. وقد افاد الطيبيون بنوع خاص من وجوده في مدينتهم. فان كثيرين من اصحاب المناصب البـــارزة في الحكومة كانوا يتمرسون الى جانب هذا بوظيفة اخرى اكليريكية او ادارية في خدمة الاله . وفي زمن امنحوتب الثالث ، كان احد وزرائه ، بتحموس ، يشغل ايضاً في الوقت ذاتـه منصب الكاهن الأعلى للكرنك . وقد انتدب الملك كذلك سميه الداهية ، امنحوتب ابن حبو ، الى وظيفة النبي الاول في معبد إله مدينة اتريبيس ، وهو المعبد الذي شيده في تلك المدينة اكراماً للرجل الذي كان مفضّلاً لديه . وقد يكون من الممكن ان المهندس العظيم استطاع ان يجمع بين مهام ذلك المنصب وواجباته الاخرى المتعددة في طيبة ، ولكن هناك احتمالاً اكبر في ان يكون قد باع المنصب الكهنوتي او أجره بالمشاركة لأحد المقيمين في اتريبيس : اذ يظهر ان بيع المناصب الكهنوتية او تأجيرها كان عادة مألوفة ، كما يتبين من عدد الالقاب الكهنوتية التي كان يحملها شخص واحد في كثير من الاحيان .

شارك عدد كبير من الطيبيين من مختلف الطبقات، في تقديم الهبات والهدايا الى آمون، اذ ان الاكليروس والموظفين العلمانيين من خدام الاله كانوا بطبيعة الحال ينالون أجورهم عيناً . والآثار الباقية من مستندات المعابد تكشف بوضوح كيف كانت العطايا تقسم بدقة على مستحقيها ، كل حسب منزلته . فبينما كان للكاهن الأعلى املاكه الخاصة ومسكنه الذي يكاد يكون قصراً ملوكياً، وكان النبي الثاني اقل منه عظمة ودخلاً بقليل ، فان خدام الاله المتواضعين كان عليهم ان يرضوا بالفتات من المائدة الالهية . والكتابات المتأخرة التي وجدت في معبد ادفو ، تحذر رجال الاكليروس من « وضع أيديهم على أي شيء في بيت الاله » ، وتنهاهم عن « فتح أي وعاء داخل مسكنه ، فالسيد وحده هو الذي يشرب هناك » . ولقد كُتِب ان « المرء يعيش من مؤن الآلهة ، ولكن المؤن بالنسبة اليه هي تلك التي تخرج من المحراب بعد ان يكون السيد قد أخذ منها كفايته » . فقد كانت ثروة آمون المحسوسة تغري الذين يخدمونه في كل الازمان ، ولكن كثيرين منهم فضلوا الثواب الروحي الابدي على الارباح الزمنية . « لن تحل أية نكبة ولا أي شر بذلك الذي يعيش على جود الاله وفضله ، ولن يلحق أي عذاب او لعنة بالذي يخدمه ، لان عنايته تبلغ السماء ، وحمايته تشمل الارض » . « كم هو سعيد ذلك الذي يكرم جلالك ويحيي مجدك ، أيها الاله العظيم ، ولا ينقطع عن خدمة هيكلك ! » .

كانت العطايا والتقدمات ترتفع الى نسب مذهلة في أوقات الاحتفالات والاعياد الدينية ، وكان من الممكن ان يستفيد منها حتى عامة الشعب . وكانت طيبة ، اكثر من جميع الامكنة الاخرى في مصر ، محبة للاعياد الى حد الهوس ، بحيث انه كان لها معدل يوم مقدس واحد من كل ثلاثة أيام — وكانت تسمى أياماً مقدسة على اعتبار ان جميع الاحتفالات كانت دينية في طبيعتها ، بالرغم من ان قلة ضئيلة منها كانت تتميز بالمهابة والوقار . ولم يكن بين تلك الايام ، ايام توبة وعقاب وتكفير ، وانما ايام شكر وتسبيح وابتهاج فقط . حتى ان الاعياد التي كانت تقام في مدينة الاموات كان يتشارك فيها الاحياء والموتى الاحياء بمنتهى السعادة والبهجة على السواء .

تعطي تقاويم الاعياد المنقوشة على جدران المعابد ، وأكملها واوفاهـــا تقويم رمسيس الثالث في مدينة حابو ، فكرة عن العدد الكبير جداً من الاعياد الطيبية . وهذه التقاويم بالاضافة الى المشاهد المرسومة في المعابد وفي اضرحة النبلاء تساعدنا على تصور الترف والابهة اللذين كان يحتفل بهما في الاعياد. كما تزودنا بلمحات عن حشود الجماهير الصاخبة التي كانت تحتفل بها، وتبين التقاويم ان الاعياد الطيبية لم تكن كلها اعياد محلية تقام لملك الآلهة . فكثير من الاحتفالات التي كانت تجري في المدينة كان يحتفل بها ايضاً في جميع انحاء القطرين ، وطيبة كما رأينا سابقاً ، كانت تمجد عدة آلهة الى جانب آمون . ولعل معظم الاعياد ،

حتى تلك التي طوى النسيان اصلها منذ زمن بعيد، كان منشؤها الارض والتربة . فطيبة ، بمشاركة مصر كلها ، كانت تحتفل بمواسم الزراعة والبذار والحصاد، وببداية السنة، وبمطلع الشهور ومنتصفها حسبما يحدد ذلك شكل القمر . والآلهـــة كانت في صميم تغيّرات السنة بكليتها ، وكذلك الحال بالنسبة للملكية المقدسة التي كانت تحافظ على التوازن بين الانسان وبين « الاله ـ في ـ الطبيعة » .

من بين جميع الاعياد التي كانت على اتصال وثيق بالمواسم والفصول ، كان عيد استقبال السنة الجديدة ، أي « بداية الازل ونهاية الزمن الابدي » ، اكثرها بهجة وفرحاً على الاطلاق . كانت السنة المصرية التي ورثناها نحن تنقسم الى اثني عشر شهراً، بالرغم من انها لم تعرف الا ثلاثة فصول – الفيضان (فيضان النيل) ، والبروز (بروز الحقول وظهورها من تحت الفيضان) والجفاف . وكان رأس السنة الجديدة الذي يوافق نوعاً ما بدء الفيضان ، يقع حوالي منتصف شهر تموز ، واذا بشر النيل بأنه سوف يكون غزيراً ، فعندئذ يتضاعف سبب الابتهاج والحبور . على كل حال كان الفصل موسم امل ووعد ، والعيد كان عيداً ملوكياً . فرجال الحاشية كانوا يقبلون على احتفال العيد وهم يحملون الهدايا الى الملك . والناس الاقل شأناً كانوا يتبادلون الهدايا وحُجُب حسن الطالع . وموائد الاله كانت تعمر وتتكدس بكل ما لذ وطاب . والانوار كانت تشع من الاضرحة على الضفة الغربية حيث يخرج الموتى ليشاركوا في العيد .

مما يدعو الى الغرابة ان النيل لم يكن إلهاً الا بشكل غامض مبهم بالنسبة للمصريين الذين اعتبروا النهر عادة انبثاقاً من إله آخر ، كان احياناً « نون » ، الاله الذي يمثل الحـــالة المائية المضطربة التي لا تعرف سوى الفوضى والتي انبثقت منهـــا كل الخليقة ، وغالباً ما كان هذا الاله هو اوزيريس بالذات ، بل وحتى آمون (في عهد المملكة الجديدة) . وقد ادعت طيبة المتعجرفة حينذاك ان المنبع السحري الغامض للنهر موجود فيها . على ان هناك بعض الدلائل التي تشير الى انه كانت تقدم في الازمنة الغابرة التضحيات – بما فيها الضحايا البشرية – للنيل وكأنه إله ، وذلك لضمان فيضان جيد منه . وهنالك نشيد وضع في عهد المملكة الجديدة يمتدح النهر ويمجده كإله ، إله غير مسمى وليس له « أية ضرائب ، وأية رسوم ، وأية طقوس ، وأية احرام ، وأية حصص ، وأية خدمات ... وهو الذي يجعل الناس والمواشي تعيش » . وكان الفيضان يستقبل دائماً بالزهور تقذف الى امواجه وبالاحتفالات الصاخبة .

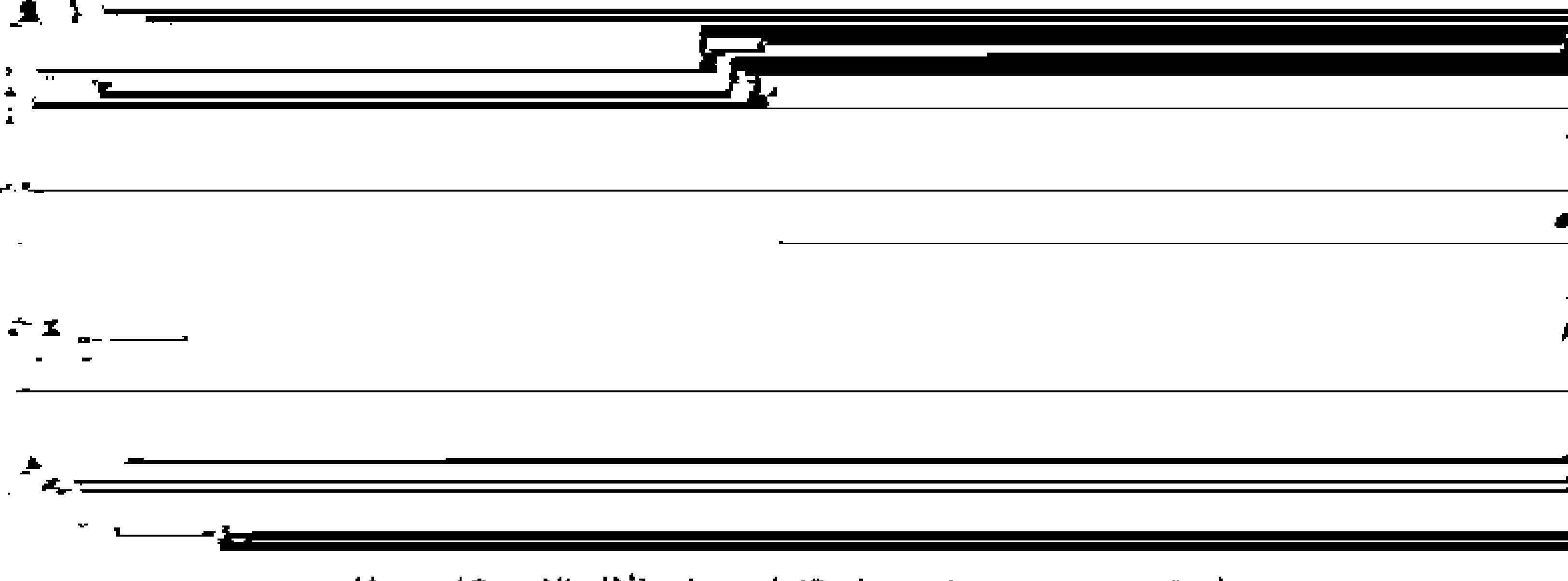
كثير من الاعياد الطيبية كانت مهرجانات ملكية . فكان الملوك ينسبون الى انفسهم ، جزئياً على الاقل ، الاعياد التي تقام لهورس ومين . وكان جميع الناس يحتفلون مبتهجين بأعياد ميلاد الملك الحاكم ، وتوليه العرش ، وتتويجه ، وانتصاراته ، وفوق كل شيء ، بمناسبات يوبيله . وفي هذه المناسبات الاخيرة كان الوجهاء والاعيان يتوافدون الى طيبة من جميع انحاء مصر ،

كما كان يأتي اليها على متون مراكب رائعة آلهة كثيرون يرافقهم كهنتهم . وكان اليوبيل يقام ، او عيد السيد ، عند نهاية الثلاثين سنة الأولى من حـــكم الفرعون (مع ان بعض الملوك احتفلوا بيوبيلاتهم قبل ذلك) ، ثم يعاد الاحتفال به تكراراً في فترات أقصر بعد ذلك . وكان اليوبيل مناسبة لتجديد الحيوية الملكية ولتثبيت حق الملك الذي اعطاه اياه الإله على القطرين . وكان عيد السيد يقام تقليدياً في ممفيس التي كانت مقر الملوك الاوائل لمصر الموحدة . ولكن الملوك التحتمسيين اخذوا يحتفلون به في طيبة ، وشيدوا من اجله الهياكل او قاعات الاحتفال الكبرى ، كما اقاموا المسلات التذكارية في المدينة وسواها من الاماكن . وقد بنى امنحوتب الثـــالث في قصره السكني على الضفة الغربية ، لمناسبة يوبيله الاول، قاعة ضخمة رائعة اعاد فيها بحضور بطانته والآلهة تمثيل رواية توحيد القطرين ، وتلقى مرة اخرى الصك المكتوب شهادة على حقه في وراثة العرش. وكانت جماهير العامة ممنوعة من حضور هذا المشهد التمثيلي ، ولكنها كانت تستطيع ان تشارك ملكها فرحته وان تشهد من على ضفتي النهر وصول المواكب التقليدية وجريانها فوق النيل. وربما حصل ابناء الشعب على شطر صغير من مقادير الطعام والشراب الوفيرة التي كانت تُجلب من سائر انحاء مصر لهذه المناسبة ، معتبرين ذلك كرماً وانعاماً من الملك. وهناك مئات عديدة من العلامات والشارات على الجرار والادنان المحطمة التي وجدت في موقع قصر الملك، تشهد على الكميات الضخمة من الجعـة والخمر والزيوت والسمن التي

احضرت لامنحوتب الثالث بمناسبة يوبيله — كميات تفوق بكثير حتماً احتياجات قصره . ولا ننسى ان نضيف اليها كميات الخبز والكعك والفاكهة والخضار واللحوم التي تدفقت على المخازن الملكية .

كان اعظم الاعياد وابهاها على الاطلاق عيدي الاله آمون الجميلين ، وهما «عيد الوادي» و «عيد اوبت» . كان الاله العظيم يتمتع بأعياد اقل اهمية («يا لسعادة معبد آمون» كتب شاعر طيبي ، «المعبد الذي تنقضي ايامه بالاعياد مع ملك الآلهة في داخله ... انه يشبه امرأة سكرى ، تجلس خارج مخدعها وقد أرخت شعرها !») ، ولكن هذين العيدين قد تفوقا على سائر الاعياد وكسفاها . ففي عيد الوادي كان الاله يخرج من قلعته ليقوم بزيارة الهياكل المدفنية للملوك الدنيويين . وقد ذُكِرَ كتابة ان الموتى كانوا ينطلقون من قبورهم ليشهدوا مجيئه ، مبتهجين لسماع صيحات البحارة الذين يسيرون مركبه .

كان الموتى الطيبيون يشتركون في اعياد كثيرة . فقد كان



طيبة من ممفيس ، وفيه يعاد تمثيل رواية الاله الذي قام من الموت ، وكانت تقدم للموتى مراكب رمزية ، وتُوَجَّه مقدماتها يوماً نحو

الاموات المتصرون دوماً يتلقون اكاليـــل التبرير والتزكية .
والحق انه لم يكن هناك أي عيد لا يذكر فيه الاموات . ولكن
عيد الوادي كان العيد الاكبر لمدينة الاموات وسكانها ، امواتاً
واحياء . وكانت ايام هذا العيد بالنسبة للطيبيين اياماً لاحيـــاء
الذكرى ، ومناسبات لزيارة اجدادهم حاملين اليهم الطعـــام
والشراب والازاهير الندية والاضواء لتبدد ظلمة القبور .

ومع ذلك ، فان جميع الاعياد ، حتى عيد الاله مين الذي
كان في الوقت ذاته عيداً للخصب وعيداً للبيت المالك ، وعيد
هاتور الصاخب البالغ العربدة الذي أعطي اسم « شهر السكر »
لأحد شهور السنة ، ان جميع تلك الاعياد قد كسفها عيد اوبت
الاكثر جمـالاً ، العيد الذي كان يقوم خلاله إله الكرنك بزيارة
هيكله الجنوبي في الاقصر . وكان هذا أطول الاعياد اطلاقاً .
ففي زمن تحتمس الثالث كان يستمر عشرة أيام ، ثم استطال
وامتد في عهد رمسيس الثالث حتى بلغ الاربعة والعشرين يوماً ،
وكان بلا منازع عيد الجماهير . وليس واضحاً بالضبط ماذا كان
يعني هذا العيد بالاضافة الى زيارة الاله للحريم . ولكنه كان
حتماً متصلاً بالملك الحاكم ، وربما كان نوعاً من الاحياء لذكرى
الزواج الغامض الذي كان الملك ثمرته ، وكانت الملكة نفسها ،
بصفتها « زوجة الاله » ، تشترك خلاله في مراسم الطقوس بالمعبد .
وبصرف النظر عن اهمية العيد ومعانيه ، فان القليل من ملوك
السلالة الثامنة عشرة والسلالات التي عقبتها قد تخلفوا عن حضوره

شخصياً . وعلى الرغم من ان الملوك كانوا في بعض الاعياد ، كما هي الحال بالنسبة للشعائر اليومية المقدمة للآلهة ، يليبون عنهم من يقوم بأداء الفرائض ، فانهم لم يتوانوا ابداً عن الظهور أمـام سكان طيبة بمناسبة هذا العيد الذي هو اكبر الاعياد طراً .

كان عيد اوبت ، شأن اعياد كثيرة اخرى ، يقام في موسم الفيضان، عندما يبلغ ارتفاع مياه النيل أقصاه. وكان الفلاحون من القرى المجاورة يهملون اعمالهم في الحقول ويتقاطرون الى المدينة، والناس كباراً وصغاراً يفدون من اماكن بعيدة ليشاهدوا الاله والملك في جلالهما وبهائهما . والدليل على ان الجلال والبهاء كانا خارقين ، واضح في المشاهد المصورة على جدران المعابد ، وفي طليعتها الرسوم التي نقشت على جدران معبد الاقصر في زمن توت عنخ آمون ، والتي قـد تكون صممت في زمن امنحوتب الثالث . وبواسطة مثل هذه المشاهد وغيرها من المستندات ، يمكننا ان نتخيّل الموكب الذي كان يبلغ طوله ميـلاً ، وهو يتهادى فوق النيل ، مبتدئاً من معبد الكرنك . كان الاله يُنقَل داخل حرمه الذهبي فوق محفة يحملهـا نفر من الكهنة يرتدون الثياب البيضاء، الى مركبه الذي كان ينتظره عند ضفة النهر ، وكان كهنة آخرون يطهرون طريقه بالبخور والاضحية، كما كان غيرهم يظللونه براوح ضخمة من ريش النعام تخفق فوقه لوقـايته من وهج الشمس . وكان مركبه ، وهو اكبر من أي مركب آخر يمخر النيل عادة ، على شكل هيكل مصغر ، وهو

مصنوع من أجود أخشاب لبنان، ومطلي بالذهب ترصعه الجواهر البراقة. وكانت مقدمة المركب ومؤخرته مزدانتين برأسي كبش يعلوهما التاج الملكي، وترتفع على سطحه منصة مظللة يوضع فوقها الحرم. وأمام المنصة، تماماً كما عند مدخل الهياكل، كانت هناك اربعة أعمدة ترفرف منها الاعلام الزاهية، ومسلتان مطليتان بالذهب، في حين تحيط بالحرم تماثيل عديدة واشكال أبي الهول الملكية. وكان بين التماثيل واحد الملك وهو يحمل مجذافاً ذهبياً، ذلـــك ان جلالته كان، رمزياً، هو الذي يسير المركب الى الاقصر. والواقع ان المركب الثقيل كان يجره المركب الملكي الرئيسي الذي يسيره كبار رجال الدولة، وكانوا يتنافسون على نيل هذا الشرف، وكان لا يستطيع ان يمخر النيل صعوداً الا بمساعدة رجال يسحبونه بالحبال من على ضفة النهر.

وكان يتبع مركب الاله مباشرة مركب زوجته موت وابنه خنص، وكانا اصغر حجماً ولكنهما يشبهان مركب الاله من حيث روعة التجهيز، وخلف هذه المراكب الثلاثة ومن حولها كان يحتشد اسطول كامل من المراكب الاخرى. وكانت عشرات المراكب الصغيرة، بعضها مزين في المقدمة والمؤخرة برؤوس الأوز وأذنابها، ترافق الموكب بعزف الموسيقى وانشاد الاغاني. اما المشهد على ضفة النهر فكان في غاية الفوضى والبلبلة، اذ يختلط الكهان بالجنود، والخاصة بالعامة، والفلاحين بالرعاع من أهل طيبة، وكلهم يتدافعون ويتزاحمون ليستطيعوا مشاهدة

الموكب . هذا في حين كان رجال القبائل النوبية يرقصون وهم شاهرون رماحهم ، رقصات متوحشة ، والشبان والفتيات يقفزون ويتلوون في حركات بهلوانية ايقاعية ، والطبول تدوّي ، والابواق تلعلع ، والصلاصل تقرقع ، والاناشيد ترتفع حادة فوق كل هذا الضجيج. وكان الناس يبتاعون السلع والاطعمة والشراب والحجب والتمائم من صغار التجار والباعة المرابطين ببضائعهم في اكشاك صغيرة على طول الطريق .

كل هذا تكشف عنه بوضوح المشاهد المصورة القديمة التي بقيت حتى الآن . وان المرء ليستطيع ان يتخيل فقط الحشد الكبير من القصاصين والمنجمين ، والشحـــاذين والمشعوذين ، والنشالين والمومسات ، وكيف كانوا يدأبون على نشر اغانيهم بين الجماهير ، كما يستطيع ان يتخيل كذلك النشوة اذ تبلغ حد الهستيريا ، والمشاجرات الحادة والمعارك الخسيسة ، وكل العناصر المكملة للاحتفالات والاعياد الشعبية حتى في العصر الحديث ، اذ غالباً ما تمتزج فيها التقوى بالخداع والعنف ، والنشوة الروحية بالشهوات الحيوانية .

وفي الاقصر ، كانوا يحضرون الى مائدة الاله ثيراناً سمينة مذهبة القرون . وكان حاملو الهدايا والعطايا يقبلون في مواكب لا تنقطع حـــاملين فوق رؤوسهم الصواني المكدسة بالاطايب والدنان المليئة بالخمور تكللها الازاهير . وكانت تتصاعد من مطابخ الهيكل روائح اللحوم المشوية اللذيذة ، والخبز والكعك

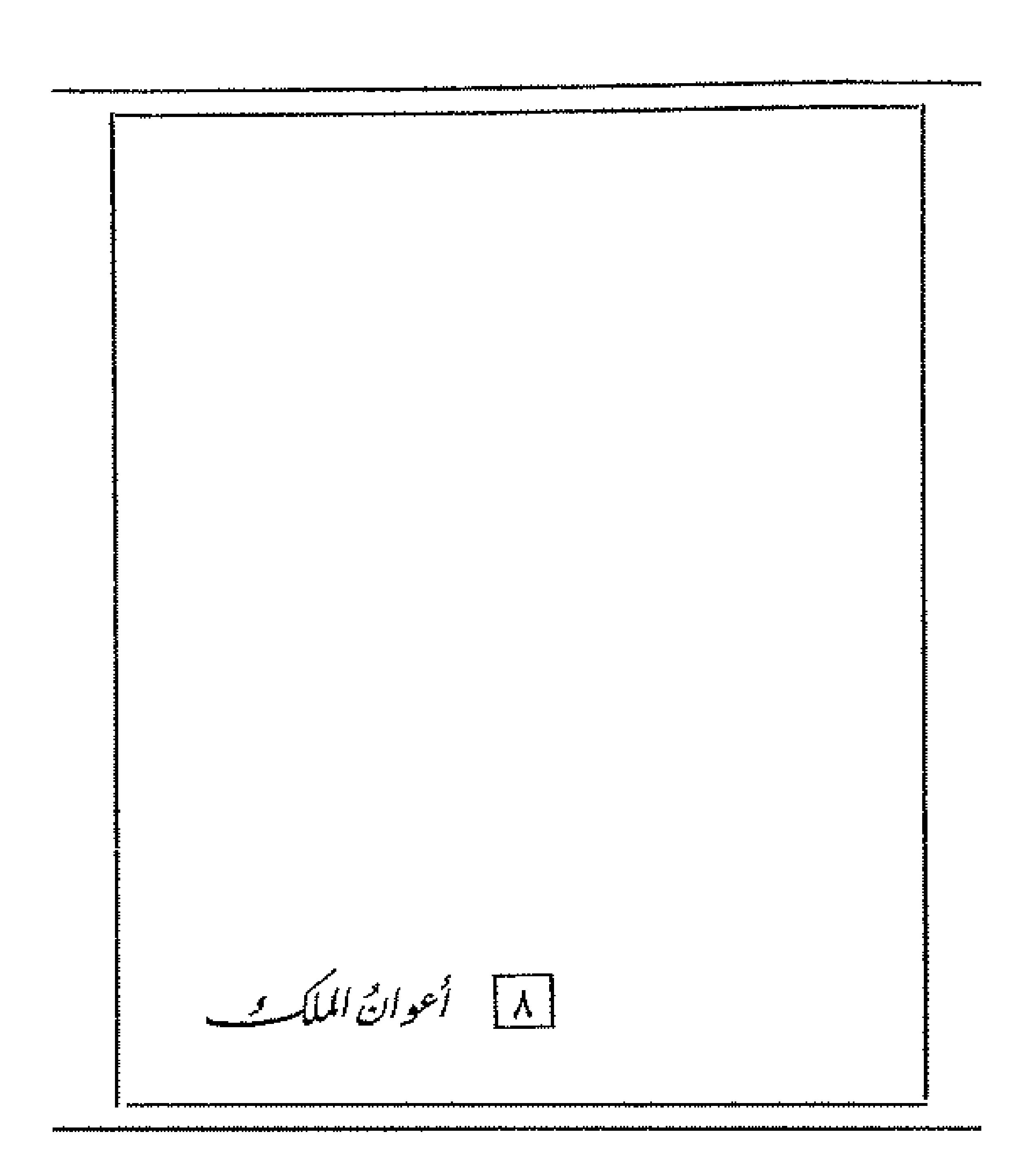
الطازج . ويصل موكب الاله . ان الملك بنفسه يقود الموكب الالهي الى الهيكل . وهناك ، تقام الشعائر الدينية محجوبة عن مرأى العـــامة ، ولكن الرواح والغدو مستمران ، والحركة متواصلة طوال أيام العيد ، مما يوفر للجماهير المتعة والتسلية ويدفع عنها الملل ويشدها الى المهرجان . وربما يجري في النهاية توزيع الهبات عند أبواب المعبد بعد ان يكون الاله قد أخذ كفايته وشبع .

كانت العطايا الموصوفة لعيد اوبت ، كما جرى بيـانها في تقويم رمسيس الثالث ، تبلغ كميات هائلة مذهلة . اما العطايا التي كانت تقدم في الهياكل يومياً او في الاعياد الصغرى فكانت متواضعة ، ولا تتجاوز في الغالب ما فيه الكفاية لدفع مرتبات مستخدمي الهيكل . ولكنها كانت تشتمل عادة على بعض المواد المترفة ، كالخمر والفواكه ، والدجاج ، والسمن والزيت للطبخ والاضاءة ، ولو انها كانت تقتصر اجمالاً على الضروريات ، كالخبز والجعة ، وفي كميات تختلف بحسب أهمية المعبد والعيد . وكانت الاطايب الشهية تذهب في النهاية الى الكبار من خدام الاله ، اما اصحاب الرتب الصغيرة فكان عليهم ان يقنعوا بالخبز والجعة فقط . وفي عيد اوبت ، كان الحد الادنى من الخبز اللازم يومياً ١١٫٣٤١ رغيفاً ، و ٣٨٥ ابريقاً من الجعة ، وكان الرغيف كبيراً والجعة قوية جداً . هذا في حين ان الاحتفال بذكرى تتويج الملك كان لا يستلزم اكثر من ٤٩٣٤ رغيفاً

و ١٤٨ ابريقاً من الجعة . والى جانب هذه المواد الغذائية ، كان العيد يتطلب لحوم البقر والصيد ، والأوز السمين ، والكعك المعسّل ، والفواكه والخضروات ، والزيت والخمرة ، والابخرة والازهار بكميات كبيرة . وكان يقتضي تجنيد حشد كبير من العمال لجمع المحاصيل ورعاية القطعان ، وجلب التقدمات والهدايا الى الهيكل ، ثم تهيئتها لمائدة الاله ، ومراقبة الانتاج والتوزيع ، وتسجيل عمليات تسلم المواد الغذائية وتوزيعها (وكان هذا يجري بدقة بالغة) وغير ذلك من الشئون الكثيرة الاخرى الضرورية للمحافظة على جلال الاله وسحره وحفظ خدامه في حالة لائقة .

كان المصري المتوسط ، وقد تطبّع على الفقر وتعوّده ، يقنع غير واثق بالنعمة الجليلة الناتجة عن كدحه وكده . وبالرغم من انه نادراً ما كان يعرف الشبع والتخمة ، الا انه على الأقل لم يكن غالباً ليتضور جوعاً في عهد امنحوتب الثالث ، الذي كان عهد رخاء ورفاهية ويسر ، وكان في استطاعته ان يتناول حصته ، دون ان تأكل الغيرة صدره ، في الاعياد التي كانت تقام تكريماً للآلهة والملك . والغيرة والحسد ، يتولدان اما من الأمل او من اليأس ، وقليلون هم الذين كانوا يأملون في الارتفاع الى ما فوق منزلتهم ، ولكن قليلين ايضاً هم الذين كانوا يائسين . وكان من النادر ان يخطر في ذهن أي مصري ان ثروة البلاد لم تكن موزعة بعدل . ولو انها كانت موزعة بالعدل والقسطاس ، اذن لكانت الحياة هانت لاغلبية الشعب — ولكن لتصبح مملة

مرهقة . فالهياكل والمعابد العظيمة ما كانت لتشاد ، والآلهة ما كانت الا لتنسى او تلوذ بالفرار ، والاعياد البهيجة المنيرة ما كانت لتقام فتبدد رتابة ساعات العمل ، وتضفي على سأم الايام نتفة من النشوة السكرى . لا أحد يذهب به الجنون الى ان يرى في مصر القديمة البلد المثالي ، ولكن الحضارة الغابرة غالباً ما تُصَوَّر على لوحة قاتمة السواد . ان الطيبيين في زمن امنحوتب الثالث ، كانوا على الارجح سعداء كشعب أي بلد آخر او أي زمن آخر . أم هل من الخطأ النظر الى السعادة على انها الخير المنشود الاقصى ؟


٨
أعوانُ الملكِ

مع ان مصر كانت تعيش في سلام خلال حكم امنحوتب الثالث ، فان الجيش الذي انشأه الملوك السابقون كان من الواجب المحافظة عليه ، الى جانب كونه على نحو ما أسلفنا آنفاً قوة يحسب لها حساب . ولعل مصر لم تكن تعرف حتى عهد السلالة الثامنة عشرة طبقة عسكرية محترفة . اما قبل ذلك ، فقد كان للملوك حرسهم الخاص ، كما كان هناك جيش صغير انشىء ليرابط في القلاع الشرقية التي شيدت لحماية الحدود من القبائل المغيرة ، بالاضافة الى الحصون التي بنيت في الجنوب للمحافظة على الطرق التجارية القادمة من افريقيا الداخلية . والى جانب هذه القوات كانت ثمة قوة شرطة دائمة تتألف من افراد القبائل النوبية وتستخدم بصورة رئيسية في اعمال الدورية على الحدود الصحراوية وفي المدافن ، كما كانت تستخدم ايضاً في اخماد ما يمكن ان يحدث من أعمال شغب محلية . وفي الحالات الاستثنائية ، كان باستطاعة الفراعنة ان يستدعوا « الميليشيا » — وهم رجال تدربوا على فنون الحرب تحت قيادة الولاة الاشراف الذين كان لهم ، شأن البارونات في العصور الوسطى ،

اتباعهم المسلحون الخصوصيون الذين كانوا يخضعون لنداء سيد الموالي المطلق ، الملك . وكانت الجيوش التي شكلت على هذا المنوال ، دائماً صغيرة . وكانت الايام السالفة في مصر عـــلى الاجمال ايام سلم، لا يشوبها اكثر من بعض غارات تقابلها غارات مضادة ، وحتى عهد المملكة الجديدة لم يكن الفراعنة قد وضعوا أية مخططات ضخمة للفتوحات الخارجية .

صحيح ان التجنيد الاجباري كان يجري على نطاق واسع ، ولكن ليس لاغراض الحرب بصورة رئيسية . فان جميع اعمال الري كان يقوم بها عمال مسخرون طوال العهود الفرعونية ، ولقرون عديـــدة لاحقة (وفي الواقع حتى زمن الاحتلال البريطاني) ، كان الرجال يطوعون قسراً بأعداد ضخمة للعمل في المقالع وفي تنفيذ مشاريع الملوك العمرانية . وكان هؤلاء الرجال يعملون تحت نظام عسكري فيتلقون الاوامر من « ناظر الجنود » الذي كان منصبه يعادل على وجه التقريب منصب جنرال في وقتنا الحاضر . وفي عهد السلالة الحادية عشرة ، قيل ان حملة واحدة كانت قد ارسلت الى المقالع في وادي حمامات بلغ عدد رجالها زهاء عشرة آلاف رجل . ومع ان هذا الرقم هو بالتأكيد نتيجة شغف المصريين بالارقام الضخمة ، فليس هناك شك بأن القوات المستخدمة كانت كبيرة . وكانت ترافق كل حملة ترسل الى مقلع بعيد، قوة مسلحة لحماية العمال ضد غارات رجال القبائل الرحل . وكان التجنيد الاجباري للعمل في

المناجم او المقالع شيئاً مرعباً مرهوباً . ففي أحسن الحالات كان يعني المشقة ، وضآلة الغذاء ، والعطش ، وفي اسوأ الحالات الموت بعيداً عن البيت .

في مطلع عهد المملكة الجديدة ، تعلمت مصر من خلال غزو الهكسوس لها انها لم تعـــد في مأمن من الهجمات ، وادركت علاوة على ذلك ، ان اساليبها الدفاعية كانت عتيقة جداً ، وتحقق الفراعنة اثناء مطاردتهم للعدو في آسيا ، بأن خير ضمان لسلامتهم ينطوي في اخضاع البلدان الساحلية على شاطىء البحر الابيض المتوسط الشرقي ، لانها كانت تشكل نقطة انطلاق للعدوان على مصر . ومراعاة منهم ووعياً للدروس التي تلقنوها من شعوب أعرق في فنون الحرب ، فقد بادروا الى انشاء جيش أكبر وأضخم من السابق ، وأوقفوه على اهبة الاستعداد بعد ان دربوه وجهزوه جيداً ، وسلمت الامرة عليـــه الى ضباط محترفين كانوا ينشئون ابناءهم ويربونهم منذ الصغر كي يخلفوهم في ميدان الخدمة العسكرية .

ما ان أقبل عهد امنحوتب الثالث حتى كان جيش البلاد يتألف من فيلقين رئيسيين كانا يتمركزان في طيبة وممفيس على التوالي ، ولكل منهما قائده الخاص . وكان هذان الفيلقان يدربان الجنود ويعدانهم للخدمة في الخارج ، كما كانا يزودان الحصون القائمة على الحدود بالحـــاميات ، ويقدمان الرجال للحرس الملكي وكتائب المرافقة العسكرية ، ويوفران الجنود

للعمل في الاشغال العامة . وكان يمكن ايضاً اللجوء اليها ، اذا دعت الحاجة ، لتأمين الجنود من اجل اخماد اعمال الشغب او اية اضطرابات اخرى من شأنها تعكير صفو الامن الداخلي . الا ان اموراً كهذه كانت على الاجمال تتولاها قوة الشرطة القديمة ، المدجاي ، التي باتت تتألف الآن بصورة رئيسية من مواطنين مصريين ويقودها ضباط مصريون من ذوي الرتب العسكرية .

كان الجيش بالذات مقسماً الى فرق وفصائل . ولم تكن هذه تتميز ، كما هي الحال اليوم بصورة عامة ، بأرقام معينة . بل كانت الفرق تحمـــل اسماء الآلهة الرئيسيين — «آمون» ، و «بتاح» ، الخ ... بينما تتميز الفصائل باسماء ذات عبارات دينية تنطوي على صور جميلة . فقد كان هناك كتيبة في عهد امنحوتب الثالث تدعى «تجلشي معات» ، واخرى «رونق أتون» ، كما كانت هناك فصيلة من جنود الصاعقة حاربت مع تحتمس الثالث وعرفت باسم «شجعان الملك» . وكان عدد جنود الفرقة الواحدة حوالي خمسة آلاف رجل ، وكانت تضم خمساً وعشرين كتيبة ، كل واحدة منها بمئتي رجل ، وهذه الكتائب كانت مقسمة الى شراذم ، لكل شرذمة منها ضابط صغير يحمل اسم «آمر العشرة» . وكانت الفرق والفصائل على السواء تتميز بألوية وأعلام خاصة تحملها معها في المعارك . وكان وقوع هذه «الالوان» في يـــد العدو يعتبر أفظع عار على الاطلاق .

كان يرتبط بكل فرقة قوة صغيرة من العربات الحربية التي كانت تقوم تقريباً بالاغراض التي تقوم بها المدرعات والمصفحات في وقتنا الحاضر ، فكانت تقود الهجوم تغطية لزحف المشاة ، كما كانت تظهر في اللحظات الحرجة من المعركة لتكر على العدو فتشتته او تطارده . وفي حين ان العربات الحربية التي كانت تجرها الخيول ظهرت منذ اول بداية السلالة الثامنة عشرة ، فانها لم تصبح سلاحاً فعالاً في الجيش الا في زمن تحتمس الثالث . فمنذ ذلك الوقت وصاعداً اصبح افراد هذه القوة يشكلون النخبة الممتازة في الجيش . وكان يجري اختيارهم من بين الشبان اصحاب الجوهر الطيب الذين كانوا هم يزودون انفسهم بأعتدتهم الخاصة ، وكانوا جميعاً يكرمون بمنحهم لقب « الكاتب الملكي » . وكانت كل عربة تحمل رجلين ، احدهما سائق العربة والثاني المحارب . اما فرقة العربات ، فقد كان يقودها الى المعركة البطانة الملكية . وكان لقب « رجل عربات الملك » احد اشرف الالقاب وادعاها للتشامخ والاعتزاز . فحامل هذا اللقب لم يكن فقـــط يرافق الفرعون في ساحات الحروب ، بل غالباً ما كان يرسل الى بلدان بعيدة في مهمات ملكية ويقوم مقام سفير متجول نوعاً مـــا . وعندما يحال الى التقاعد ، فانه كان يتطلع الى منصب رفيع في بيت الملك بنوع خاص .

كان المشاة كما هي الحال دائماً عماد الجيش وعموده الفقري . وكانت تسير في طليعة المشاة كتيبة من جنود الصاعقة تتألف من

جنود محنكين متمرسين في شئون الحرب يتحملون هم صدمة الهجوم . وكانت هناك كتائب رماة السهام الذين كانوا يتسلحون بأقواس قوية ويتمنطقون بالفؤوس والخناجر . وكان هناك ايضاً الرماحون الذين يحملون دروعاً من جلود الثيران ورماحاً يبلغ طولها احياناً ستة اقدام تقريباً . واخيراً كان هناك الجنود المسلحون بالفؤوس والهراوات فقط . ومع ان رسوم الملوك والامراء تظهرهم غالباً وهم يرتدون دروعاً ، وانه قد عثر على بقايا مثل هذه الدروع التي تتألف من سترة او صدرية من الجلد او النسيج خيطت في داخلها قشرة معدنية ، فان الجندي العادي لم يكن يرتدي ما يوفر له الحماية الا مئزراً جلدياً في النادر . فقد كان الجندي يحارب مكشوف الرأس ولباسه لا يختلف كثيراً عن لباس فلاح عادي — تنورة قصيرة وفي بعض الاحيان جلباباً او قباء . وكان يمكن تمييز الجندي احياناً بقصة شعره او بتفصيلة تنورته او بالحزام الذي كان يتمنطق به ، ولكنه لم يكن في اغلب الاحيان يفرق عن اي عامل من عمال الحقول .

كان الجيش يتألف من قسمين ، قسم من الجنود المحترفين ، وقسم آخر من المجندين الزامياً . وكانت هنالك حصة التجنيد بالقرعة . كتب أمنحوتب ابن حبو بصفته مسجـل المجندين يقول : « لقد حشدت شباب مولاي الملك ، فحَسَبْتُ ريشقي عدد الملايين ، وانتزعت اقوى الرجال من مقر عائلاتهم ... وفرضت ضريبة التجنيد على القطاعات بحسب اعدادها ...

وعبأت الصفوف بأفضـــل الاسرى من الذين اخذهم صاحب الجلالة في ساحة الحرب » .

كان الجيش حتى زمـــن امنحوتب الثالث يتألف بصورة رئيسية من المواطنين المصريين ، يتخللهم دائماً عدد من النوبيين ، وفي بعض الاحيان قليل من الآسيويين . اما الآن ، فقد اصبح عدد كبير من اسرى الحرب الشرقيين ، او ممن هم من نسلهم يُجَرّون الى الخدمة اجباراً . ولأول مرة ظهر الآن ايضاً بين قوات الجيش رجال من « الشردن » الغامضين ، وهم قـــوم جوالون في البحار يظن البعض انهم كانوا اسلاف اهل سردينيا . والظاهر ان احداً من هـــؤلاء الاغراب لم يكن جندياً مرتزقاً بالمعنى الصحيح للكلمة ، بل لقد كانوا اسرى اشتروا حريتهم بتغيير ولائهم وتابعيتهم . غير ان الملوك المصريين لم يلبثوا فيما بعد ان لجأوا الى استئجار الاجانب ليحاربوا لهم معاركهم ويحموا عروشهم .

كان الفرعون بالطبع القائد الأعلى للجيش ، ووزيره وزيراً للحربية . وفي حين ان الملوك المحاربين من السلالة الثامنة عشرة كانوا يروون الكثير عن اشتراكهم في الحملات والغزوات على رأس جيوشهم ، ويتبجحون غالباً بأعمالهم ومآثرهم الباهرة بمفردهم ضد العدو ، فان المرء ليتساءل كم واحداً منهم اقدموا بالفعل على قيادة رجالهم في قلب المعركة . وليس هناك اي دليل على ان حاكماً مصرياً واحداً قد قـُتِلَ ابداً او جُرِحَ او سقط

اسيراً . ولكن بيانات المصريين وتقاريرهم لا تذكر ابداً الهزيمة، كما انها تُعْرِضُ عن تعداد الخسائر في الرجال والعتاد . وكانت المشاهد المصورة لا تمثل الا العدو المقتول ، ولا تُظْهِرُ ألبتة محارباً مصرياً عانى السقوط . وصاحب الجلالة كان دائماً يوصف بالمنتصر . ومع ان بعض المصادر النادرة تشير الى ان الحال لم تكن دائماً كذلك ، فان ملوك السلالة التحتمسية كانوا على العموم شجعان مغاوير وموفقين في حروبهم . فقد كانوا يجيدون رسم الخطط لحملاتهم الحربية بالتشاور مع رؤساء اركان جيوشهم . ولم تعد المعارك تخاض بطرق بدائية يفسح فيها للجميع بالاشتراك في النزال كيفما اتفق ، على ما كانت الحال في الماضي ، بل لقد اصبحت الجيوش تُنْشَر وتُفَرَّق بانتظام وفق التكتيك الذي تقتضيه المصلحة ، وباتت تُرسَم الخطط الستراتيجية المنظمة للتفوق على العدو وخداعه . وقد يبدو من المبالغة والجرأة الاعتقاد بأن الحرب كانت دائماً ، او عادة ، مسألة شهامة وفروسية على نحو ما وصفها (او ربما اوصى بها على الارجح) القائد النوبي بيانخي الذي فتح مصر في القرن الثامن قبل الميلاد . فقد سجل على لوحة تذكارية اقامها في هيكل آمون بمدينة نبطة خبر حملته المظفرة على مصر ، وحدد القواعد والاصول الواجبة اتباعها في القتال حسب رأيه . ففي عهد بيانخي وتحت قيادته ، لم يكن يجوز على ما يظهر الهجوم اثناء الليل ولا المفاجأة في النهار . فكان القادة المتخاصمون يتفقون على مكان المعركة وزمانها ، ولا يُنْزِلون قواتهم الى القتال الا بناء على اشارة

محددة مسبقاً . وكان بيانخي يحث قادته على ان يمهلوا العدو ريثما يبحوا له الوقت كي يعزز قواته ويستحضر النجدات ، عندما تدعو الحاجة ، ثقة منه بأن آمون سيكون الى جانب الحق . الا ان تحتمس الثالث ، على كل حال ، ادرك بالتأكيد قيمة الهجوم المفاجىء كما يبدو ، والرسوم النافرة الباقية التي تمثل اكواماً من الرؤوس والايدي المقطوعة تشهد بأن الحرب على العموم لم تكن تتسم بطابع الشهامة والفروسية ، ولا كانت جميلة . والعدو لم يكن يُعْطى اية فرص على الغالب .

كانت مكافآت الخدمات العسكرية عظيمة . وشأن جميع الناس في مصر ، كان الضباط والجنود يتقاضون اجورهم عيناً ، كل بحسب رتبته . ولكن الضباط البواسل الذين يبرزون في القتال ، كانوا غالباً يُكافأون بالاراضي والممتلكات والعبيد الاسرى والأوسمة الثمينة ، كما كان باستطاعتهم ان يتطلعوا الى مناصب مشرفة عند تقاعدهم ، وفي الغالب الى مناصب في البيت المالك وبطانة الملك . وكثيراً ما كانت تمنح الترقيات الى جنود من الصفوف تقديراً لشجاعتهم في الميدان . حتى ان الجنود العاديين في الجيش النظامي كانوا يمنحون افضلية المعاملة في الوطن عن طريق الاسكان والمخصصات ، مقابل اعداد ابنائهم للسلك العسكري . اما المجندون الاجباريون ، فالراجح انهم كانوا لا يحصلون على اكثر مما اعتادوا الحصول عليه في حياتهم المدنية — مجرد لقمة العيش . وبعد انتهاء خدمتهم

العسكرية ، كانوا بمعظمهم يعودون الى مشقاتهم المعتادة . على اية حال ، كان في استطاعة الجميع ابان وجودهم في ساحة القتال ان يتوقعوا نيل حصة من الغنائم التي يتم الاستيلاء عليها من العدو . فالعبيد والخيول ، والمواشي ، والملابس الجميلة ، والاعتدة الثمينة ، والمجوهرات والحلي ، والاطعمة والخمور الكثيرة الوافرة — تلك هي المغانم ، وأي شيء منها كان يمكن ان يكون من نصيب الجندي .

بما ان الحملات العسكرية الى سوريا كانت تقتصر على أشهر الصيف ، عندما تكون الغلال المصرية قد حصدت ويكون النيل في اوج فيضانه ، بينما محاصيل العدو من ثمار وحبوب لا تكون قد جمعت وخزنت بعد ، فان مسألة تموين الجيش المهاجم لم تكن مشكلة بالغة الاهمية والخطورة . وعلى الرغم من ان القوات المحاربة في سوريا كانت تواجه احياناً نقصاً في المؤن ، فان النهب والسلب كانا القاعدة المتبعة ، بحيث ان الفلاح الجند الجائع كان في بعض الاحيان يحصل على كميات من الطعام لم يعرف مثيلاً لوفرتها من قبل . ومع ان جميع الغنائم، شأن جميع الانتصارات كانت من حق الفرعون وملكاً له ، ولا تمنح للآخرين الا جوداً وانعاماً منه ، فان الفاتح العظيم تحتمس الثالث نفسه لم يستطع المحافظة على النظام في صفوف قواته ازاء مغريات المغانم السورية . فقد فشل في محاولته الاولى للاستيلاء على حصن مجدو لان « جيش جلالته كان ... قد انصرف جنوده بكل قلوبهم الى

نهب اشياء العدو » ، كما اضطر الى تأجيل حصاره لقادش موسماً بأكمله لان قواته وجدت حدائق فينيقية زاخرة بالثمار ، ودناناً طافحة بالخمور الجديدة : « انظروا ، ان جيش جلالته يسكر ويثمل ويتطيب بالزيوت كل يوم ، تماماً كما يحدث اثناء عيد في مصر » .

على اعتبار انه كانت هناك مثل هذه المكافآت المدهشة ، فانه لم يكن ثمة من صعوبة في اجتذاب المتطوعين في الجيش . ولكن المصريين بطبيعتهم كانوا شعباً مسالماً ، اضف الى هذا ان هناك ناحية قاتمة في الصورة . فمع ان معظم معلوماتنا عن حياة الجندي مستمدة من كتابات وضعها الكتبة حتماً بلسان الجندي في تمجيد مهمته، فان الصورة التي رسمت لم تكن على الارجح قبيحة متجهمة كحقيقة الحـــال . فالنظام في الجيش كان يفرض بالسوط .

في سياق حروب تحتمس الثالث ، أصبحت مصر قوة بحرية تسيطر باسطولها على البحر الابيض المتوسط الشرقي . وحتى العهد الرمسيسي لم تكن هناك أية مستندات عن وقوع معارك بحرية ، ولكن الفاتح العظيم وخلفاءه استخدموا المراكب لنقل قسم على الاقل من قواتهم وعتادها الى الموانىء السورية . ولعل حظ الجنديين في البحر كان افضل نوعاً ما من حظهم على البر . ومع ان فصائل الجنود كانت تحشر في مركب لا يزيد طوله عن مئتي قدم وعرضه عن ستين قدماً ، فان الرحلة كانت قصيرة

ولم تكن تدوم طويلاً . فهي بمساعدة الرياح والتيارات المناسبة لم تكن تستغرق عادة اكثر من يومين ، ولكن رحلة العودة كانت تقتضي ثمانية او تسعة ايام من التعاسة والشقاء .

كان كتبة الجيش انفسهم يعانون العذاب ايضاً . فأولئك الذين كانوا يبقون في الوطن ، إما في القيادة العامة او في وزارة الحربية ، كانوا لا يقاسون الكثير . ولكن اولئك الذين كانوا يرافقون الجيش الى ساحات الحرب ، كانوا يشاركون الجنود المتاعب والمشقات . وكان الكتبة يتباهون بمعرفتهم جغرافية البلاد السورية والاراضي الوعرة التي كانت تحارب فوقها قوات الفرعون ، كما كانوا ينمقون كتاباتهم مفاخرين بكلمات وعبارات اجنبية . ولكن الكاتب في دائرة امناء الجيش كان يمكن ان يلقى الذل والهوان اذا قصر في تقدير المؤن والذخائر اللازمة لمجموعة من القوات تقديراً صحيحاً ، او في ارسال كميات الخبز والجعة المعتادة للتسليم في المكان والزمان المحددين . وزيادة على ذلك كان يمكن ان يجبر الكاتب على مواجهة المخاطر في الجبال الآسيوية الموحشة المكسوة بغابات منيعة كثيفة بحيث يكتنفها الظلام حين تكون الشمس في سمت السماء . وكان عليه ان يجتاز بمركبته مسالك وعرة خطرة تتخللها الحجارة والصخور وتحف بها الوديان السحيقة . كان يسافر والقوس بيده مهـــدداً بالموت في النهار على يد عدو كامن « طوله سبعة الى تسعة اقدام » ، ومعرضاً في الليل لان يُسْرَقَ عتاده وهو نائم . واذا لقي فتاة

تطيب خاطره وتواسيه بعد انتهاء رحلته ، فانه كان يقع في المتاعب والمشاكل نتيجة لذلك .

في حين ان الكتبة كانوا يبيّنون بالتفصيل مشقات حياة الجيش، فان لديهم القليل مما يقولونه عن نصيب البحّار . فلربما كانت المراكب والبحارة بالنسبة اليهم شيئاً اعتيادياً مألوفاً . لقد كانت المراكب منذ بداية الزمن الوسيلة الرئيسية للنقل على طريق البلاد الوحيدة العظيمة ، ونعني النيل . ولقد اكتسب المصريون مهارة فائقة في بناء وتسيير القوارب النهرية والمراكب البحرية على السواء . فقد نقلت الجيوش بطريق النهر لاخضاع بلاد النوبة ، واستخدم ملوك السلالة الثامنة عشرة الاوائل المراكب النيلية لقهر الهكسوس واعوانهم من المواطنين . على ان المعضلة الكبرى بالنسبة لمصر العديمة الاشجار تقريباً ، كانت في الحصول على الخشب لبناء السفن . ولقد كان الخشب جزءاً مهماً من الجزية النوبية ، كما كان منذ اقدم الازمنة احدى المواد الرئيسية في التجارة مع آسيا ، وكان قسم كبير منه يستخدم في بناء المراكب .

كانت هنالك انواع متعددة من المراكب قيد الاستعمال ، باستثناء الزوارق والقوارب الصغيرة التي كانت تحتشد على النيل . وكانت المراكب الكبيرة المعدة للسفر في النهر خفيفة مسطحة القعر لكي تسهل الملاحة فيها في المياه الضحلة القليلة الغور وفـــوق المنحدرات النهرية . وكانت قراتها مبنية على

ارتفاع بحيث تشرف على الشاطيء وتتيح رؤيته الى مسافات بعيدة . وكانت مجهزة بالاشرعة ، ولكن هذه كانت ذات فائدة فقط عندمـــــا تكون الرياح مواتية ، فاذا كانت الريح ساكنة او اذا كان الابحار مضاداً للرياح او فوق المنحدرات المائية ، فعند ذاك كان على البحارة ان ينزلوا الى الشاطيء ويلجأوا الى شد المركب بالحبال . وكانت المراكب المخصصة للسفر بين مصر ومرافيء البخور على البحر الاحمر تبنى بشكل يؤمن السرعة ، اي انها كانت ذات خطوط مستطيلة واشرعة ضخمة ، ذلك ان الطريق البحري المؤدي الى هناك كان يحاذي شطآناً صحراوية خالية من الموانيء ولا توفر الطعام او الماء . اما السفن التي كانت تبنى للملاحة في البحر الابيض المتوسط فقد كانت اكبر واضخم واكثر عرضاً . وكان لكلا هذين النوعين من المراكب البحرية قلع واحد ضخم وصف مفرد من الجذافين . وفي حين ان المراكب التي كانت تستخدم كوسائل للنقل كان يقودها ملاحون متمرسون ، فانه لم يكن هناك تفريق بين افراد الجيش وافراد الاسطول : فالضباط والجنود على السواء كانوا برمائيين . وكانت أرفع الرتب والالقاب في سلاح البحرية ، كمثل « ناظر مراكب » او « الناظر الاعلى لجميع مراكب الملك » ، يحملها رجال ليس لهم على ما يظهر اية خبرة بحرية ، ولكنهم كانوا يخدمون بصفة ادارية بحتة ، تماماً مثل « حاكم اسطول الملكة » . وكانت سفن السلاح البحري ، تماماً كفرق الجيش وفصائله تحمل اسماء رنانة مثل « الحاكم قوي » ،

و « محبوبة آمون » ، و « نجمة في ممفيس » . اما سفينة القيادة الرئيسية المعقودة اللواء لامنحوتب الثالث فقد كان اسمها مثل اسم قصره « روعة اتون » .

ليس لنا سبيل الى تحديد حجم القوات المشتركة التي كانت للفراعنة في أي وقت من الاوقات خلال التاريخ . لقد كان هناك تخمين ، بناء على اثباتات ركيكة كما يبدو ، بأن واحداً من كل عشرة رجال في عهد المملكة الجديدة كان يخدم في الجندية . اما البيان الذي يرتكز عليه هذا التخمين فموجود في ألواح بردى هاريس حيث يعلن رمسيس الثالث انه ، على النقيض من الملوك السابقين ، لم يبتز رسماً او ضريبة من موظفي اي معبد مقابل تعيينهم في فرق المشاة او سلاح المركبات . (بريستد ، « وثائق قديمـــة » ، المجلد الرابع ، ص ١٧٨) . على ان نسبة الرجال المجندين للخدمة في الجيش من مجموع الشعب كان يمكن ان تكون اكثر من واحد الى عشرة ، وخاصة في اوقات الحرب . ومهما يكن من امر فان هذه الارقام لا تقودنا ، حتى ولو انها كانت مما يوثق بصحتها ويعول عليها ، الى اية نتيجة ، ما دام عدد سكان مصر الكامل في اي عهد من العهود الماضية هو في حكم المجهول — ويحتمل ان يظل كذلك .

عندما يقف المرء امام تمثال امنحوتب الثالث الضخم او بين اعمدة هيكله في الاقصر بحيث يبدو قزماً ضئيل الحجم ازاءه ، فان الماضي يبرز كبيراً بشكل غير متناسق . ولا يتمالك المرء

عن التفكير بأن مصر كان يجب أن تكون موطناً لملايين حاشدة من البشر حتى استطاعت ان تنتج مثل هذه الاعمال الضخمة دون مساعدة الآلات والتجهيزات الحديثة ، كما ان طيبة كان يجب أن يكون عدد سكانها مثل عدد سكان عاصمة من العواصم الكبرى في وقتنا الحاضر . وان الكتابات والمدونات الزاخرة بمفاخرات كاذبة ، والتي تروي فتوحات الفراعنة القدماء معددة ألوف الاسرى وأطنان الغنائم ، ان هذه الكتابات تقود المرء الى تخيل جيوش ضخمة تحاصر مدناً سورية لا تقل عظمة عن طيبة نفسها . ولكن طيبة لا يمكن ان تقاس اليوم بأكثر من بـــلدة ريفية تتمتع بقسط من اليسر والرخاء في الوقت الحاضر .

لا شك في ان عدد سكان مصر في القديم كان يرتفع ويهبط بنسبة كبيرة بين الفترة والفترة ، وهكذا استمرت الحال حتى ازمنة قريبة ، وذلك تبعاً لاستقرار الحكم وتقلبات النيل واهوائه. ويعتقد العلماء المعاصرون ان البلاد في عهد المملكة الجديدة كانت تعد مليوني نسمة . وقد قدر ونلوك انه في بداية عهد السلالة الحادية عشرة ، بعد اضطرابات « الفترة المتوسطة الاولى » ، هبط عدد السكان الى مليون نسمة او الى ما يزيد عن هذا قليلاً . أما بريستد فيعتقد انه في اثناء مرحلة الرخاء التي شهدتها المملكة الجديدة ارتفع العدد الى خمسة او ستة ملايين . واما الكتاب الكلاسيكيون فقد رفعوا العدد ، مرتكزين في تقديراتهم الى الحكايات التي سمعوها في عصر انحطاط مصر ، الى سبعة او ثمانية

ملايين ، وهو رقم وجد ديودورس سيكلوس (المجلد الاول ، ص ٢١) انه قد تضاءل الى ثلاثة ملايين في ايامه قبيل زمن المسيح بقليل . وفي عهد الرومان ، زيدت مساحة الاراضي الزراعية ، ويحتمل ان يكون قد ازداد معها ايضاً عدد السكان . وكانت تجري في ازمنة الفراعنة احصاءات دقيقة متقنة لعدد السكان ، ولكن لم تصل الينا اية ارقام مجمّعة من تلك العهود . وقـــد اجريت احصاءات كذلك تحت حكم البطالسة وحكم الرومان، ولكن هذه ايضاً لم يتحدّر الينا اي سجل كامل عنها .

من الواجب ألا يغيب عن الاذهان ان مصر كانت دائماً بلاداً زراعية تعتمد اعتماداً كلياً على الفيضان السنوي لنهرها الجبّار ، وان انظمة الري القديمة كانت في افضل حالاتها تغطي مساحة من الارض اقل بكثير من مساحات الاراضي المزروعة اليوم . فقد كانت البلاد ، وما تزال ، حسب العبارة الشائعة التي بليت لكثرة الاستعمال « عطية النهر » ، ولكنها عطية تعطى فقط مقابلَ العمل المتواصل والكد الذي لا ينقطع والاحتياط الحكيم لاوقات القحط . ان حلم الفرعون الذي ورد ذكره في قصة يوسف بالتوراة يمكن ان يكون الكابوس المتكرر الذي ازعج اي حاكم يفكر في امر البلاد ويهتم له . ذلك ان تقصير النيل عن العطاء ، اذا استطال ، فانه لا يجلب في اعقابه المجاعة والمرض والموت فحسب ، بل الثورة ربما من قبل الناس الذين يدفعهم الجوع الى اليأس . وهنـــاك احتمال آخر ، ولو انه اكثر ندرة من

انحباس الفيضان ، يمكن ان يؤدي الى كوارث مشابهة ، وهو ارتفاع النيل في فيضانه ارتفاعاً كبيراً بحيث يجرف الحواجز والسدود ويكتسح الحقول والمواشي والقرى برمتها مع سكانها . ان الوثائق القديمة لا تصور عادة الا الناحية المشرقة فقط للحياة في وادي النيل . وعلى الرغم من ان العبارة التي رددها وكررها الملوك والحكام ، بأن « احداً لم يكن جائعاً في عهدي » ، هي دليل نفي لحدوث ادوار عوز وفاقة ، فهنالك صكوك ووثائق تشير بصراحة نوعاً ما الى وقوع المجاعات ، ولو ان مثل هـــذه الدلائل على غضب الآلهة وانعدام الكفاءة الملكية ، من قحط ومجاعات وامراض ، لم يشر اليها عادة الا تلميحاً عابراً ، او انها أغفلت ومرت طي السكوت والكتمان .

لقد عانت مصر دائماً القحط والجوع والمرض. فان الكتّاب الكلاسيكيين قد تحدثوا عن وقوع عدة كوارث مجاعة نتيجة لعدم فيضان النيل. وكذلك فعل المؤرخون العرب، كعبد اللطيف الذي روى عن مجاعة في القرن الثاني عشر اقدم الرجال الجياع اثناءها ، على حدّ التعبير اللغوي القديم، على « أكل اطفالهم الذين من لحمهم ودمهم » . وكان تعطل جهاز الحكومة المركزية وتوقفه موقتاً عن العمل ، وما يتبع ذلك من اهمـــال لاعمال الري واستنفاد مخزونات المستودعات العمومية ، يعني ايضاً المجاعة . ومن المحتمل علاوة على ذلك ان تكون مصر قد تعرضت للزلازل والهزات الارضية من مثل تلك التي يعتقد انها دمرت في الماضي

الشرق الادنى بكامله (وقد كان دائماً ، كما هو اليوم ، يقع في منطقة الهزات الارضية) مخلفة في اعقابها المصائب والنكبات . اما الوثائق والمستندات المصرية ، فليس لديها شيء تقوله بشأن مثل هذه الاحكام الالهية . وهي تتكتم كذلك بشأن المرض الذي كان على الارجح عنصراً فعالاً في انخفاض عدد السكان آنذاك ، شأنه في الازمنة التي هي في متناول الذكرى. وهنالك قرائن على ان البلهارسيا ، هذا المرض الطفيلي الذي ما يزال يضني وبالتالي يقتل عدداً كبيراً من الفلاحين ، كان معروفاً في العهد الفرعوني ، وكذلك نقمة مرض الجدري . ولكن اوراق البردي الطبية تشير الى ان الامراض الصدرية كانت اعم انتشاراً وطغياناً. وقد عثر في بعض المقابر على ما يدل على ان اعمال دفن سريعة قد جرت فيها ، مما يشير الى حدوث الوافدات الوبائية، وكذلك هنالك تلميحات مبهمة الى وباء الطاعون . والواقع ان اسطورة هاتور الضارية التي عكفت على تدمير الجنس البشري يمكن ان تكون من الذكريات الشعبية لموجة كاسحة من « الموت الاسود» كانت قد حدثت في القديم . وليس هناك ما يحمل على الاعتقاد بأن نسبة وفيات الاطفال في الماضي كانت قليلة . « عندما يأتي الموت » ، يذكرنا حكيم قديم ، « فانه يسرق الطفل القابع في حضن امه، كما يسرق ذلك الذي بلغ العمر الطويل » .

مع ان اي تقدير لعدد السكان قـــد ينطوي على شيء من المزالق المجازفة ، فانه ليشك في ان سكان مصر في عهد السلالة

الثامنة عشرة كانوا يزيدون على اربعة ملايين نسمة ، هذا اذا كان عددهم قد بلغ ذلك الرقم اطلاقاً . ويقدر تخمين حديث للدكتور كلاوس باير (مجلة مركز الابحاث الامريكي في مصر ، المجلد الاول ، ١٩٦٢) ان مساحة الاراضي الزراعية في زمن المملكة الجديدة بلغ حوالي اربعة ملايين دونم ، اي ما يعادل ثلثي المساحة الزراعية حالياً ، وان عدد السكان المشتغلين بالزراعة كان ثلاثة ملايين ، ومجموع عدد السكان في البلاد اربعة ملايين ونصف المليون . وقد قدر العلماء الفرنسيون الذين رافقوا حملة نابليون على مصر في مطلع القرن التاسع عشر ، مجموعَ الاراضي الزراعية آنذاك بحوالي اربعة ملايين ونصف المليون من الدونمات منها ثلاثة ملايين ونصف المليون فقط قيد الاستغلال الزراعي بالفعل ، كما قدروا عدد السكان بمليونين ونصف المليون فقط . وكتب ادوارد وليام لاين عام ١٨٣٥ (اخلاق وعادات المصريين المعاصرين ، [لندن ، ١٨٣٦]) فأعطى الرقم ذاته الذي جاء في الاحصاء الرسمي لعدد السكان في تلك السنة ، ولكنه شك في ان يكون العدد الصحيح قد بلغ المليونين فعلاً ، بالرغم من رأيه بأن البلاد كانت قادرة على اعالة ضعفي هذا الرقم اذا حظيت بإدارة حكيمة . وعندما كتب لاين ذلك كانت الاحوال في مصر شبيهة جداً بما كانت عليه في الزمن القديم الغابر .

ان الاساليب الزراعية لم تكن تختلف كثيراً عما كانت عليه في ازمنة الفراعنة . وكانت الدلتا ، تلك المنطقة الاكثر

خصباً في مصر ، لم تستصلح بمعظمها بعد – نصفها فقط يزرع اليوم والشطر الاكبر من الاستصلاح تم في القرن الحالي . وكانت هناك صناعات صغيرة اكثر من الزمن الفرعوني ، ولكن هذه المزية كان يقابلها تصدير القطن الخام وخاصة الحبوب ، والارباح الناجمة عن هذا التصدير كانت تذهب الى جيوب قليلة محكمة الاغلاق لم تفعل شيئاً لانعاش حالة الفلاح والعامل اللذين لم يجنيا سوى ربح ضئيل من الثروة في عهد السلالة الثامنة عشرة . حتى في زمن لاين ، الزمن الذي كان يسيطر عليه الفقر ، كان بامكان مصر ان تحتمل قيام عدد من المدن المتوسطة الاحجام ومدينتين كبيرتين – القاهرة وعدد سكانها حوالي ربع مليون نسمة ، والاسكندرية وسكانها يزيدون قليلاً عن مئة ألف نسمة . ولعل من الممكن ان تكون طيبة الكبرى في عهد الرخاء تحت حكم امنحوتب الثالث قد بلغت على الاقل حجم القاهرة في مطلع القرن التاسع عشر الذي كان يسيطر عليه الفقر .

من مجموع العدد الرسمي للسكان الذي بلغ مليونين ونصف المليون سنة ١٨٣٥ ، قدر لاين بأن حـــوالي النصف كانوا من الذكور ، ومنهم حوالي اربعمئة الف (الثلث) كانوا في سن تسمح بالخدمة العسكرية . على ان نصف هذا العدد من الرجال كانوا بالفعل في قوات محمد علي المسلحة . ومن غير المحتمل ان يكون اي فرعون قديم قد تصور ، مهما اتسع خياله وعظم وهمه ، ان يكون له جيش مؤلف من مئتي الف رجل ، ناهيك

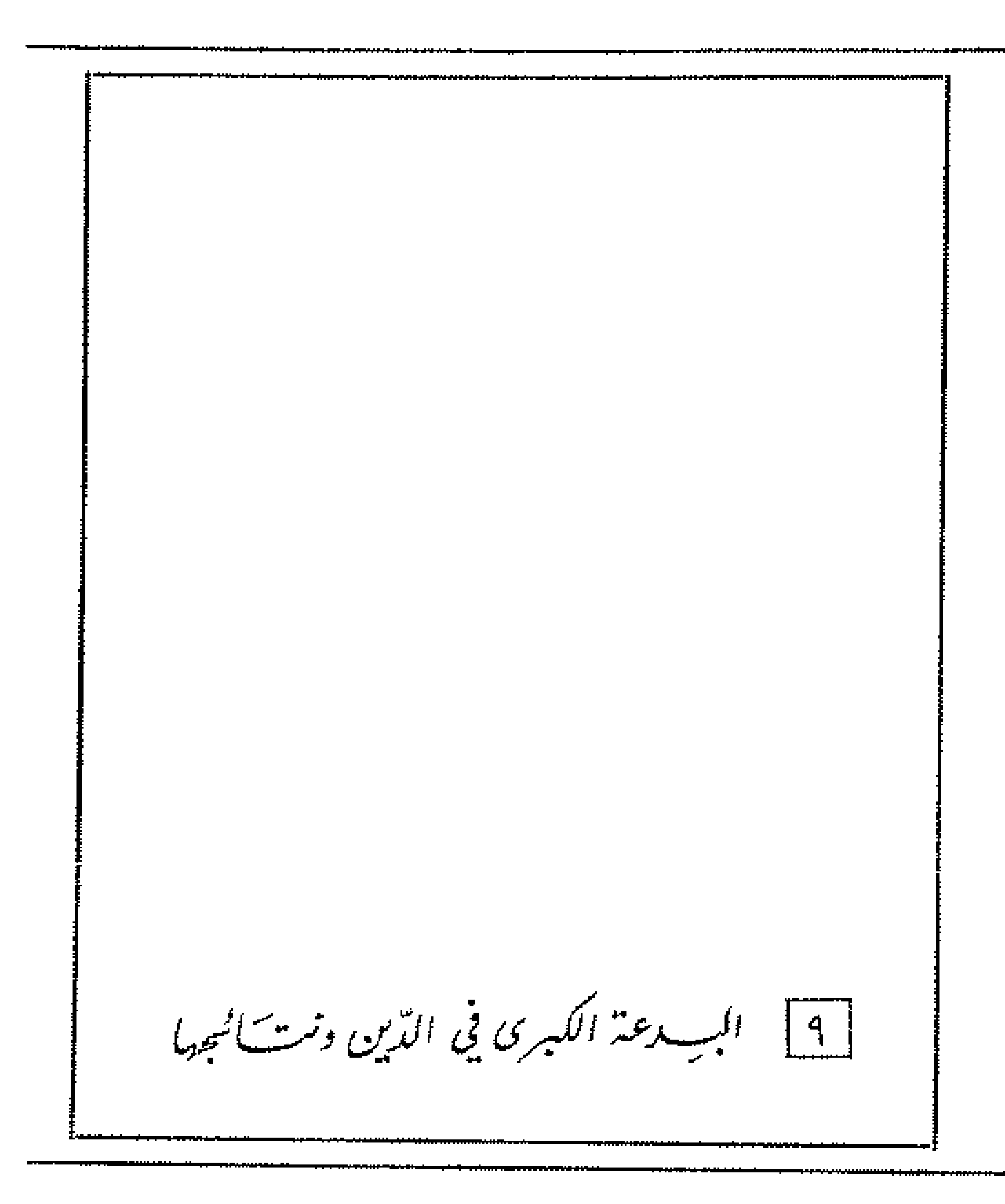
عن جيش المليون الذي عزاه سترابو (١٧ — ١ — ٤٦) الى الملوك الطيبيين . لقد فتح الاسكندر الكبير العالم كله في زمانه ، بثلاثين او اربعين الف رجل كما يقال . وكان جيش قيصر يتألف من عدد مماثل في حملته لاخضاع بلاد الغال . والفرق العسكرية التي حافظت على الامبراطورية الرومانية المترامية الاطراف وصانتها في عهد اغسطس لم تكن تزيد على ما يظهر عن مئتي الف جندي . وعلاوة على كل هذا ، فان ستة آلاف نورماندي تحت قيادة وليام الفاتح استطاعوا ان يستولوا على انجلترا من طرفها الى الطرف الآخر . (كانت انجلترا في القرن الحادي عشر ، كسوريا في عهد المملكة الجديـــدة ، ضئيلة السكان ومقسمة الى ما يمكن اعتباره تقريباً دويلات صغيرة مختلفة الاجناس والعادات الادارية) .

اذا كان ممكناً الوثوق بالمستندات والسجلات القديمة ، فان قوات رمسيس الثاني التي خاضت معركة قادش كانت تتألف من اربع فرق ، اي من عشرين الف رجل . ومن الممكن انه كان لديه ثلاثين الف رجل في ساحة المعركة ، اذا اضفنا جنود الاحتياط . واذا قدرنا ان عدد سكان مصر كان أربعة ملايين نسمة في عهد السلالة الثامنة عشرة ، واذا قبلنا الادعاء المشكوك فيه بان واحداً من كل عشرة رجال كان يجند ، فان ذلك يعني (مستندين في ارقامنا الى حساب لاين للذكور الصالحين للخدمة العسكرية في سنة ١٨٣٥ ، كما اسلفنا من قبل) انه كان هنالك

جيش مؤلف من خمسين الى ستين الف رجل متطوع، يضاف اليه عدد غير دقيق من الجنود المحترفين ، بما يجعل الرقم الاجمالي سبعين الفاً على الارجح ، وهو عدد يفوق حتماً العدد المطلوب من الرجال للخدمة الحربية وللحاميات في الداخل والخارج وللحرس والمرافقين الملكيين وللاشغال العامة . ومن الواجب القول مرة ثانية بان الحروب كانت تخاض ، وحملات المقالع ترسل ، ومعظم الابنية تشاد اثناء موسم الفيضان عندما تكون الاعمال الزراعية متوقفة ، ويكون هناك بالتالي اعداد كبيرة من الرجال العاطلين عن العمل . ويجب الا ننسى ان العمل في الحقول والبساتين كان يشارك فيه ، وما يزال ، النساء والاطفال والكهول . ونرجح ان قليلاً جداً من الحكام القدامى كانوا غير حكماء كالخديوي اسماعيل الذي اقدم اقرن خلا على احتجاز الفلاحين في مصر للعمل في حفر قناة السويس بينما كانت محاصيل الحبوب ما تزال في الحقول غير محصودة . ولكن جميع الحكام القدامى كانوا يستغلون الطاقة البشرية التي كانت تقبع عاطلة عن العمل خلال الفيضان السنوي . وقد يكون البناءون العظام مثل امنحوتيب الثالث قد استعاروا العمال من الارض وحولوهم لاعمال البناء في مواسم اخرى . فهنالك بعض الدلائل على ان النقص في الايدي العاملة كان قد بدأ يظهر في زمنه ، ولم يلبث ان تأزم واصبح حاداً في عهد الرمسيسيين . وان هذا النقص بالذات يمكن ان يكون الدليل القاطع على ان

عدد سكان مصر لم يتجاوز ابـــداً رقم الاربعة الملايين الذي اقترحناه للمملكة الجديدة في اوجها .

أما اليوم ، فان مصر هي احدى اكثر بلدان العالم كثافة سكان، ويقدر عدد سكانها بثمانية وعشرين مليون نسمة . وعندما يسافر المرء صعوداً في وادي النيل فانه لا يرى قطعة من الارض خالية من البشر منـــذ الفجر حتى الغسق . والقاهرة مدينة حاشدة زاخرة يزيد عدد سكانها عن مليونين ونصف المليون . والاسكندرية يسكنها اكثر من مليون نسمة .


٩
البدعة الكبرى في الدين ونتائجها

توفي امنحوتب الثالث في السنة السابعة والثلاثين او الثامنة والثلاثين من حكمه، وجرى دفنه بما يليق به من الابهة والعظمة، فووري ضريحه الذي لم يكن قد اكتمل بعد في وادي الملوك . وبالرغم من انه لم يكن يتجاوز متوسط الخمسينات، فان المؤرخين المعاصرين يجمعون على الاشارة اليه كرجل مسن . ويبدو ان هناك قليل شك في انه قد هرم قبل اوانه، وربما دب به الخرف، نتيجة للاجهاد والافراط والمرض . وقد خلفه ابنه من زوجته الملكية الكبيرة تيي ، الذي تولى العرش باسم امنحوتب الرابع، ولكنه عرف واشتهر في التاريخ باسم اخناتون .

لم يكن الملك الجديد شخصاً يستهوي او يثير الميل اليه . فقد وجد له في محراب طيبي كان قد شيده خلال السنة الثانية من عهده تماثيل ورسوم منحوتة تظهره بواقعية صارخة كمخنث عنين ، وقد انتفخ ردفاه وبطنه وثدياه على نحو امرأة ، الا انه ذو صدر غارق ، وعنق اعجف هزيل ، وساقين وشعيتين كأنهما مغزلان . اما وجهه الرفيع الضيق بقسماته البعيدة عن ان تكون لطيفة طلية — انف افطس ، وشفتان غليظتان ، وعينان

مغولتان تقريباً ، وذقن مستطيلة حرون — فيتم عن صراع بين الشهوانية وبـــين التعصب . هذه التماثيل وسواها من الصور المنحوتة له باسلوب مشابه ، قد اقتبست كأمثلة على شغف اخناتون وشهوته الى الحقيقة . وهي تبدو وكأنها تدل على افتقار كامل للصرامة الذاتية .

دخل اخناتون التاريخ على انه اول من اعتقد بإله واحد . وقد بات مشهوراً اليوم بمحاولته الفاشلة لتطهير الدين المصري مما علق به من أنقاض العصور وحطامها ، ولاستبدال الجمع الضخم من آلهة الامة بإله واحد ، هو أتون ، قرص الشمس المرئي . وقـــد اصبح شخصية خيالية غريبة تكتنفها انصاف الحقائق والاساطير . ويحتدم في الاوساط العلمية باستمرار جدل مرير احياناً حول تفسير الوثائق والمستندات الضئيلة الباقية من عهده . ويحمى وطيس المناقشات اكثر ما يكون حول ما اذا كان الملك الشاب قـــد تقاسم عرش والده كوصي مشترك خلال سنوات الانحطاط في عهد هذا الاخير . وينغمس المؤرخون في نظريات متعددة ومتغايرة جداً بشأن العلاقات المتشابكة المعقدة داخل العائلة المالكة . وهم يطلعون بتقديرات متفاوتة جداً حــــول دوافع الحاكم المنكود واخلاقه التي ورد ذكرها في السجلات المصرية فيما بعد (اذا ورد مطلقاً) ، فقط على انه « ذلك العدو من اخناتون » .

اما الحقائق الرئيسية بشأن الملك وحياته العملية ، فيمكن

تحديدها باختصار . لقد تمّ تتويجه باسم امنحوتب الرابع ، ولكنه لم يكد يطل العام السادس من حكمه (او حوالي نهاية وصايته المشتركة مع والده على العرش) ، حتى كان قد غير اسمه من امنحوتب ، وهو يعني « آمون مسرور » الى اخناتون ، اي « مستخدم لآتون » . وفي ذلك العام بالذات ابحر نزولاً مع النيل حتى بلغ موقعاً حدده لمدينة اختاتون ، « افق اتون » ، التي قرر ان يجعلها عاصمة لملكه ، وهي تعرف الآن باسم تل العمرنة . ولما كانت تلك المنطقة ارضاً قفراء ، فقد ادعى انها كانت تخص إلهه منذ بدء الزمن ، واقام حولها لوحات تعين حدودها . ونقش على هذه اللوحات قسماً بأن لا يقوم ابداً على تخطي هذه الحدود كما رسمت : فقد اطلق احد اتباعه فيما بعد صلاة قال فيهـــا : « ليكن مقدراً له [اي الملك] ان يقيم هنا الى ان تصبح الاوزة سوداء والغراب ابيض ، والى ان تنهض الجبال لتنصرف ، ويجري الماء صعوداً في النهر » . وما ان اقبل العام الثامن من عهده ، حتى كان الملك وبلاطه وحاشيته قـــد استقروا في العاصمة الجديدة ، وقد اتينا على وصفها باختصار في الفصل الثالث ، حيث اقام الملك لوحات تذكارية جديدة تكرر تأكيد قسمه من انه لن يتجاوز حدودها مطلقاً .

كان قد سبق وتزوج من نفرتيتي ، الجميلة ، وهي فتاة مجهولة السلف . ومن بين التخمينات الكثيرة بصدد نشأتها الاولى ، تخمين مقبول اكثر من سواه يقول بأنها ابنة خـــال

اخناتون آي ، الذي يحتمل انه كان احد اخوة الملكة تي ، والذي كان بالتأكيد قوة وراء العرش خلال حكم اخناتون والملوك الذين خلفوه . بل انه هو نفسه ، ونعني آي ، قد حكم البلاد فترة قصيرة كآخر ملك في السلالة الثامنة عشرة . انجبت نفرتيتي ست بنات ، ماتت واحدة منهن صغيرة وتزوجت اثنتان فيما بعد خلفي اخناتون المباشرين ، سمنخقر وتوت عنخ آمون ، وهما ابنا امنحوتب الثالث كما يظن ، مع انه اذا كانت للثاني اية صلة نسب به ، فمن الاكثر احتمالاً انه كان حفيده (الا اذا اعتمدنا تسلسلاً تاريخياً مطاطاً جداً) . ومع ان نفرتيتي الجميلة قد تميزت وابرزت في السجلات المكتوبة والمصورة اكثر من اية ملكة اخرى قبلها ، بما في ذلك الملكة تي ، فانها على ما يظهر خسرت الحظوة وسقطت من الاعتبار في السنة الثانية عشرة من عهـــد اخناتون ، فأبعدت الى القصر الذي كان قد بني لها في الضاحية الشمالية لتل العمرنة ، وهنالك بعض الدلائل على اقامتها في ذلك القصر ، ولكن ليس هناك اي دليل على مصيرها في النهاية .

اما منزلتها في قلب اخناتون وعاطفته ، بالاضافة الى كثير من الالقاب والنعوت التي كانت تحملها ، فيبدو انهــــا تحولت اغتصاباً الى صهرها سمنخقر الذي اختفى من التاريخ في السنة الثالثة لحكمه ، هذا الحكم الذي مارس شطراً منه ، او لعله مارسه كله ، كوصي مشترك على العرش . وقد توفي اخناتون بعد ان تولى العرش سبعة عشر عاماً . اما كيفية موته والمكان

الذي دفن فيه فغير معروفين ، بالرغم من ان التكهنات كثيرة حول البقايا التي يظهر انها دفنت بسرعة مع بعض فضلات من الحلي والزخارف الملكية في القبر الخـــامس والخمسين بوادي الملوك .

هنالك اعتقاد بأن هجرة اخناتون من طيبة قد تكون حدثت بالاتفاق مع كهنة آمون الذين وجدوا انـّه من الافضل ولا ريب ان يكون بعيداً عنهم . ومهما تكن الحقائق – وهي حتماً مجهولة – فان من الواضح ان طيبـــة ، مع من فيها من الاشياع والاتباع المتشبثين بقوة بالايمان القديم ، لم تكن مطلقاً المكان الصالح لاطلاق ثورة دينية فيه . وقـــد تبع الملك الى عاصمته الجديدة عدد ضئيل من الممثلين عن العائلات الطيبية النافذة . ولكن معظم موظفيه الرسميين كانوا محدثين – جنوداً ، وموظفي قصر ، وكتبة ، ومهندسين معماريين ، وليس بينهم كاهن واحد . وقد تباهى هؤلاء وفاخروا باصولهم المغمورة في الاضرحة التي منحت لهم في مرتفعات تل العمرنة الجبلية . يقول واحد منهم ، « انا رجل وضيع المـــولد ، ولكن الملك ايـّدني ورسخني ، واتاح لي معاشرة الامراء ومخالطة رفاقهم ، واعطاني المؤن والزاد كل يوم – انا الذي كنت استجدي الخبز ! » وهناك آخر ، هو احد كهنة القرص ، يرفع الصلاة الى اخناتون على انه «الاله الذي كونني ، واحتضنني ، واطعمني ، وزودني بالخيرات . . انت الذي اتيت بي الى الطليعة من المؤخرة فجعلتني قوياً مقتدراً

بعد ان كنت لا قيمة لي ولا حساب » . وسوف يظل غير مؤكد على الدوام ما اذا كان امثال هؤلاء الرجال قد منحوا ولاءهم للملك ولأتون عن قناعة ام عن وصولية وفائدة شخصية . على ان بعضهم حل به الخزي والهوان قبل ان ينقضي عهد اخناتون القصير . وقلة منهم ظلت على مـــا يظهر مخلصة موالية حتى النهاية . وقلائل جداً هم الذين ظلوا على قيد الحياة بعد الملك ليلعبوا دوراً في تاريخ طيبة التالي .

لم يستطع اخناتون تثبيت إلهه وتوطيده بدون صراع مرير. فبالرغم من انه شيد هياكل ومحاريب لأتون في طيبة خلال السنوات الاولى من حكمه ، فان عبادة الآلهة القدماء ظلت مستمرة . ولكنه بعد ان انتقــــل الى عاصمته ، اخذ يرسل عساكره ومؤيديه الى جميع الانحاء في محاولة لاستئصال شأفة الدين القديم وإبادة كل معالمه وآثاره . ومع انهم جابوا البلاد من ممفيس حتى ابعد مجاهل النوبة ، فانهم نفثوا سمومهم واطلقوا حقدهم بصورة رئيسية على طيبة وآمون . لقد اقفلت المعابد ، وحطمت تماثيل عباداتها ، وحولت ثرواتها الى العاصمة الجديدة والاله الجديد . وانطلق زبانية الملك العتاة يعيثون فساداً في مدينة الاموات الطيبية ، فيقتحمون الاضرحة الغنية ليهشموا كل اشارة وتلميح فيها الى الآلهة القديمة (وربما كانوا ينهبونها في طريقهم) . وكانت الاسماء الخـــاصة — وحتى الاسماء الملكية منها — المركبة مع اسم آمون تطمس وتمحى محواً شاملاً تاماً .

ولا ريب في ان المدينة قد عانت رعباً عظيماً ، ولكن ليس هناك اي دليل على ان رعاع اخناتون قد لاقوا اية مقاومة . فلا بد ان اتباع الدين القديم المخلصين قد اختاروا بكل بساطة ان يختفوا ويختبئوا . ولعل الدليل على ان الحال كانت كذلك بالنسبة لعائلات الكهنة والموظفين الرسميين ، يبدو واضحاً من النشاط والسرعة البالغين اللذين عـــادت بهما العبادة القديمة الى سابق عهدها فور اختفاء اخناتون عن المسرح . اما الشعب فقد كان على ما يظهر غير مبال ، ولم يتأثر قليلاً او كثيراً بالعاصفة التي كانت ثائرة فوق رأسه . وفي تل العمرنة بالذات ظل عمال مدينة الاموات متعلقين بتماويذهم التي تمثل الالهين الطيبيين بيس وتوريت ، وعين هورس الحارسة .

بالنظر لورع المصريين وتقاهم ومحافظتهم العنيدة على التقاليد ، فانه لمن العجب ان تكون ثورة اخناتون قد نجحت ولو مؤقتاً . ولكن هنالك دلائل على انه قد يكون حصل على التأييد من بعض عناصر الجيش التي سارعت لانتهـــاز فرصتها وفرض سيطرتها على الحكومة . ومن الممكن ان يكون زبانيته محطمو الصور والتماثيل الدينية قد جُنّدوا من حشد الجنود والمسخرين الاجانب للخدمة العسكرية الذين كانوا يعانون البطالة في سنوات السلم الطويلة . والراجح ان الاحترام المتأصل العميق للملكية الإلهية التكريس والسيامة قد ساعد على عدم قيام ثورة ضـــد اخناتون . ومن الممكن ايضاً ، كما اقترح البعض ، ان يكون قد

افزع المصريين عامل شؤم طبيعي — مجاعة ، او وباء ، او زلزال ارضي — ودفعهم الى الشك بأن الآلهة القدامى قد هجروهم ، وبالتالي الى الاذعان والتسليم بيأس لمشيئة الملك . ان اي واحد من هذه العوامل ، او كلها ، قـــد يكون سبب الاستكانة والخنوع . وكل ما نستطيع قوله بالتأكيد ان اخناتون استطاع ان يبقى على العرش سبعة عشر عاماً كاملة .

كانت تلك الاعوام على ما يبدو سني انحلال اداري وضائقة اقتصادية . وباستطاعة المرء ولا ريب ان يتصور ان انهيار الديانة التقليدية وسقوطها قد افقرا اعداداً ضخمة من الناس الذين كانوا يعتمدون على المعابد في معيشتهم . وبالرغم من ان الفلاحين ظلوا يعملون في حقول الآلهة السابقين ولكن لمصلحة الملك وأتون ، وان عدداً كبيراً من الفنانين والصناع والعمال قد وجدوا اشغالاً لهم في تل العمرنة ، وفي بناء المحاريب التي كان يشيدها اخناتون للقرص في امكنة اخرى بمصر ، فانه كان من العسير جـــداً استيعاب ذلك الجهاز الضخم من الموظفين الذين كانوا يعملون سابقاً بصورة مباشرة او غير مباشرة في خدمة المعابد .

ان ما نعرفه عن حالة مصر خلال الثورة الدينية ، مستقى من الوثائق القليلة المتفرقة وغير الخالية من الغرض التي وضعتها الثورة المعاكسة . الا ان القرائن الاثرية المعاصرة تشير الى ان حالة البلاد العامة آنذاك لم تكن على ما يرام . فبقايا اخناتون واطلالها توحي بانها كانت مدينة معدة للقتال ، او معسكر

اعتقال فخم مترف . فعلى امتداد الاصقاع الشاهقة التي تحيط بالمدينة والتي كانت تشكل تحصيناتها الطبيعية ، ما يزال يشاهد حتى الآن الممر الذي طرق تحت اقدام الخفراء الذين كانوا يقومون على حراسة الملك واتباعه . وفي الاسفل ، عند طرف السهل الصحراوي ، كان يقوم خط طويل من الثكنات للجنود المشاة والمركبات الحربية توفيراً للمزيد من الحماية للمدينة ، وان المرء ليستطيع الظن بان المراكب كانت تطوف النهر في دوريات خفرية لتمنع اي اقتراب الى المدينة من الغرب . وبالرغم من ان قَسَمَ اخناتون بان لا يتجاوز الحدود المبينة بلوحاته التحديدية كان يمكن ان يكون بجرد عبارة قانونية استعملت لتعيين الحقوق في الاملاك ، فانه ليس هناك اي تلميح الى انه قد غادر عاصمته ابداً ، منذ ان جعل مكان اقامته هناك .

ويبدو انه قد عاش في عزلة تامة عن الحقيقة والواقع . فاعتداءات الحثيين وتجاوزاتهم في شمال سوريا، وتوسلات حلفاء مصر الآسيويين واستغاثاتهم اللاحقة لم تؤثر فيه مطلقاً على ما يظهر ، فبدأت الامبراطورية الشرقية تفلت من بين يديه وتنسل بالتدريج ، حتى اذا ما حلّ وقت موته ، كانت سطوة الجيش الفرعوني التي بذلت جهود قاسية لفرضها لا تمتد الى ابعد من فلسطين الجنوبية . وقد اعتبر بعض العلماء موقف اخناتون حيال آسيا دليلاً على المسالمة الصادقة الناشئة عن اقتناع تام . ولكنه كان على الارجح نتيجة قصور ذاتي وتكاسل مستمر — ومتاعب جمة بين يديه .

ثم ان المهمة التي اخذها على عاتقه لم تكن سهلة ، ونعني مهمـــة استئصال شأفة التقاليد القديمة التي تعود الى ماض سحيق لا تعيه الذاكرة ، وذلك في فترة حياة قصيرة .

بعد هذا الفاصل الزمني الكبير ، نجد ان شخصية اخناتون الحقيقية تقاوم التحليل . فان احدى مدارس الفكر المعاصرة ترى فيه النبي الملهم للاله الواحد ، اله المحبة والسلام الشاملين . وفي بعض الكنائس المتحررة ، تروى قصته باحترام ووقار حتى لكأنه تقريباً البشير السابق للمسيح . وثمة مدرسة فكرية اخرى دارجـــة جداً في الوقت الحاضر ، تنظر اليه باشمئزاز كفاسد منحط ، وفي احسن الحالات كرجل ضعيف واهن عديم الاثر . اما الحقيقة على الارجح ، فتقع بين المذهبين المتطرفين المتناقضين.

تنم تماثيـــل الملك وصوره بالتأكيد عن انحطاط طبيعي من النوع الذي يرافقه غالباً ذهن متوقد لامع ، ولو انه غير متزن . وهناك قليل شك في ان اخناتون كان يتمتع بنظر ثاقب وخيال واسع . فقد كان للدين التوحيدي الذي سعى الى فرضه على مصر عظمة البساطة ، بعكس المذهب التقليدي المعقد المتشابك . اجل ، كان الملك يتمتع بالخيال ، وبالشجاعة ايضاً كما قال السير ألان غاردنر . ولكن خياله كان محدوداً ، وشجاعته كانت جرأة التعصب العميـــاء . فأتون الذي تنتهي اشعاعاته بأيدٍ بيضاء مباركة ، كان شبه بشري (ذلك ان قلائل هم الذين أعطـــوا القدرة على ادراك الالوهية بشكل بعيد عن الشبه بهم) ، ولكنه

كان مع ذلك بعيداً مبهماً مجهول الشخصية ، ونائياً عن الجنس البشري اكثر بكثير مما كان الآلهة القدماء بالذات . وقد ظلت المشاركة الشعبية في العبادة موضوعاً غير وارد ولا مجال للبحث فيه . فان الملك كان الوسيط الاوحد بين الاله وبين الانسان . كان هو ابن أتون ، تماماً كما كان اسلافه من قبله ابناء آمون – رع . بل اكثر من ذلك : ففي حين ان والده كان قد نصب نفسه إلهاً ، الا ان اخناتون ذهب الى ابعد من هذا – كان هو الاله الاوحد . فهو وافراد عائلته فقط كانوا يصورون وهم يتلقون هبة الحياة من أتون ، واتباعه كانوا يرفعون الصلوات اليه والى القرص سواء بسواء وعلى منوال واحد . كان الملك يقدم للاله الشكلَ الرمزي للإلهة معات ، وشكل معات القديمة بالذات ، ليس كحقيقة واقعية ، بل كنظام مقدس ، الا انه الآن نظام من تدبير الملك وابتكاره الخاص ، وليس ذلك النظام الذي اتبعته وتناقلته سلسلة طويلة من الملوك الاسلاف . ولعل من اعظم اخطاء اخناتون في الرأي والتقدير كان ، كما لاحظ بيت منذ زمن بعيد ، في التفكير بأنه يستطيع ان يوازن بين عشرين سنة من الايمان التوحيدي بألفي سنة من التقاليد والعرف .

كان يمكن التوصل الى تحقيق مثل هذه الموازنة لو ان الديانة الجديدة اعطت حقاً شيئاً جديداً بالفعل ، ولكنها هدمت دون ان تبني . وكما انهـــا لم تمط الشعب حتى المشاركة في الاسرار والقدسيات ، فانها كذلك لم تقدم اي ارشاد روحي ، ولا اي

قاعدة للسلوك . وفوق كل شيء لم تهب سوى تعزية وسلوى ضئيلتين . وعلى الرغم من ان الاضرحة ظلت تبنى خلال فترة تل العمرنة، والجثث كانت تحنط وتوارى مثواها الاخير بالمراسم اللائقة والتقليدية الى حـــد ما ، فان اوزيريس كقاض ومخلص معاً ، قد اكتنفه الظلام كسواه من الآلهة الآخرين . ومع انه لم يلق على ما يبدو الكره الانتقامي الرسمي الذي لقيه آمون ، فانه بوجه عام قد عانى مهانة الاهمال والكتمان . غيرَ ان الموتى كانوا احياناً يوعدون بالوجود الازلي بانعام من الملك، وبان يناموا نومة الموت في مدافنهم اثناء الليل ، ولكن ليوقظوا كل صباح كي يتنسموا الحياة التي تهبها لهم اشعاعات اتون المحيية . وكان هؤلاء المحظوظون الذين اكرموا بالدفن في اضرحة تل العمرنة الصخرية يستطيعون ان ينطلقوا من قبورهم اثناء النهار ليقوموا بخدمة القرص في هيكله ، او ليسكنوا ، غـــير منظورين ، الفيلات والحدائق الجميلة التي كانوا قد اقاموها في اخناتون ، فيظلون هناك حتى يدعوهم غروب الشمس للعودة الى منازلهم الابدية . لم يعد هنالك آنذاك سوى طريق واحد الى النعيم ، وكان هذا الطريق مغلقاً الا لاتباع اتون ، والصلاح الوحيد وجزاؤه الرئيسي كانا ينحصران في التعبد الدائم للاله — الملك .

سبق وابدينا في سياق هذه الدراسة انه كان هنالك دائماً ، خلف العقيدة الدينية المصرية ، فكرة توحيدية مبهمة تنطوي على ان الشمس هي خالقة كل الاشياء . فقبل زمن اخناتون ،

دخل القرص مجمع آلهة الامة واستقبل بترحاب واكرام على انه الشكل المرئي للشمس التي تعطي الحياة . وهناك اعتقاد بان اخناتون كان قد اخذ الوحي والالهام من الشرق حيث شعوب كثيرة تحب الشمس الى درجة العبادة ، ولذلك فقد اختار كإله اوحد له ، ألوهية يمكن ان تكون مقبولة ليس فقط لدى شعوب البلدان الموالية في آسيا ، وانما ايضاً لدى المواطنين المصريين المعاصرين له ، الذين كان الاجانب قد تغلغلوا فيهم وتزاوجوا معهم . وبما ان الديانة التقليدية يمكن ان تكون قد تأثرت الى حد ما بالاتصال مع عالم عاش وازدهر في ظل آلهة غير آلهة مصر ، فقد لا يكون من الضرورة الذهاب بعيداً في البحث عن المنبع الذي استقى منه الملك الوحي والالهام . فان رؤياه لاله أوحد كانت على ما يظهر نتيجة نمو طبيعي لديانة الشمس السحيقة القدم التي نشأة في هليوبوليس . وقد تسربت هذه الديانة منذ ابعد الازمنة الى النظريات اللاهوتية المصرية الاخرى وتغلغلت فيها حتى بلغت قوة لا يستهان بها في عهد السلالة الثامنة عشرة . ولقد كان المعبد الذي شيده اخناتون للقرص في تل العمرنة مشابهاً جـــداً للمعابد المغمورة بضياء الشمس التي بناها ملوك السلالة الخامسة اكراماً وتمجيداً لرع .

ان النشيد الجميل الذي تردد غالباً ، والذي يظن بأن الفرعون الشاب نفسه كان قد نظمه حمداً وتسبيحاً لأتون ، كان له سوابق مماثلة ، ولكن اقل جمالاً وروعة ، في مدح آمون —

رع وتمجيده . وقد اتخذ ذلك النشيد كدليل على ان إله اخناتون كان إلهاً ذا اخوة عالمية . وهو في الواقع لا يقول اكثر من ان الشمس تمطي الحياة الانسان والحيوان في كل مكان . وليس هناك اي دليـــل على ان اخناتون قد أبهِ او ابدى اهتماماً للآسيويين الذين كانوا يلجؤون في استجداء انعامه وتأييده ومساعدته لهم ضد الحثيين اكثر مما كان يأبه او يهتم بشعبه على وجه العموم — وهذا شيء لم يكن حاصلاً على الاطـــلاق فيما يظهر .

لم يجلب الدين الجديد معه اي اصلاح اداري ، ولا اي تخفيف او تلطيف لحالة الجماهير . بل العكس هو الصحيح ، اذا استطاع المرء ان يحكم من خلال الوثائق الطفيفة التي وضعت في العهود التالية ، فقد نتج عنـــه تعطل آلة الحكم وانتشار الازمات والاوقات العصيبة عموماً . ولقد كان الملك منعزلاً مترفعاً عن الحياة العامة تماما كأي واحد من اسلافه الملوك السابقين . ومع ان المنحـوتات والتماثيل والرسوم النافرة تصور بوضوح جبلته وغرائزه الطبيعية ، كما تصور شئون الحياة الداخلية الحميمة للعائلة المالكة بمنتهى الصراحة والوقاحة المخجلة ، فان احداً على الاطلاق لم يجرؤ على تجاوز حدود الدالة ورفع الكلفة مع الملك وعائلته . فافراد الحاشية كانوا ينحنون ويطأطئون الهامات احتراماً اكثر من اي وقت مضى ، وظلت عامة الناس تقبّل التراب امام عاهل يبدو وكأن لا شك عنده مطلقاً في انه هو

وإلهه كانا واحداً . اما الترف والتبذير في القصر فلم يكونا اقل مما كانا عليه في السابق ، وقد ظلا مستمرين على حساب الشعب .

بات القصر بؤرة للمزيد من المكائــــد والدسائس السوداء تتصاعد منها رائحة السوس والجرة العفن والانحلال . ويتضح الهمود والفتور بصورة عامة في فن تل العمرنة . فشأن الدين الجديد، سعى الفن الى التحرر من قيود النظم التقليدية التي كانت متبعة في الماضي . فغدا مشرقاً متلوناً يطفح بضياء الشمس وبالزهور ، وبالمشاهد ذات السمة الخاصة التي يتميز تنفيذها بالحيوية وغالباً بالمرح والفكاهة . ولكن مقابل حمى السحر والفتنة ، كان معظم ذلك الفن ينم عن التدهور والانحطاط في كل خط من خطوطه . ولا يتمالك المرء عن الشك بأن بعض الفنانين آنذاك كانوا يلوكون السنتهم في اوداجهم صفاقة ووقاحة . فقد عثر بين خرائب تل العمرنة وانقاضها على عدد من المنحوتات الخفيفة تمثل مجموعات من عائلات السعادين المتوددة المتحابة لا يمكن للمرء ان يخطىء انها صور ممسوخة مضحكة (كاريكاتور) للعائلة المالكة .

يتسم فنُّ تل العمرنة بميزة خاصة تستهوينا نحن الذين نعيش في هذا العصر ، هي حريته التعبيرية الغالبة . ومع أن بعض خطوط تأثير هذه الحرية عاشت الى بداية السلالة الثامنة عشرة، فان ردة الفعل بالعودة الى النظم والمناهج التقليدية لم تلبث ان اثبتت وجودها . الا ان النتيجة لم تكن سارة في الشطر

الاعظم . ذلك انه في العهود السابقة لفترة تل العمرنة ، كانت اجمل الاعمال الفنية بين تلك التي اتبعت القواعد القديمة العهد ، مخضبة مشربة بالحياة – اي ان الموضوع، شخصاً كان ام حركة، كان يلتقط في لحظة توقف سريعة . ولكن القاعدة اصبحت اكثر فاكثر تصحفاً واتباعاً لنمط وتيري في الازمنة التي اعقبت فترة الخروج العظيم . صحيح ان بعض اعمال النحت التي نفذت في مطلع العهد الرمسيسي ، وخاصة الاعمال الملكية ، كانت جميلة جداً ، وان بعض الآثار المعمارية والبنائية تكشفت عن عظمة وروعة وابداع ، ولكن الفن ما لبث ان راح يخشوشن رويداً رويداً وينغمس في طور الآلية والرتابة والدارج التافه . فالمشاهد الحية من مظاهر الحيـــاة اليومية التي كانت تزين الاضرحة الخاصة فيما مضى اخذت تزول بالتدريج لتحل محلها الرسوم السحرية والكتابات المأخوذة من النصوص الدينية لتساعد الميت في بحثه المحفوف بالاخطار عن الخلود . والتلقائية البارعة والخلق والابتكار ، مما كان يحتمل في السابق داخل الاطار الفني التقليدي ، كل ذلك اختفى تماماً او كاد . فقد اثبتت الحيوية القديمة نفسها في بعض الاحيان القليلة ، ولكن الفن على الاجمال اصبح تعبيراً عن حضارة متعبة مرهقة فاترة الهمة والنشاط .

لم يؤدِّ اختفاء اخناتون عن المسرح، كما قيل في بعض الاحيان، الى التخلص الفوري من انتقام اتباع آمون ، وهـــدم مدينة

أتون بسرعة واختصار . فلو انه اتيح لسمنخقر ان يحكم ويتولى السلطة بنفسه وعلى هواه ، لاستطاع ان يتصالح مع طيبة ويسالمها ، ولكن يظهر ان الملك التالي ، توت عنخ آمون (توت عنخ اتون بالولادة) لم يهجر العاصمة الجديدة الا في العام الخامس من حكمه القصير . ومع ذلك ، فحتى آنذاك تركت البيوت والقصور على حالها : فالفيلات اغلقت بدقة وكأن اصحابها كانوا يتوقعون ان يغيبوا فترة قصيرة فقط . ومعبد اتون لم يهدم ولم تمحق آثاره ، كما يقال غالباً ، في عهد حورمحب الذي دمر الهيكل العظيم الذي كان قد شيده اخناتون للقرص في الكرنك. ومدينة اخناتون لم تصبح لعنة يعرض عنها جميع الناس ويرهبونها الا بالتدريج . وبعد ذلك ، اقدم رمسيس الثاني بلا تردد على اقتلاع الحجارة التي كانت تحمل رسوم الملك الملحد وإلهه من خراب المدينة ، ليستخدمها في رصف الاساسات واقامة الابراج للهيكل الذي بناه لآمون في هرموبوليس على مسافة قريبة من المدينة الملعونة عبر النهر .

كان يمكن ان يهمل التاريخ ذكر توت عنخ آمون ويضرب صفحاً عنه ، لولا انه نتيجة لاكتشاف ضريحه في طيبة ، بتجهيزاته الملكية الرائعة المذهلة سليمة كاملة ، ربما أصبح اليوم معروفاً اكثر من اي حاكم قديم آخر . ومعنى اسمه ، كما قد يكون تمنّاه هو نفسه ، «يعيش الى الابد» . كان مجرد طفل عندما تولى العرش ، ولم يكن قد تجاوز الثامنة عشرة

عندما وافته المنية بعد حكم قصير لم يدم اكثر من عشر سنوات .
ولعل هناك مغزى ما في ان يكون شعور الحقد الذي ارتفع وطغى تدريجياً ضد هرطقة تل العمرنة والاسرة التي اصدرتها ونشرتها ، قد سمح بأن يتولى توت عنخ آمون العرش اطلاقاً . بل وأكثر من ذلك ، فقد حكم تحت وصاية آي ، الذي يظن انه كان خال اخناتون ، والذي كان احد اعمدة المذهب الالحادي وركناً من اركانه ، ثم خلف آي العجوز بالذات (كما اشرنا سابقاً) الملك الفتى كحاكم للقطرين فترة وجيزة .

كان آي وتوت عنخ آمون كلاهما قد نقضا ايمانهما الالحادي واعلنا ارتدادهما الى الدين القديم . حتى انهما كانا يشددان في التأكيد على استقامة الرأي وصحة المعتقد ، في كل رسم ومشهد مصور ، وكل كتابة ونص ، اثناء حكمهما . فقد سجل توت عنخ آمون على لوحة تذكارية اقامها في الكرنك ، واغتصبها حورمحب فيما بعد ، انه قد طرد الخداع والختل من القطرين واعاد تثبيت معات «كما كانت في اول عهدها» . ويضيف انه وجد المعابد مهجورة وقد نمت الاعشاب والنباتات فيها ، وتحولت «قاعاتها الى ممرات قدم» . اما الآلهة ، فقد هربوا وأصمّوا آذانهم عن توسلات المتضرعين . كل هذا ، غيّره الملك الصغير . فقد جدد المعابد ونظفها وصقلها ، واستبدل تماثيل العبادة وصورها المفقودة بتماثيل من «الذهب الثمين الآتي من البلاد العالية» ، واعاد تثبيت الكهنوت مدققاً في اختيار الرجال

« من بين أعيان مدنهم » لمهمة الخدمة المقدسة . وضاعف مرتين ، وثلاثاً ، واربعاً ، هكذا هو ادعى ، ثروات الهياكل ، وحرص بصورة خاصة على البحث في قلبه عن افانين الولاء والاخلاص لآمون . وقد ذهب في تقواه وورعه وجوده وكرمه الى « ابعد واكثر مما كان قد عمل منذ اول زمن اسلافه » .

ولكن ارتداده لم يجده نفعاً . فقد ادانت الاجيال التالية توت عنخ آمون ووصيه وخلفه ، آي ، وادخلتهما طيّ الكتمان مــــع اخناتون الملحد . ان السلالة الثامنة عشرة تنتهي باسم امنحوتب الثالث . وهنا ايضاً ينتهي تاريخ طيبة كعاصمة . ومع انها ظلت اسمياً مقر الحكام الاوائل من السلالة التاسعة عشرة ، فان نشاطاتهم كانت متركزة بصورة رئيسية في مصر السفلى ، الى ان جاء رمسيس الثاني ، ثالث ملوك السلالة ، فأقام « عرشه الجميل ، على النمط الطيبي » في الدلتا .

كان اخناتون وإلهه الاوحد وكأنهما لم يكونا ابداً . ولكن رغم ان طيبة اثرت واغتنت اكثر من اي وقت آخر من قبل ، فان المدينـــة ومصر على وجه الاجمال لم تشفيا ابداً من صدمة الاصلاح الديني . فان طيبـــة لم تعد مركزاً عالمياً ، وعاصمة امبراطورية ، ومصر لم تستعد قط سيادتها في العالم القديم . لقد ازدهرت المدينة كمحراب وحرم ، فكانت طوال قرون تالية مكاناً للحج ، وموضعاً لان يدفن فيه الناس . يقول كاتب من عهد السلالة التاسعة عشرة ، « ان المرء يصل الى الميناء ، في طيبة .

والكافر العاق ان يدخل مكان الحق . يا لسعادة حظ ذلك الذي يحط هناك — فهو سوف يصبح كائناً متجلياً » .

لم يتمتع الملك آي بالحكم ، وهو الذي انتظر فرصته بصبر طويل ، الا لفترة قصيرة تقل عن خمس سنوات . وقد خلفه حورمحب الذي اقام حكماً يوازي الدكتاتورية العسكرية . وكان حورمحب واحداً من قادة الجيش في عهد اخناتون. وبعد اعتلائه العرش ، ادعى انه كان قد قام « بمهمة نائب وصي على القطرين طوال عدة أعوام » ، وهنالك ما يحمل على الاعتقاد بأنه تولى الاشراف على الادارة الحكومية ، في الشمال على الاقل ، خلال عهد اخناتون وخلفائه المستضعفين. ومع ان اسم حورمحب يظهر في القوائم القديمة على انه آخر ملوك السلالة الثامنة عشرة ، الا ان بعض المؤرخين المعاصرين يجعلونه اول حاكم في السلالة التاسعة عشرة . وفي الواقع ، على كل حال ، انه لما لم يكن منتسباً الى الفراعنة الذين سبقوه ولا الى الفراعنة الذين تبعوه بصلة الدم او الزواج ، لذلك فلعله من الافضل اعتبار حكمه فترة انتقال بين حكم وآخر . ولقد عمل خلال الثلاثين عاماً التي قضاهـا على العرش ، الكثير من اجل توطيد النظام في بلاد مضطربة ، ساعياً بلا هوادة ولا رحمة الى محو كل اثر من آثار عبادة أتون وكل ذكر للملوك الذين ارتقى في عهدهم الى أعلى درجات السلطة — اخناتون ، وسمنخقر ، وتوت عنخ آمون ، وآي .

خلف حورمحب في الحكم حوالي عام ١٣٢٠ قائد كان هو قد عينه وزيراً له . كان ذلك رمسيس الاول ، مؤسس السلالة التاسعة عشرة ، وقد حكم لمدة قصيرة فقط بسبب تقدمه في السن منذ ان تولى العرش . وفي عهود اعظم خلفائه ، سيتي الاول ، ورمسيس الثاني ، ورمسيس الثالث ، استطاعت مصر ان تعيد فرض سلطانها ولكن لفترة قصيرة زالت بسرعة ، على جزء من دائرة نفوذها السابقة في آسيا . وقد ظل الذهب يتدفق الى البلاد من النوبة . وغدت الابنية والعمارات اكبر واضخم ، ولعل ابرز تلك الابنية التي ما تزال قائمة الآن في طيبة كانت من صنع الرمسيسيين الاوائل ، ذلك ان آمون كان ما يزال ملك الآلهة ، ومدينته المقدسة نمت وازدادت جلالاً وبهاء . ولكن البلاد كانت تغلي تبرماً وعدم رضى. لم تعد ابداً، باستثناء فترة وجيزة ، موحدة وحدة كاملة. والاعداء الاجانب تزايدوا وتضاعفوا . وعانت مصر المضايقة والضغط من الشرق والغرب ، واخذت شعوب جديدة من وراء البحر الابيض المتوسط تستفزها وتضيق عليها الخناق . ونضبت الخزانة وقد استنزفتها الحروب المتواصلة . ومع تقدم السلالتين التاسعة عشرة والعشرين ومرورها المتثاقل ، بدأ نظام الادارة الداخلية يكبو ويتعثر . فكانت اضرابات العمال الجياع ، والثورات المتقطعة ، والدسائس والمؤامرات في القصر ، وسرقة الاضرحة على نطاق عظيم — حتى ان الملوك الاموات سلبوا وجردوا من كنوزهم . وانتكس الدين كلية تقريباً الى مستوى الخرافة والخزعبلات .

وتحول الشعب اليائس الى السحر ، ولجأ الحكام الضعفاء للمملكة الجديدة المنهارة الى استنزال الوحي من آمون لدعم قوانينهم وتنفيذها .

في عهد السلالة الحادية والعشرين ، استطاع اولئك الذين عرفوا بالكهنة - الملوك ان يوطدوا موقتاً حكم الاله على طيبة ، والى حدّ ما على مصر . فمنذ زمن رمسيس الحادي عشر ، تمكن قائد يدعى هريهور من التوصل الى منصب الكاهن الاعلى في طيبة ، ثم لم يلبث ان تطاول وادعى لنفسه السلطة الملكية منتحلاً القاب الملوك ، بالرغم من ان الفرعون الالعوبة ظل متولياً العرش بالاسم . ولم يكن هريهور كاهناً اعلى فحسب ، بل كان ايضاً نائب الملك على بلاد النوبة ووزير الجنوب ، وهكذا كان يتقاسم الحكم الفعلي في مصر مع وزير الشمال ، وهو رجل يدعى سمندس ، الذي اصبح فيما بعد مؤسس السلالة الحادية والعشرين . وقد حكمت هذه السلالة الضعيفة الواهنة من تانيس . وكان حكامها يرسلون ابناءهم الاكبر سناً الى طيبة ليكونوا الكهنة - الملوك فيها ، الا ان الحكم المنقسم لم يلبث ان اثبت عدم جدواه . وقامت في طيبة فئات منافسة لم يكن في الامكان التغلب عليها وايقافها عند حدها حتى باستخدام الوحي الالهي . وجاءت السلالة الثانية والعشرون لتضع مصر تحت حكم الليبيين الذين انتهزوا فرصة الصراع الداخلي ليثبتوا دعائمهم في هرقليوبوليس ، ثم ليستولوا بمساعدة الجيش على السلطة في

القطرين . واعقبت هؤلاء سلالة من الاحباش ، واخيراً ، وبعد النهضة القصيرة الرائعة في القرنين السابع والسادس تحت حكم فراعنة وطنيين اقيم في مدينة سايس بالدلتــــا ، انتقل الحكم الى الايدي الاجنبية .

كان رمسيس الحادي عشر آخر الملوك الذين دفنوا في طيبة. وبالرغم من ان الملوك الذين جاءوا بعده ظلوا يقدمون ولاءهم لآمون ، فان المدينة لم تعد ابداً مقراً ملكياً ، وما لبثت ان انهارت ثروتها ونفوذها تدريجياً مع الحضارة السائرة في طريق الانحلال والفناء. ثم جاءت سلسلة من الفاتحين فجردتها من كنوزها. واستحالت هياكلها انقاضاً بالتدريج . وعندما امر اغسطس قيصر ، آخر حاكم اضاف على معبد آمون – رع العظيم ، نقشَ رسمه في الكرنك على انه يقدم تمثال معات لآمون وبتاح وهاتور ، كان ذلك ترتيباً غريباً قام بعرضه في هيكل مهجور مهمل رث الحال ، وذلك لاظهار جبروت روما والتأثير على اولئك الطيبيين الذين ثاروا دوماً جدول ضد جباته للضرائب .

بعد انقضاء قرون قليلة ، توافد الرهبان المسيحيون على الصوامع الطيبية المقدسة حتى عجت بهــــم . وقطن النساك المتزهدون منهم في اضرحة النبلاء السابقين . واقام المغيرون المحتلون اكواخاً من اللبن لهم تؤويهم داخل نطاقات المعابد . وتحولت المحاريب القديمة الى كنائس . وازيلت رسوم الآلهة الاصنام والملوك المقدسين او غطيت بالطين الذي طبعت فوقه رسوم غير مصقولة للقديسين المسيحيين .

استمر هدم طيبة وتخريبها حتى زمننا الحالي . فكانت الحجارة تنقل منها لاعادة استخدامها في اعمال البناء المحلية في امكنة اخرى . وبعض اضرحتها المجردة من كنوزها ما تزال تؤوي الفلاحين ومواشيهم . والحفارون المشترون مـــا زالوا ينقبون عن الكنوز ، فيهدمون اكثر مما يجدون . وفي حين ان الاثريين الذين كانت تعوزهم التجهيزات والعدد الصالحة في الماضي قد اسهموا في التخريب بحفرياتهم الطائشة ، فان علماء الآثار المعاصرين كانوا يعملون بوحي من الضمير وسلامة الطوية . فهم ينشدون المعرفة عوضاً عن المغانم ، وكثير من المصريين الذين كانوا لا يبالون في السابق ، بدأوا يقدرون قيمة آثار ماضيهم العظيم ويحرصون عليها . فالترميم والصيانة هما الآن موضع التشديد والتأكيد .

ولكن اليقظة جاءت متأخرة قروناً كثيرة . فالعـــلماء المعاصرون الذين يسعون لرفع انقاض طيبة وترميمها لم يتوصلوا الا الى استشفاف لمحات معتمة عن المدينة كما كانت في الماضي . فلم يبق الآن سوى جزء ضئيل من العظمة والروعة اللتين كان امنحوتب الثالث يمتع ناظريه فيهما ، وهذا الجزء الصغير يعتريه ويا للأسف التسوس والانحلال . لقد زال من المعابد اللون ، والبريق ، وصدى الموسيقى ، واريج الزهور والبخور العطرة ، مع زوال الكهنة ذوي الاثواب البيضاء . وحل محل الجماهير التي كانت تتقاطر للاحتفال بالاعياد وتحية عظمة الآلهة والملوك

تلامذة المدارس الصغار المبهوتون والسواح المولعون بالتقاط الرسوم المهووسون بآلات التصوير . وبعضهم يضحك هازئاً في وجه تماثيل الآلهة التي كانت تحمي المدينة عندما كانت المدينة صولجان مصر .

جدول التسلسل التاريخي

(نقلا عن و. ك. هيز في كتاب « التاريخ القديم »
من منشورات جامعة كمبردج ، المجلد الاول ، الفصل السادس)[١]

(فقط عهود ملوك السلالة الثامنة عشرة ترد في هذا الجدول كاملة بالتمام) .

ما قبل التاريخ : الفترة السابقة لعام ٣١٠٠ ق. م.

الفترة القديمة المهملة (السلالتان ١ — ٢) :
٣١٠٠ — ٢٦٨٦ ق. م.

المملكة القديمـــة (السلالات ٣ — ٦) :
٢٦٨٦ — ٢١٨١ ق. م.

الفترة الوسيطة الاولى (السلالات ٧ — ١٠) :
٢١٨١ — ٢٠٤٠ ق. م.

المملكة المتوسطة (السلالتان ١١ — ١٢) :
٢١٣٣ — ١٧٨٦ ق. م.

---

١ — هنالك اختلاف كبير بين العلماء حول تحديد ازمنة التاريخ المصري. ولذلك فقد اتبعت في هذا الكتاب جدولاً ملخصاً نوعاً ما قدمه لي المرحوم وليام كريستوفر هيز ، وكان قد أعده مع الدراسة التي وضعها حول التسلسل التاريخي المصري للطبعة المنقحة من كتاب « التاريخ القديم » الذي نشرته جامعة كمبردج ، المجلد الاول ، الفصل السادس .

السلالة العاشرة (الهرقليوبوليسية) والسلالة الثاذ (الطيبية) كانتا متعاصرتين جزئياً .

الفترة الوسيطة الثانية (السلالات ١٣ — ١٧) :

٥٦٧ — ١٧٨٦

العهـــد الهكسوسي (الســـلالة ١٥) :

٥٦٧ — ١٦٧٤

المملكة الجديدة (السلالات ١٨ — ٢٠) :

٠٨٥ — ١٥٦٧

السلالة الثامنة عشرة : ١٥٦٧ — ١٣٢٠ ق. م.

احموس	:	١٥٧٠ — ١٥٤٦ ق. م.
امنحوتب الاول	:	١٥٤٦ — ١٥٢٦ ق. م.
تحتمس الاول	:	١٥٢٥ — ١٥١٢ ق. م.
تحتمس الثاني	:	١٥١٢ — ١٥٠٤ ق. م.
حتشبسوت	:	* ١٥٠٣ — ١٤٨٢ ق. م.
تحتمس الثالث	:	* ١٥٠٤ — ١٤٥٠ ق. م.
امنحوتب الثاني	:	١٤٥٠ — ١٤٢٥ ق. م.
تحتمس الرابع	:	١٤٢٥ — ١٤١٧ ق. م.
امنحوتب الثالث	:	١٤١٧ — ١٣٧٩ ق. م.
امنحوتب الرابع	:	١٣٧٩ — ١٣٦٢ ق. م.
سمنخقر	:	* ١٣٦٤ — ١٣٦١ ق. م.
توت عنخ آمون	:	١٣٦١ — ١٣٥٢ ق. م.

آي : ١٣٥٢ — ١٣٤٨ ق. م.

حورمحب : ١٣٤٨ — ١٣٢٠ ق. م.

* وصاية مشتركة على العرش

السلالة التاسعة عشرة : ١٣٢٠ — ١٢٠٠ ق. م.

رمسيس الاول : ١٣٢٠ — ١٣١٨ ق. م.

سيتي الاول : ١٣١٨ — ١٣٠٤ ق. م.

رمسيس الثاني : ١٣٠٤ — ١٢٣٧ ق. م.

السلالة العشرون : ١٢٠٠ — ١٠٨٥ ق. م.

رمسيس الثالث : ١١٩٨ — ١١٦٦ ق. م.

الفترة السلالية المتأخرة (السلالات ٢١ — ٣٠) :
١٠٨٥ — ٣٣٢ ق. م.

ملوك تانيت : ١٠٨٥ — ٩٥٠ ق. م.

الحكم الليبي : ٩٥٠ — ٧٣٠ ق. م.

الحكم الكوشي : ٧٥١ — ٦٥٦ ق. م.

نهب الاشوريين لطيبة : ٦٦٣ ق. م.

النهضة السيتية : ٦٦٣ — ٥٢٥ ق. م.

الفتح الفارسي : ٥٢٥ — ٤٠٤ و ٣٤١ — ٣٣٢ ق. م.

فتح مصر على يد الاسكندر الكبير : ٣٣٢ ق. م.

المصـــــادر

تنحصر المصادر المعطاة هنا ، على الغالب ، بما كتب باللغة الانجليزية .
وأما ما مُيّز بعلامة * فانه يضم مصادر جامعة .

Arkell, A. J. *A History of the Sudan to 1821.* 2d ed. London, 1961.

Baedeker, Karl. *Egypt and the Sudan.* Ed. by Georg Steindorff. 8th rev. ed. London and New York, 1929.

Breasted, James H. *Ancient Records of Egypt.* Chicago, 1906.

———. *A History of Egypt from the Earliest Times to the Persian Conquest.* 2d ed. London, 1927.

Brunton, Winifred M., *et al. Kings and Queens of Ancient Egypt.* London, 1925.

———. *Great Ones of Ancient Egypt.* London, 1929.

Bruyère, Bernard. *Deir el-Médineh. Le village* . . . . Fouilles de l'Institut français d'archéologie orientale du Caire, Tome XVI, 1939.

Černý, J. *Ancient Egyptian Religion.* London, 1952.

Edgerton, W. F. "The Government and the Governed in the Egyptian Empire," *Journal of Near Eastern Studies,* Vol. VI (1947), 152–60.

Egypt Exploration Society. *The City of Akhenaten.* (*Memoirs* 38, 40, 44.) London, 1923–51.

Erman, Adolf. *The Literature of the Ancient Egyptians.* Tr. by A. M. Blackman. London, 1927.

Faulkner, R. O. "Egyptian Military Organization," *Journal of Egyptian Archaeology*, Vol. XXXIX (1953), 32–47.
Frankfort, Henri. *Kingship and the Gods*. Chicago, 1948.
*Gardiner, Sir Alan. *Egypt of the Pharaohs*. Oxford, 1961.
*Hayes, William C. "Egypt: Internal Affairs from Tuthmosis I to the Death of Amenophis III," Pts. 1 and 2, *Cambridge Ancient History* (rev. ed.), II, chap. IX. Cambridge, 1962.
*———. *The Scepter of Egypt: A Background for the Study of Egyptian Antiquities in the Metropolitan Museum of Art*. 2 vols. New York, 1953, 1959.
Kees, Hermann. *Ancient Egypt: A Cultural Topography*. Ed. by T. G. H. James. Chicago, 1961.
Lefebvre, G. *Histoire des grands prêtres d'Amon de Karnak jusqu'à la XXIe Dynastie*. Paris, 1929.
Montet, Pierre. *Everyday Life in Egypt*. London, 1958.
Posener, Georges, *et al*. *Dictionary of Egyptian Civilization*. New York, 1962.
Säve-Söderbergh, T. "The Hyksos Rule in Egypt," *Journal of Egyptian Archaeology*, Vol. XXXVII (1951), 53–71.
———. *The Navy of the Eighteenth Egyptian Dynasty*. Uppsala, 1946.
Sauneron, S. *Les prêtres de l'ancienne Égypte*. Bourges, 1957. This book, rather inadequately translated, also appears in English under the title *The Priests of Ancient Egypt* (New York and London, 1960).
Smith, William Stevenson. *Ancient Egypt as Represented in the Museum of Fine Arts* [Boston]. 4th ed., rev. Boston, 1960.
*———. *The Art and Architecture of Ancient Egypt*. (Pelican History of Art.) Baltimore, 1958. Contains valuable references in the notes.
Steindorff, George, and Keith C. Seele. *When Egypt Ruled the East*. 2d ed., revised by Keith C. Seele. Chicago, 1957.
Wilson, John A. *The Culture of Ancient Egypt*. Chicago, 1959.

(Phoenix Books; originally published as *The Burden of Egypt* [1951].)
———. "Egyptian Texts," in J. B. Pritchard (ed.), *Ancient Near Eastern Texts Relating to the Old Testament.* Princeton, 1950.
Winlock, Herbert E. *Excavations at Deir el Bahri, 1911–1931.* New York, 1942.
———. *The Rise and Fall of the Middle Kingdom in Thebes.* New York, 1947.

الفهرست

أ

ج

ح

خ

ر

ز

س

ش

ص

ض

ط

ع

ك

م

هـ

و

فهرست المحتويات

الخرائط :

ف. ب. (١٧٣)
١٩٦٧

سلسلة مراكز الحضارة

« طيبة في عهد امنحوتب الثالث » هو الكتاب الخامس من هذه السلسلة الفريدة . كانت طيبة ، عاصمة مصر العليا والسفلى ، ومقر الآلهة المالكين ، في أوج مجدها في القرن الرابع عشر قبل الميلاد : كان السلام عاماً ، والخير فائضاً ، و«الذهب كالتراب» ، وأمنحوتب العظيم حاكماً ركيناً . لقد استقرأت المؤلفة اكتشافات الحفريات ، وأوراق البردي ، وكتابات المؤرخين الأقدمين ، فرسمت صورة دقيقة لحياة الطبقات المختلفة في طيبة ، ابتداء بالملك وحاشيته في الكرنك ، ومروراً بالكهنة الكثر في المعابد المنتشرة ، والكتبة ومُعِدّي المقبرة للملك ، وانتهاء بالجنود الذين بنوا الامبراطوريات . هنا ، كانت الفلسفة والدين الدولة الجديدة تتركز حول استعطاف الآلهة والبحث عن الخلود . والكتاب يحدثنا عن كل هذا وعن الملوك المتتالين على عرش مصر حتى انقضاء الاسرة الثامنة عشرة . انه نظرة في حضارةٍ حجبَ الزمن قدراً كبيراً من أهميتها .

الكتب التي صدرت من هذه السلسلة :

دمشق في عصر المماليك

تأليف وترجمة الدكتور نقولا زياده

أثينا في عهد بركليس

تأليف : تشارلز ألكسندر روبنصن
ترجمة : الدكتور أنيس فريحة

شيراز مدينة الاولياء والشعراء

تأليف : آرثر آربري
ترجمة : الدكتور سامي مكارم

فاس في عصر بني مرين

تأليف : روجيه لو تورنو
ترجمة : الدكتور نقولا زياده

●

الناشر : مكتبة لبنان - بيروت